صص الكامل

الترجمة الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

شُرَكاء في الجَريمَة

مجموعة قصص قصيرة



الأجيال
للترجمة والنشر





Agatha Christie



Partners In Crime

Tommy & Tuppence

تومي وتوبنس





شُركَاء في الجَريمَة

تومي وتوبنس يعيشان في هدوء، لكن توبنس تتوق إلى المغامرة.

حين كلفتهما إدارة الشرطة بالمسؤولية عن مكتب بلانت للتحريات لم يترددا في قبول المهمة، فقد بدت تلك فرصةً لخوض المغامرات وتحقيق النجاح.

القضية الأولى كانت نجاحاً كبيراً لمكتب التحريات، وكذلك الثانية والثالثة، لكن الأمور لا تسير دائماً على ما يُرام. لقد اقترب تومي وتوبنس من الخطر الحقيقي، فهل ستُكتَب لهما النجاة؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

١١ رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

Chassey



الأجيال

AJYAL Publishers

ISBN 2-1957-2693-4



US $ 4.00

الفصل الأول

جنّية في الشقة

غيرت زوجة توماس بيرسفورد مكان جلوسها على الأريكة ونظرت خارج نافذة شقتها باكتئاب. لم يكن المشهد أمامها متسعاً ممتداً؛ لا شيء سوى مجمّع شقق صغير على الجانب الآخر من الشارع. تنهدت السيدة بيرسفورد ثم تثاءبت وقالت: أتمنى لو أن شيئاً يحدث!

رفع زوجها بصره إليها مؤنّباً وقال: احذري يا توبنس، فإن تشوّقك هذا إلى الإثارة يخيفني.

تنهدت توبنس وأغمضت عينيها وقالت وهي تسبح في خيالها: وهكذا تزوج تومي وتوبنس وعاشا عيشة سعيدة، وبعد مرور ست سنوات كانا ما يزالان يعيشان عيشة سعيدة... من الغريب أن تجد كل شيء مختلفاً عما كنت تتوقعه تمام الاختلاف.

- هذه عبارة عميقة جداً يا توبنس، ولكنها ليست أصيلة من بنات أفكارك؛ فقد ردّدها بعض الشعراء من قبل... واسمحي لي أن أقول إنهم قالوها بطريقة أفضل منك.

أكملت توبنس تقول: قبل ست سنوات كنت واثقة تماماً أن الحياة ستكون أغنية طويلة بهيجة بوجود ما يكفي من المال وبوجودك زوجاً لي، كما وصفها أحد الشعراء الذين تعرف الكثير عنهم كما يبدو.

سألها تومي بفتور: وما الذي سبب لك الملل... أنا أم المال؟

- «الملل» ليست هي الكلمة الدقيقة التي تعبّر عن الحال. كل ما في الأمر أنني اعتدت على النِّعَم التي أعيشها، تماماً كما لا يفكر المرء بنعمة قدرته على التنفس من أنفه حتى يصيبه الزكام.

- أترين أن عليّ أن أهملك قليلاً، فأصطحب امرأة أخرى إلى النوادي مثلاً؟

قالت توبنس: لا فائدة من هذا، فلن تكسب منه إلاّ رؤيتي وقد سبقتك إلى هناك مع رجال آخرين! وعندها سأكون متيقنة تماماً من أنك لا تهتم بالنساء الأخريات أبداً، بينما لن تستطيع الجزم أبداً من عدم اهتمامي أنا بالرجال الآخرين... إن النساء أكثر كيداً ودهاء من الرجال كما تعلم.

- إن الرجال لا ينالون أعلى الدرجات إلاّ في التواضع فقط. ولكن ما الذي دهاك يا توبنس؟ لماذا هذا القلق؟

- لا أدري. أريد أن تحدث أشياء، أشياء مثيرة! ألا تحب أن تعود إلى مطاردة الجواسيس الألمان مرة ثانية يا تومي؟ فكرّ في أيام الخطر التي مرت علينا ذات يوم. طبعاً أعرف أنك تعمل في جهاز

المخابرات الآن، لكنه ليس سوى عمل مكتبي بحت.

- هل تقصدين أنك تفضلين إرسالي إلى مجاهل روسيا متنكراً في شخصية بلشفي مثلاً؟

قالت توبنس: هذا لن ينفعني؛ فلن يسمحوا لي بالذهاب معك مع أنني بحاجة ملحّة إلى عمل شيء، أي شيء أعمله... هذا ما أردده طوال اليوم.

قال تومي وهو يلوح بيده: وماذا عن واجبات المرأة؟

- إن عشرين دقيقة من العمل بعد الإفطار كل صباح تجعل أمور المنزل تسير على ما يرام. هل لديك أية شكوى بهذا الصدد؟

- إن تدبيرك لأمور المنزل كامل وممتاز يا توبنس.

- يعجبني العرفان بالجميل.

ثم أكملت تقول: لديك عمل بالطبع. ولكن أخبرني يا تومي، ألا تشعر في قرارة نفسك بتوق شديد إلى الإثارة، إلى حدوث أشياء؟

قال تومي: لا أشعر بأي شيء من ذلك، على الأقل هذا ما أظنه.

تنهدت توبنس وقالت: يا لتحفظ الرجال! ألم تشعر يوماً أبداً برغبة داخلية جامحة إلى المغامرة والحياة المثيرة؟

- ما الذي كنت تقرئينه يا توبنس؟

أكملت توبنس تقول: فكّر كم هو مثير أن نسمع طرقات قوية

على الباب، وتذهب لفتحه فترى رجلاً ميتاً داخلاً يترنح.

قال توماس منتقداً: لا يمكن أن يترنح إذا كان ميتاً.

- أنت تعرف ما أقصده. إنهم يدخلون مترنحين دائماً قبل أن يموتوا ويقعوا عند قدميك متمتمين ببعض الكلمات المبهَمة، كعبارة «النمر المرقّط» مثلاً...

- أنصحك بأخذ جرعة من فلسفة شوبنهاور أو كانْت للشفاء من هذه الأفكار.

- إن مثل هذه الوصفة تناسبك أنت، فأنت الذي أصبحت تسمن وترتاح.

أجابها توماس كمن شعر بالظلم والإهانة: أبداً، وعلى أي حال فأنت نفسك مَن يقوم بتمارين إنقاص الوزن.

- الجميع يقومون بتلك التمارين، وعندما قلت إنك «تسمن» فقد كنت أتكلم مجازاً؛ إذ أنك تزدهر وتغدو بادي الصحة والراحة.

- لا أدري ما الذي دهاك!

- إنها روح المغامرة.

- ما الذي جرى لك حقاً يا توبنس؟ أنت لم تتحدثي هكذا من قبل قط.

- نعم، لكني كنت أغلي في داخلي منذ وقت طويل. من الخطورة أن تحصل على كل ما تريد، بما في ذلك المال الكافي لتشتري به الأشياء... باستثناء القبعات بالطبع.

- إن لديك أكثر من أربعين قبعة وكلها متشابهة.

- القبعات هكذا. لكن الحقيقة أنها غير متشابهة؛ إن فيها لمسات طفيفة مختلفة. وقد رأيت قبعة جميلة في محل فيوليت صباح اليوم...

- إذا لم يكن لديكِ أفضل من الذهاب إلى الأسواق لشراء القبعات فلستِ بحاجة...

- هذه هي القضية؛ كما تقول تماماً: لو كان لديّ شيء أفضل من ذلك أفعله! أظن أن عليّ القيام بأعمال جيدة. آه، أتمنى -يا تومي- أن تحدث أشياء مثيرة. أشعر... أشعر حقاً أن هذا سيكون مفيداً لنا. لو استطعنا أن نجد جنّية...

- آه، إن كلامك هذا لمن طرائف المصادفات.

نهض فذهب إلى ناحية أخرى من الغرفة، وفتح أحد الأدراج في مكتبه فأخرج منه صورة صغيرة أحضرها لتوبنس.

قالت توبنس: آه! إذن فقد حمّضت الصور؟ أية صورة هذه، أهي الصورة التي التقطتَها أنت لهذه الغرفة أم التي التقطتُها أنا؟

- إنها الصورة التي التقطتها أنا، أما صورتك فلم تظهر؛ فأنت تصورين دون ضوء كافٍ، هكذا تفعلين دائماً.

- أنت تفرح عندما تجد شيئاً يمكنك أن تفعله أفضل مني.

قال تومي: إنها ملاحظة حمقاء، لكني لن أعلّق عليها في الوقت الحالي. ما أردت أن أريك إياه هو هذه...

وأشار بإصبعه إلى بقعة صغيرة بيضاء على الصورة، فقالت تويبنس: هذا خدش في الفيلم.

- أبداً، هذه جنّية يا تويبنس.

- أنت أحمق يا تومي.

- انظري بنفسك.

أعطاها عدسة مكبرة، فتفحصت تويبنس الصورة بدقة. وبشيء من سعة الخيال كان بإمكان ذلك الخدش أن يبدو للناظر مخلوقاً صغيراً له أجنحة على سياج المدفأة.

صاحت تويبنس: إن لها أجنحة... يا للمتعة! جنّية حقيقية تعيش في شقتنا! آه، تومي، هل تعتقد أنها ستحقق لنا أمنياتنا؟

- ستعرفين في الحال. لقد كنتِ طوال المساء تتمنين من كل قلبك حدوث شيء.

في تلك اللحظة فُتح الباب ودخل غلام طويل في الخامسة عشرة من عمره يبدو حائراً بين أن يكون كبير خدم أو بواباً، ثم سأل بأسلوب فخم حقاً: هل أنت في البيت يا سيدتي؟ لقد قُرع جرس الباب الأمامي قبل لحظة.

تنهدت تويبنس بعد أن أعلنت موافقتها على فتح الباب، وحين خرج ألبرت قالت: أتمنى أن لا يكثر ألبرت من الذهاب إلى السينما... إنه يمثل الآن دور كبير الخدم بشكل جيد، والحمد لله أنني شفيته من عادة طلب بطاقات الزوار وإحضارها لي على طبق.

فُتح الباب ثانية وقال ألبرت كمن يعلن عن لقب ملكي: السيد كارتر.

تمتم تومي بدهشة: الرئيس؟!

قفزت تويبنس وهي تصيح من الفرحة، ثم حيّت رجلاً طويل القامة أشيب الشعر ذا عينين نفاذتين وابتسامة متعبة: سيد كارتر، أنا سعيدة برؤيتك.

- هذا جيد يا سيدة تويبنس، والآن أجيبيني على سؤال: كيف حياتك بشكل عام؟

- مُرْضية لكنها مملة.

قال السيد كارتر: جيد جداً. واضح أنني سأجدك في أنسب مزاج.

قالت تويبنس: يبدو كلامك مثيراً.

دخل ألبرت حاملاً بيده صينية الشاي وهو يتصنع دور كبير الخدم، وبعد أن أتم عملية الضيافة دون وقوع أي حادث وخرج وأغلق الباب وراءه اندفعت تويبنس تقول مرة أخرى: لا بد أنك كنت تعني شيئاً يا سيد كارتر، أليس كذلك؟ هل سترسلنا في مهمة إلى مجاهل روسيا؟

- ليس هذا تماماً.

- ولكن ثمة شيء.

- نعم، ثمة شيء. لا أظنك من النوع الذي يرتعد خوفاً من المغامرات يا سيدة توبنس، أليس كذلك؟

لمعت عينا توبنس من الدهشة والإثارة، ومضى السيد كارتر قائلاً: يوجد عمل ينبغي إنجازه لصالح الدائرة، وقد خُيِّل إليّ... مجرد خيال... أنه قد يناسبكما معاً.

قالت توبنس: هيا، أخبرنا عنه.

قال السيد كارتر وهو يرفع الصحيفة عن الطاولة: أرى أنك معتاد على قراءة صحيفة الديلي ليدر؟

قلب الجريدة إلى صفحة الإعلانات وأشار بإصبعه إلى إعلان معين، ثم دفع الصحيفة إلى تومي وقال: اقرأ هذا بصوت مرتفع.

استجاب تومي وقرأ: "وكالة التحري الدولية، المدير ثيودور بلانت. تحقيقات خاصة، عدد كبير من عملاء التحري السريين ذوي المهارة العالية، سرية متناهية، الاستشارات مجانية. العنوان: ١١٨ شارع هيلهام".

نظر إلى السيد كارتر نظرة تساؤل، فأومأ الأخير برأسه وقال: وكالة التحريات هذه كانت تعاني من الإخفاق منذ بعض الوقت، وقد اشتراها صديق لي مقابل ثمن زهيد. إننا نفكر في إحيائها من جديد لمدة ستة أشهر على سبيل التجربة، وخلال هذا الوقت يجب أن يكون لها مدير بالطبع.

سأله تومي: وماذا عن ثيودور بلانت المذكور في الإعلان؟

- لقد كان السيد بلانت رجلاً لا يتحلى بالكتمان، والواقع أن إدارة اسكتلنديارد قد اضطرت إلى التدخل. إن السيد بلانت محتجز الآن ولن يخبرنا بنصف ما نريد أن نعرفه.

قال تومي: فهمت يا سيدي، على الأقل أظن أنني فهمت.

- أقترحُ عليك أخذ إجازة من مكتبك لمدة ستة أشهر... بدعوى المرض مثلاً. وإذا كنت تريد إدارة وكالة التحري باسم ثيودور بلانت فهذا من شأنك.

نظر تومي إلى رئيسه بثبات وقال: هل توجد أي تعليمات يا سيدي؟

- أظن أن السيد بلانت قد قام ببعض الأعمال في بلاد أجنبية. انتبه إلى رسائل زرقاء اللون عليها طوابع روسية من تاجر لحوم متلهف إلى العثور على زوجته التي جاءت إلى هذا البلد لاجئة منذ سنوات. إذا أزلت الطابع ستجد أن الرقم ١٦ مكتوب تحته، خذ نسخة من هذه الرسائل وابعث لي بالرسائل الأصلية، وإذا جاء أحدٌ إلى المكتب وأشار إلى الرقم ١٦ فأبلغني على الفور.

- فهمت يا سيدي، وفيما عدا هذه التعليمات؟

أخذ السيد كارتر قفازيه عن الطاولة، واستعدّ للمغادرة قائلاً: تستطيع أن تدير الوكالة كما تشاء. أظن أن مما يسلّي السيدة توبنس أن تجرب حظها في عمل التحريات.

* * *

الفصل الثاني

إبريق الشاي

احتلّ السيد تومي بيرسفورد وزوجته توبنس مكاتب وكالة التحريات الدولية بعد أيام قليلة. كانت الوكالة في الطابق الثاني من مبنى لحقه بعض الخراب في بلومزبيري. وفي المكتب الخارجي الصغير تخلى ألبرت عن دور كبير الخدم وتولى دور صبيّ المكتب أو الساعي، وهو دور بلغ في أدائه حد الكمال. كانت صورة هذه الشخصية في ذهنه تتوافق مع شعر أشعث ويدين لوّثهما الحبر.

وكان هناك بابان يؤديان من المكتب الخارجي إلى المكاتب الداخلية، وقد نُقِشَ على أحدهما كلمة «الكَتَبة» وعلى الباب الآخر كلمة «خاص». كان هذا الباب الأخير يؤدي إلى غرفة صغيرة ومريحة تحتوي على مكتب كبير فخم وبعض الكراسي الجلدية والكثير من الملفات التي ألصقت عليها بشكل فني قصاصات بمحتوياتها، رغم أنها كانت فارغة كلها.

جلس السيد بلانت المزعوم وراء المكتب محاولاً أن يبدو وكأنه كان يدير وكالة تحريات طوال حياته. وكان هناك جهاز

هاتف بالقرب منه بالطبع، وقد تدرب هو وتوبنس على العديد من الاستخدامات والحيل الجيدة الخاصة بالهاتف، كما أن ألبرت تلقى أيضاً تعليمات خاصة به.

وفي الغرفة المجاورة كانت توبنس تقوم بدور طابِعة، وكان هناك ما يقتضيه الأمر من طاولات وكراسي، وهي من نوعية أدنى من تلك الموجودة في غرفة الرئيس. كما كان فيها موقد غاز صغير لصنع الشاي، والواقع أنه لم يكن ينقص المكتبَ شيءٌ باستثناء الزبائن.

كان لدى توبنس في فورة حماسة البداية بعض الآمال البراقة، فقد قالت وقتها: سيكون رائعاً جداً؛ سوف نصطاد المجرمين ونكتشف الحليّ المسروقة ونعثر على الأشخاص الضائعين ونكشف المختلسين...

وعند هذه النقطة أحس تومي أن من واجبه إلقاء ملاحظة أكثر واقعية: اهدئي يا توبنس وحاولي نسيان القصص الرخيصة التي اعتدت قراءتها. إن زبائننا الوحيدين (إن جاءنا أي زبائن) سيكونون فقط الأزواج الذين يريدون تعقب زوجاتهم والزوجات اللائي يردنَ تعقب أزواجهن... إن الحصول على أدلة لأغراض الطلاق هو مصدر العيش الوحيد لرجال التحري في هذه الأيام.

قالت توبنس باستياء: لن نتعامل مع قضايا طلاق؛ يجب أن نرفع من مستوى مهنتنا الجديدة.

قال تومي بارتياب: تـ... نعم.

* * *

والآن، بعد مضي أسبوع على شروعهما في العمل أخذا يتبادلان الآراء بشيء من الاكتئاب. تنهد تومي وقال: ثلاث نساء حمقاوات ذهب أزواجهن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع بعيداً عنهن... هل جاء أحدٌ عندما خرجت لتناول الغذاء؟

تنهدت توبنس بحزن وقالت: رجل بدين عجوز ذو زوجة طائشة متقلّبة. لقد قرأت في الصحف لسنوات طويلة أن آفة الطلاق تنتشر، ولكني لم أدرك حجم المشكلة إلاّ في هذا الأسبوع الماضي. لقد سئمت وتعبت من كثرة ما قلت بأننا لا نتولى حالات الطلاق.

ذكّرها تومي: لقد كتبنا هذا في إعلانات الصحف الآن، ولذلك لن يكون الحال سيئاً جداً.

قالت توبنس بصوت كئيب: كما أنني واثقة من أننا ننشر إعلاناتنا بطريقة جذابة ومغرية. ولكني لن أُهزَم؛ إذا لزم الأمر سوف أرتكب جريمة بنفسي وتقوم أنت بالتحري عنها.

- وما فائدة ذلك؟ فكري في مشاعري عندما أودّعك ألطف وداع وأنت ماضية إلى المشنقة.

- يجب أن نفعل شيئاً إزاء هذه الحال. ها نحن نجلس هنا نفور بالموهبة ومع ذلك ليست لدينا فرصة لممارستها.

- أحبُّ تفاؤلك البهيج يا توبنس. يبدو أنك لا تشُكّين في مواهبك أبداً.

قالت توبنس وهي تفتح عينيها باتساع: بالطبع لا أشك.

- ولكن تذكّري أنك لا تملكين أية خبرة عملية.

- لقد قرأت كل رواية بوليسية نُشرت في السنوات العشر الأخيرة.

- وكذلك أنا، لكني أشعر بأن ذلك لن يساعدنا كثيراً.

- لقد كنت متشائماً دوماً يا تومي. إن الثقة بالنفس شيء عظيم.

- حسناً، وأنت تثقين بنفسك بلا شك.

- الأمر سهل بالطبع في الروايات البوليسية، لأن المرء يعمل بعكس السير الطبيعي للحدث. أقصد إن عرف المرء الحل فإنه يستطيع ترتيب مفاتيح اللغز. إنني أتساءل الآن...

سكتت وعيناها تطرفان، فقال تومي مستفسراً: نعم؟

- لديّ فكرة ما. إنها لم تأتِ بعد، لكنها آتية.

ثم نهضت من مقعدها وقد عزمت أمرها وقالت: أظنني سأذهب وأشتري القبعة التي أخبرتك عنها.

- يا إلهي؛ قبعة أخرى!

- إنها قبعة جميلة جداً.

خرجت وعلامات الحزم بادية على وجهها.

• • •

سألها تومي عن تلك الفكرة أكثر من مرة في الأيام التي أعقبت

ذلك. كانت توبنس تهز رأسها وتطلب منه أن يمنحها المزيد من الوقت، وبعد ذلك في صباح يوم رائع وصل الزبون الأول وتم نسيان كل ما عداه.

طرق أحدهم الباب الخارجي للمكتب فصاح ألبرت وقد وضع حبة نعنع بين شفتيه: "ادخل"... ثم ما لبث أن ابتلع الحبة كلها في غمرة مفاجأته وفرحته؛ فقد بدا القادم زبوناً حقيقياً. كان شاباً طويل القامة يلبس ملابس راقية وأنيقة، وقد وقف عند الباب متردداً. بدا في الرابعة والعشرين من عمره تقريباً، شعره أملس مصفوف إلى الوراء بشكل جميل وعيناه محفوفتان باللون الوردي.

وفي غمرة النشوة ضغط ألبرت على زر تحت طاولته، وعلى الفور انطلقت أصوات الآلة الكاتبة كمدفع رشاش قادمة من غرفة الكتبة، إذ كانت توبنس قد شرعت في عملها المطلوب.

وقد أدى ضجيج المهنة هذا إلى زيادة ارتباك ورهبة الشاب، فقال: عفواً... هل هذا هو مكتب وكالة التحريات... مكتب بلانت للتحريات؟

سأله ألبرت: هل تريد أن تتحدث مع السيد بلانت نفسه يا سيدي؟

طرح ألبرت هذا السؤال بشيء من التشكيك في إمكانية ترتيب مثل هذا الأمر.

- حسناً، نعم أيها الغلام، هذا هو الهدف. هل يمكن هذا؟

- أظن أنه ليس لديك موعد؟

بدأت لهجة الزائر تميل إلى الاعتذار أكثر فأكثر وهو يقول: أخشى أنني لا أملك موعداً.

- من الحكمة أن تتصل قبل أن تأتي يا سيدي. إن السيد بلانت مشغول جداً، وهو الآن مشغول بمكالمة هاتفية؛ لقد اتصلت به إدارة اسكتلنديارد لتطلب استشارته.

بدا الشاب متأثراً بما سمع، فخفض ألبرت صوته ونطق بمعلومة بأسلوب ودي: لقد وقعت سرقة لوثائق خطيرة من أحد المكاتب الحكومية، ويريدون من السيد بلانت أن يتولى القضية.

- آه! لا بد أنه شخص مهم.

- إنه الرئيس يا سيدي.

جلس الشاب على كرسي صلب دون أن يدرك حقيقة أنه كان تحت مراقبة دقيقة من توبنس وتومي اللذين كانا ينظران إليه من خلال ثقب في باب مكتب كل واحد منهما. وعلى الفور رنّ الجرس الموضوع فوق طاولة ألبرت بقوة، فقال ألبرت: الرئيس غير مشغول الآن، سأرى إن كان باستطاعته مقابلتك.

دخل ألبرت من الباب المكتوب عليه كلمة «خاص»، ثم عاد بعد قليل وهو يقول: هلاّ دخلت من هنا يا سيدي؟

أدخل الزائرَ إلى المكتب الخاص، فنهض لتحيته شابٌّ مرح أحمر الشعر بادي النشاط والمقدرة وقال: تفضل بالجلوس. هل ترغب في استشارتي؟ أنا السيد بلانت.

- آه، أرى أنك شاب في مقتبل العمر؟

قال تومي وهو يلوّح بيده: لقد ولّى عهد كبار السن. مَن الذي تسبب في الحرب؟ كبار السن. مَن المسؤول عن الوضع الحالي للبطالة؟ كبار السن. مَن المسؤول عن كل فساد حدث؟ مرة أخرى: كبار السن!

قال الزبون: أظن أنك على حق. أعرف رجلاً شاعراً (أو أنه يسمي نفسه شاعراً على الأقل) وهو يتحدث مثلك دائماً.

- دعني أخبرك -يا سيدي- أنه لا يوجد شخص واحد من الموظفين المدربين تدريباً عالياً عندي يزيد عمره يوماً واحداً عن الخامسة والعشرين. هذه هي الحقيقة.

وبما أن الموظفين المدربين تدريباً عالياً كانوا لا يتجاوزون توبنس وألبرت فإن عبارته كانت الصدق بعينه.

قال السيد بلانت: والآن... إلى الحقائق.

قال الشاب: أريدك أن تعثر لي على شخص مفقود.

- حسناً، هل تعطيني التفاصيل؟

- الأمر صعب. أقصد أنها مسألة حساسة جداً، فهذا ربما أثار غضبها. أقصد... إن الأمر يصعب شرحه.

نظر إلى تومي نظرات العاجز، فأحسّ تومي بالضيق. كان على وشك الخروج لتناول الغذاء، لكنه أحس بأن انتزاع الحقائق من هذا الزبون قد يأخذ وقتاً طويلاً وقد يكون عملاً مملاً.

- هل اختفت بمحض إرادتها أم أنك تشك في اختطاف؟

- لا أدري... لا أعرف أي شيء.

تناول تومي دفتر ملاحظات وقلماً وقال: أعطني اسمك قبل كل شيء. إن لدى صبي المكتب تعليمات بأن لا يسأل عن أسماء، وبهذه الطريقة تبقى الاستشارات في غاية السرية.

- آه، جميل، فكرة رائعة جداً. اسمي... اسمي سميث.

قال تومي: آه، لا. الاسم الحقيقي من فضلك.

نظر الزائر إليه خائفاً وقال: سينت فينسينت... لورانس سينت فينسينت.

قال تومي: شيء غريب أن لا يحمل اسمَ سميث حقاً إلاّ قلةٌ قليلة من الناس. شخصياً أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم، لكن تسعة أعشار الرجال الذين يودون إخفاء أسمائهم الحقيقية يعطون اسم سميث. إنني أكتب رسالة علمية حول هذا الموضوع.

وفي تلك اللحظة رنّ جرس على مكتبه رنّات خفيفة. كان معنى هذا أن توبنس تطلب أن تتولى الأمر، وكان تومي التواق لتناول غدائه والذي شعر بعدم التعاطف مع السيد سينت فينسينت مسروراً جداً بتسليمها دفة العمل.

قال وهو يرفع السماعة: أرجو المعذرة.

ظهرت على وجهه تغيرات سريعة من الدهشة والرعب والابتهاج... ثم قال يخاطب الطرف الآخر على الخط: غير معقول!

رئيس الوزراء نفسه؟ بالطبع سآتي على الفور في هذه الحالة.

وضع السماعة والتفت إلى زبونه قائلاً: يا سيدي العزيز، أرجو منك المعذرة. استدعاء عاجل جداً. لو تشرح حقائق القضية لسكرتيرتي فهي قادرة على التعامل معها.

ثم سار نحو الباب الفاصل بين الغرفتين ونادى: آنسة روبنسون.

دخلت توبنس بملابسها الأنيقة المحتشمة وشعرها الأسود الناعم، فقام تومي بتعريفهما وانصرف. قالت توبنس بصوت رقيق وهي تجلس ممسكة بدفتر ملاحظات السيد بلانت وقلمه: أرى أن سيدة تهمك جداً قد اختفت يا سيد سينت فينسينت. هل هي سيدة شابة؟

قال سينت فينسينت: آه، إنها شابة صغيرة و... وجميلة جداً.

ازداد وجه توبنس تجهماً وقالت: أرجو أن لا...

سألها السيد سينت فينسينت بقلق حقيقي: هل تعتقدين أن شيئاً قد حدث لها؟

ردّت عليه توبنس وهي تتصنع معنويات كاذبة: آه، يجب أن نتفاءل دائماً.

ولكن لهجتها ضيّقت صدر السيد سينت فينسينت كثيراً.

- أرجوك يا آنسة روبنسون، لا بد أن تفعلي شيئاً. لا تهتمي بالتكاليف، فالعالم كله لا يساوي مكروهاً يحدث لها. إنك تبدين

متعاطفة جداً، ولذلك لن أتردد في البوح لك بأنني أموت حباً بتلك الفتاة. إنها فتاة رائعة، رائعة بلا شك.

- من فضلك أخبرني عن اسمها وعن كل شيء عنها.

- اسمها جانيت... ولا أعرف بقية اسمها. إنها تعمل في محل لبيع القبعات اسمه محل مدام فيوليت في شارع بروك، وهي فتاة مستقيمة، وقد وبختني أكثر من مرة. ذهبت إلى هناك بالأمس وانتظرت خروجها من المحل... الكل خرج إلا هي. ثم عرفت أنها لم تذهب إلى عملها منذ الصباح وأنها لم تبلّغ بأية ملاحظة، وكانت المدام العجوز صاحبة المحل غاضبة جداً من هذا. وقد حصلت على عنوانها وذهبت إليه، فأخبروني بأنها لم تعد إلى سكنها في الليلة الماضية وأنهم لا يعرفون أين هي. لقد أصبت بالذعر وفكرت في أن أذهب إلى الشرطة، لكني أعرف أن جانيت ستغضب كثيراً مني لقيامي بذلك إن كانت حقاً بخير أو كانت قد خرجت بإرادتها. ثم تذكرت أنها حدثتني بنفسها عن إعلانكم الذي نُشر في الصحيفة ذات يوم وقالت لي إن إحدى زبائن المحل قد تحدثت عن قدرتكم وسريتكم بحماسة. ولذلك فقد جئت إليكم مباشرة.

قالت توبنس: فهمت. وما هو عنوان سكنها؟

أعطاها الشاب العنوان، فقالت: أظن أن هذا يكفي. هذا يعني... هل أفهم من هذا أنك خطيب هذه الفتاة؟

احمرّ وجه السيد سينت فينسينت وقال: لا، ليس كذلك بالضبط. لم أفاتحها بشيء من ذلك، لكن أستطيع أن أقول لك إنني أعتزم طلب يدها للزواج حالما أراها... هذا إن رأيتها مرة أخرى.

وضعت توبنس الدفتر جانباً وقالت بنبرة عمَلية: هل تريد منّا أن نعاملك بنظام الخدمة الخاصة ذات الأربع والعشرين ساعة؟

- وما هذه الخدمة؟

- الرسوم مضاعفة، لكننا نضع جميع موظفينا في حالة طوارئ لحل القضية. يا سيد فينسينت، إذا كانت الفتاة على قيد الحياة فسوف أخبرك بمكانها في مثل هذا الوقت من الغد.

- ماذا؟ هذا رائع.

- نحن لا نوظف إلا الخبراء فقط، كما أننا نضمن النتائج.

- لا بد أن لديكم أفضل رجال التحري.

- آه، بالطبع. على فكرة، أنت لم تعطني وصفاً للفتاة.

- شعرها رائع جداً، ذهبي داكن كشمس الأصيل... نعم، كشمس الأصيل. أتعلمين أنني لم ألاحظ أموراً كغروب الشمس إلا مؤخراً، ولم أهتم بالشعر أيضاً إلا مؤخراً. إن في الشعر أموراً أعمق بكثير مما كنت أتخيل.

كتبت توبنس بلا اكتراث: شعر أحمر. وما هو طول هذه الفتاة؟

- آه! إنها طويلة القامة، كما أن عينيها رائعتان. أعتقد أنهما زرقاوان غامقتان. كما أن في شخصيتها حزماً وثباتاً يستوقفان المرء أحياناً.

كتبت توبنس بعض الكلمات، ثم أغلقت دفتر الملاحظات ونهضت قائلة: إذا جئت إلى هنا غداً في الساعة الثانية فسوف تكون عندنا بعض الأخبار لك. إلى اللقاء يا سيد سينت فينسينت.

* * *

عندما عاد تومي كانت توبنس تراجع كتاب الأنساب البريطانية. قالت بإيجاز: لقد حصلت على كل التفصيلات. إن لورانس سينت فينسينت هو ابن أخ إيرل شيربتون ووريثه، وإذا ما نجحنا في هذه القضية فسوف نحصل على دعاية كبيرة في أعلى المستويات.

قرأ تومي الملاحظات الموجودة في الدفتر وقال: ماذا حصل حقاً لتلك الفتاة برأيك؟

- لعلها هربت استجابة لدواعي قلبها وهي تشعر أنها تحب هذا الشاب حباً لن ترى معه راحة بال.

نظر تومي إليها بارتياب وقال: أعرف أن هذا يحدث في الروايات، لكني لم أعرف فتاة واحدة فعلت ذلك في الحقيقة.

- حقاً؟ حسناً، ربما كنت على صواب. ولكن أحسب أن لورانس سينت فينسينت سوف يصدق هذا الهراء. إنه يعيش الآن في بحر من الأفكار الرومَنسية. وعلى فكرة، لقد ضمنت النتائج خلال أربع وعشرين ساعة... «خدماتنا الخاصة».

- توبنس... أيتها الغبية بالفطرة! ما الذي جعلك تفعلين ذلك؟

- خطرت لي الفكرة هكذا، أحسست أنها تبدو جيدة. لا تقلق، اترك هذا الأمر لي فأنا أفضل من يتولاه.

ثم خرجت تاركة تومي في حالة استياء شديد، فنهض على الفور وتنهد وخرج ليفعل ما يمكن فعله لاعناً خيال توبنس المتّقِد.

عندما عاد مرهقاً بائساً في الساعة الرابعة والنصف وجد توبنس تُخرج علبة بسكوت من مكانها المخفي في إحدى الملفات. قالت: تبدو غاضباً وقلقاً، ماذا كنت تفعل؟

قال تومي متأففاً: قمت بجولة على المستشفيات لأسأل عن الفتاة صاحبة هذه الأوصاف.

- ألم أقل لك بأن تترك الأمر لي؟

- لن تستطيعي العثور على الفتاة بمفردك قبل الثانية من ظهر الغد.

- بل أستطيع... وأكثر من ذلك: لقد عثرت عليها بالفعل.

- عثرت عليها؟! ماذا تقصدين؟

- إنها مشكلة بسيطة، بسيطة فعلاً.

- وأين هي الآن؟

أشارت توبنس بيدها إلى الوراء وقالت: إنها في مكتبي هذا.

- وماذا تفعل هناك؟

بدأت توبنس بالضحك وقالت: التدريب المبكر يعطي ثماره،

ومع إبريق شاي وسخّان غاز وبعض الشاي أمام عينيها تصبح النتيجة تحصيل حاصل.

ثم أكملت بهدوء: كما تعرف فإن محل مدام فيوليت هو الذي أشتري منه قبعاتي، وبالأمس صادفتُ صديقة قديمة لي من أيام المستشفى تعمل في هذا المحل. كانت قد تركت التمريض بعد الحرب وفتحت محل قبعات، لكنها فشلت فجاءت تعمل في محل مدام فيوليت. لقد اتفقنا على هذا العمل كله بيننا؛ كان عليها أن تحفر إعلاننا في عقل الشاب سينت فينسينت حفراً ثم تختفي... كفاءة رائعة لمكتب بلانت للتحريات؛ فيه دعاية لنا، كما أنه محفّز ضروري للشاب سينت فينسينت لحمله على طلب يدها للزواج، فقد كانت جانيت مستميتةً للوصول إلى ذلك.

قال تومي: توبنس... لقد صدمتِني! إن هذا الأمر كله غير أخلاقي ولم أسمع بمثله من قبل. إنك تساعدين هذا الشاب وتحرضينه على الزواج بفتاة من غير طبقته.

- هذا هراء. إن جانيت فتاة رائعة، والغريب أنها تحب ذلك الشاب المتردد حباً جنونياً. يمكنك أن تعرف بسرعة ما تحتاجه عائلته، إنها تحتاج إلى دماء جديدة فيها. إن جانيت ستكون عامل تقدمه ونجاحه؛ سوف تعتني به كأم له، ستريحه من الحفلات والأندية الليلية وتجعله يعيش حياة صحية جيدة... تعال لتراها.

فتحت توبنس باب المكتب المجاور وتبعها تومي. وضعت فتاة طويلة ذات شعر خرّوبي جميل ووجه عذب إبريق الشاي الذي يغلي في يدها والتفتت إلى الداخلين إليها بابتسامة جميلة قائلة:

أرجو أن تعذريني يا توبنس؛ ظننت أنك ربما أردتِ فنجاناً من الشاي. كثيراً ما كنت تعدّين لي الشاي في الثالثة صباحاً عندما كنّا في المستشفى معاً.

قالت توبنس: تومي، دعني أعرفك بصديقتي القديمة الممرضة سميث.

قال تومي وهو يصافحها: هل قلت إن اسمها سميث؟ يا له من أمر غريب! آه، لا شيء... مجرد دراسة صغيرة كنت أفكر في كتابتها.

قالت توبنس: تمالك نفسك يا تومي.

ثم صبت له فنجان شاي وقالت: والآن لنحتفل بنجاح وكالة التحريات الدولية، مكتب بلانت للتحريات! أتمنى أن لا يعرف هذا المكتبُ الفشلَ أبداً.

* * *

الفصل الثالث

مسألة اللؤلؤة الوردية

قالت توبنس عندما دخلت الغرفة الداخلية لوكالة التحريات الدولية فرأت رئيسها منكبّاً على الأرض في بحر من الكتب: ما الذي تفعله بالله عليك؟

وقف تومي على قدميه بصعوبة وقال متذمراً: كنت أحاول ترتيب هذه الكتب على الرف العلوي لتلك الخزانة، لكن الكرسي المنحوس وقع بي.

سألته توبنس وهي ترفع أحد المجلدات: وما هي هذه الكتب على أي حال؟ «كلب باسكرفيل»... إنه كتاب يستحق القراءة ثانية في وقت ما.

قال تومي وهو ينفض الغبار عن ملابسه: هل أدركت فكرتي؟ إنها قضاء نصف ساعة كل يوم مع هؤلاء السادة العظام... شيء من هذا القبيل. إنني لا أملك إلا أن أشعر بأننا هواة في هذا العمل يا توبنس، ولا يسعنا بالطبع إلاّ أن نكون كذلك. ولكن لا ضرر من اكتساب وتعلم تقنيّات هذا العمل. هذه القصص قصص بوليسية

كتبها روّاد عظام في هذا الفن، وأنا أعتزم تجربة أساليب مختلفة في العمل بحيث أحاكي أسلوب واحد من رجال التحري والمحققين الكبار في كل مرة.

قالت توبنس: كثيراً ما أتساءل كيف كان هؤلاء المحققون ورجال التحري في تلك القصص سيتصرفون لو عاشوا في الحياة الحقيقية.

ثم رفعت مجلداً آخر وقالت: من الصعب عليك أن تلعب دور المحقق ثورندايك؛ فليست عندك خبرة في الطب ولا في القانون، كما أنني لم أسمع أن العلم إحدى ميّزاتك.

قال تومي: ربما لا، ولكني قد اشتريت كاميرا جيدة على أية حال، وسوف أصوّر آثار الأقدام وأكبّر هذه الصور. والآن يا عزيزتي استخدمي خلايا دماغك الرمادية الصغيرة... ماذا يعني لك هذا؟

أشار بيده إلى رفّ الخزانة السفلي، وكان على الرف رداء غريب الطراز وغليون وآلة كمان.

- إنه واضح يا عزيزي واطسون!

- بالضبط؛ إنها من لمسات شيرلوك هولمز.

أمسك تومي بالكمان ومرّر قوسها لاهياً فوق الأوتار، مما جعل توبنس تصرخ انزعاجاً. وفي تلك اللحظة رنّ جرس النداء على المكتب، وهي علامة على وصول زبون في المكتب الخارجي احتجزه ألبرت (ساعي المكتب) ليشغله بالحديث.

أسرع تومي بوضع الكمان في الخزانة ودفع الكتب وراء المكتب، ثم قال: مع أننا لسنا في عجلة بالغة من أمرنا، إذ أن ألبرت يقوم الآن بدوره في إخبار الزبون بأنني مشغول في الحديث مع إدارة اسكتلنديارد بالهاتف. اذهبي إلى مكتبك وابدئي بالطباعة يا توبنس، فهذا يجعل شكل مكتبنا مشغولاً ونشيطاً. أو انتظري... ربما كان الأفضل أن تكوني جالسة تسجّلين ملاحظات أمليها عليك. لنلقِ أولاً نظرة قبل أن نطلب من ألبرت إدخال الضحية علينا.

اقتربا من ثقب الباب الذي كان معمولاً بطريقة فنية تسمح برؤية كل ما في المكتب الخارجي. كان الزبون فتاة في عمر توبنس تقريباً، طويلة القامة سمراء ذات وجه متعب بعض الشيء وعينين توحيان بالسخرية والازدراء.

قالت توبنس: ملابسها رخيصة ولافتة للنظر، أدخلها يا تومي.

بعد دقيقة كانت الفتاة تصافح السيد بلانت الشهير بينما جلست توبنس بجانبه وعيناها مسبلتان احتشاماً ورزانة وبيدها دفتر وقلم. قال السيد بلانت وهو يشير بيده: هذه سكرتيرتي القديرة، الآنسة روبنسون. يمكنك أن تتكلمي أمامها بحرّية.

ثم استند بظهره إلى الكرسي قليلاً وأغمض عينيه وقال بنبرة متعبة: لا بد أن السفر بالحافلة متعب في مثل هذه الساعة من النهار.

قالت الفتاة: لقد جئت بسيارة أجرة.

- آه!

قالها تومي محزوناً وقد وقعت عيناه على تذكرة حافلة زرقاء كانت تظهر من تحت قفازها. ورأته الفتاة وهو ينظر إلى ما في يدها فابتسمت وأخرجتها ثم قالت: أتقصد هذه؟ لقد وجدتها على الرصيف، وأحد جيراننا يجمع مثل هذه التذاكر.

سعلت توبنس فرماها تومي بنظرة متجهمة، ثم قال بخفة: والآن إلى العمل. جئتِ تطلبين خدماتنا، أليس كذلك يا آنسة...؟

قالت الفتاة: اسمي كينغستن بروس. إننا نعيش في ويمبلدون، وفي الليلة الماضية فقدت سيدة تقيم معنا لؤلؤة وردية ثمينة. كان السيد فينسينت يتناول عشاءه معنا أيضاً، وفي أثناء العشاء حدث أن ذكر شركتكم. وقد أرسلتني والدتي إليكم هذا الصباح لنسألكم إن كان بوسعكم تولي النظر في القضية.

كانت الفتاة تتكلم باستياء وهي متجهمة الوجه؛ كان واضحاً وضوح الشمس أنها وأمها لم تكونا متفقتين بشأن هذه المسألة، وكأنها كانت هنا رغماً عنها.

قال تومي محتاراً بعض الشيء: فهمت، لكن لماذا لم تستدعوا الشرطة؟

- سيكون من السخافة استدعاء الشرطة لنكتشف بعد ذلك أن هذه اللؤلؤة السخيفة قد سقطت تحت المدفأة مثلاً.

قال تومي: آه! إذن ربما ضاعت الجوهرة فقط؟

هزت الآنسة كينغستن كتفيها وقالت: الناس يثيرون ضجة على مثل هذه الأشياء.

تنحنح تومي وقال مرتاباً: بالطبع. أنا مشغول جداً الآن...

قالت الفتاة وهي تنهض: لا بأس إذن، إنني أتفهم هذا تماماً.

ظهر الرضا والسرور في عينيها، وهو ما لاحظته توبنس على الفور. لكن تومي أكمل قائلاً: ومع ذلك فأظن أن باستطاعتي أن أعرّج على ويمبلدون، هل تعطيني العنوان من فضلك؟

- إنه بيت لوريلز، في طريق إيدجورث.

- اكتبيه يا آنسة روبنسون من فضلك.

ترددت الآنسة كينغستن بروس ثم قالت بفظاظة: إذن سنكون في انتظارك. إلى اللقاء.

قال تومي بعد أن غادرت الفتاة: فتاة غريبة... لم أفهمها تماماً.

قالت توبنس متأملة: هل يمكن أن تكون هي التي سرقت اللؤلؤة؟ هيا يا تومي، لنُعِد هذه الكتب إلى مكانها ونأخذ السيارة ونذهب إلى هناك. على فكرة: دور مَن ستمثل؟ أما زلت تريد أن تكون شيرلوك هولمز؟

- أظن أنني بحاجة إلى التدرب على ذلك؛ فلقد فشلت فشلاً فاضحاً بخصوص تذكرة الحافلة تلك، أليس كذلك؟

- بلى. لو كنت مكانك لما تماديت في خداع تلك الفتاة؛ إنها حادة الذهن، كما أنها تبدو تعيسة أيضاً.

قال تومي ساخراً: أظن أنك أصبحت تعرفين كل شيء عنها من مجرد النظر إلى شكل أنفها.

- سأخبرك عن رأيي فيما ستجده في لوريلز: أهل بيت من الذين يتملقون مَن هم أعلى منهم منزلة. الأب (إذا كان هناك أب) يحمل رتبة عسكرية بالتأكيد، والفتاة توافق على أسلوبهم في الحياة وتحتقر نفسها بسبب ذلك.

ألقى تومي نظرة أخيرة على الكتب بعد أن رتبها على الرف، ثم قال متأملاً: أعتقد أنني سأكون المحقق ثورندايك اليوم.

قالت توبنس: لا أعتقد أن في هذه القضية جوانب طبية قانونية.

- ربما لا يكون، لكني -ببساطة- متلهف إلى استخدام كاميرتي الجديدة هذه! يُفترض أن عدستها أفضل العدسات.

- أرجو أن تحمل قوالب جصية لآثار الأقدام.

صمت تومي. وذهب الاثنان إلى الكراج فأخرجا منه السيارة وانطلقا إلى ويمبلدون.



كان «لوريلز» بيتاً كبيراً ذا أبراج صغيرة يعطي انطباعاً بأنه قد تم دهانه مؤخراً، وكان محاطاً بأحواض جميلة ومنسقة من الزهور الحمراء. وقبل أن يرنّ تومي جرس البيت فتح له الباب رجلٌ طويل القامة بشارب قصير أبيض وجسم رياضي قتالي مبالَغ به.

قال الرجل وهو يشرح مبادرته إلى فتح الباب بشيء من الاضطراب: كنت أرقب قدومك من النافذة. السيد بلانت، أليس كذلك؟ أنا الكولونيل كينغستن بروس. هلاّ تفضلت إلى مكتبي؟

ثم أدخلهما إلى غرفة صغيرة في مؤخرة البيت وهو يتحدث: كان الشاب سينت فينسينت يحدّثني أشياء رائعة عن شركتكم، وقد قرأت إعلاناتكم بنفسي. إن خدمة الأربع وعشرين ساعة المضمونة التي تقدمونها فكرة رائعة... هذا ما أحتاجه بالضبط.

أجابه تومي وهو يشتم في قرارة نفسه توبنس على عدم المسؤولية في اختراعها لهذه المعلومة اللامعة: الأمر كذلك أيها الكولونيل.

- إن ما حدث أمر مؤسف يا سيدي، مؤسف جداً.

قال تومي بشيء من نفاد الصبر: أرجو أن تعطيني الحقائق.

- بالتأكيد، سأفعل ذلك فوراً. تقيم معنا في الوقت الحالي صديقة عزيزة وقديمة لنا هي الليدي لاورا بارتن، وهي ابنة إيرل كاروواي الراحل. والإيرل الحالي، أخوها، ألقى خطاباً بالأمس في مجلس اللوردات وكان خطاباً مثيراً. وكما قلت فهي صديقة عزيزة وقديمة لنا، وقد كان بعض أصدقائي الأمريكيين ممن جاؤوا عندنا لتوهم (وهم عائلة هاملتن بيتس) في غاية اللهفة لمقابلتها. قلت لهم: "لا شيء أسهل من ذلك، إنها تقيم عندي الآن. تعالوا لقضاء عطلة الأسبوع عندنا". أنت تعلم اهتمام الأمريكيين بأصحاب الألقاب يا سيد بلانت.

- وآخرون غير الأمريكيين أحياناً أيها الكولونيل.

- للأسف، هذا صحيح تماماً يا سيدي. أنا لا أكره شيئاً أكثر من التملق الطبقي! كما قلت لك: جاءت عائلة بيتس عندنا لقضاء العطلة الأسبوعية في الليلة الماضية، وكنا نلعب البريدج في ذلك الوقت. وقد انكسر مشبك القلادة التي كانت السيدة هاملتن بيتس تضعها، ولذلك خلعت قلادتها ووضعتها على طاولة صغيرة، وكان تعتزم أخذها معها إلى غرفة النوم في الطابق العلوي عندما تذهب إلى النوم لكنها نسيتها. أريد أن اشرح لك يا سيد بلانت بأن القلادة مكوّنة من حجرين صغيرين من الألماس بشكل جناحين ولؤلؤة وردية تتدلى منهما، وقد وجدنا القلادة صباح اليوم في المكان الذي وضعتها السيدة بيتس فيه، لكن اللؤلؤة (وهي ذات قيمة كبيرة جداً) انْتُزعت منها.

- من الذي وجد القلادة؟

- خادمة الاستقبال، غلاديس هيل.

- هل هناك ما يدعو إلى الشك فيها؟

- إنها تعمل عندنا منذ سنوات ولم نعرف عنها إلّا الأمانة التامة، ولكن المرء لا يدري بالطبع...

- بالضبط. هل يمكنك أن تخبرني عن العاملين عندك وتخبرني أيضاً عن الذين حضروا العشاء في الليلة الماضية؟

- الطاهية، وهي تعمل عندنا منذ شهرين فقط ولكنها لا تملك أي فرصة للاقتراب من غرفة الاستقبال. والأمر نفسه ينطبق على

خادمة المطبخ. ثم هناك خادمة المنزل إليس كمتغز، وهي تعمل عندنا منذ سنوات أيضاً. وخادمة الليدي لاورا بالطبع، وهي فرنسية.

بدا الكولونيل كينغستن بروس مبهوراً وهو يقول ذلك، لكن تومي الذي لم يتأثر بذكر جنسية الخادمة قال: حسناً، والمجموعة التي حضرت العشاء؟

- السيد بيتس وزوجته، ونحن، أنا زوجتي وابنتي، والليدي لاورا، والشاب سينت فينسينت كان يتعشى معنا، والسيد رينيه جاءنا بعد العشاء للزيارة وظل وقتاً قصيراً.

- ومن هو السيد رينيه؟

- رجل مزعج جداً، اشتراكي بغيض! إنه وسيم الطلعة وله قدرة كبيرة على الجدال، لكنني لا أثق فيه البتة؛ إنه رجل خطير.

قال تومي بجفاف: والواقع أن السيد رينيه هو الذي تشك فيه، أليس كذلك؟

- نعم يا سيد بلانت. أنا متأكد أن مَن يحمل الآراء التي يحملها رينيه لا يمكن أن تكون له أية مبادئ؛ هل هناك أسهل من أن يقوم بانتزاع اللؤلؤة من القلادة بينما نحن منشغلون باللعب؟ كانت هناك الكثير من لحظات الاستغراق... والجدل والصراخ أيضاً عندما امتنعت زوجتي عن اللعب.

قال تومي: تماماً. أريد أن أعرف شيئاً واحداً فقط: ما هو موقف السيدة بيتس من كل هذا؟

قال الكولونيل متردداً: أرادت مني أن أستدعي الشرطة. هذا بعد أن بحثنا في كل مكان على افتراض أن اللؤلؤة قد سقطت في مكان ما.

- لكنك أقنعتها بالعدول عن هذه الفكرة؟

- كنت معارضاً جداً لفكرة انتشار الخبر، وقد دعمتني زوجتي وابنتي في موقفي هذا. ثم تذكرت زوجتي الشاب سينت فينسينت عندما تحدث عن شركتكم على العشاء في الليلة الماضية... وخدمة الأربع وعشرين ساعة الخاصة.

قال تومي محزوناً: نعم.

- وكما ترى لن يحدث أي أذى على أية حال. إذا استدعينا الشرطة غداً فيمكن أن نفترض بأننا حسبنا الجوهرة قد ضاعت وأننا كنا نبحث عنها، وبالمناسبة فنحن لم نسمح لأي شخص بمغادرة المنزل هذا الصباح.

قالت توبنس وهي تتكلم لأول مرة: ما عدا ابنتك بالطبع.

وافقها الكولونيل: ما عدا ابنتي؛ لقد تطوعت على الفور للذهاب إليكم وإعلامكم بالقضية.

نهض تومي وقال: سنبذل جهدنا لإرضائك أيها الكولونيل. أريد معاينة غرفة الاستقبال والطاولة التي كانت عليها القلادة، كما أحب سؤال السيدة بيتس بعض الأسئلة. وبعد ذلك سأقابل الخدم... أو بالأحرى مساعدتي الآنسة روبنسون هي التي ستتولى هذه المهمة.

أحس بأن أعصابه لن تتحمل فظائع التحقيق مع الخدم.

فتح الكولونيل كينغستن بروس الباب بقوة وسار في الصالة وهم خلفه، وبينما هو كذلك سمعا ملاحظة واضحة تخرج من باب غرفة كانوا يقتربون منها، وكانت صاحبة الصوت التي نطقت بها هي الفتاة التي جاءت إلى الشركة لرؤيتهما صباح ذلك اليوم.

كانت تقول: تعرفين جيداً -يا أمي- أنها قد أحضرَت إلى البيت فعلاً ملعقة شاي في وشاحها الصوفي.

وبعد قليل كان الكولونيل يعرّفهما إلى السيدة كينغستن بروس زوجته، وهي سيدة حزينة واهنة ضعيفة. حيتهما السيدة كينغستن بروس بإيماءة خفيفة من رأسها، وكانت متجهمة الوجه تماماً.

كانت السيدة كينغستن بروس مهذارة، وقد أنهت كلامها وهي تقول: لكنني أعرف الذي أخذها حسب اعتقادي. إنه ذلك الشاب الاشتراكي الفظيع، إنه يحب الروس والألمان ويكره الإنكليز... ماذا تتوقعين أكثر من ذلك؟

قالت ابنتها بعنف: إنه لم يلمسها أبداً. لقد كنت أراقبه طول الوقت، ولو كان قد اقترب منها لرأيته.

ثم نظرت نظرات تحدٍّ مرفوعةَ الرأس. غير تومي موضوع الحديث إذ طلب مقابلة السيدة بيتس، وعندما غادرت السيدة كينغستن بروس بصحبة زوجها وابنتهما بحثاً عن السيدة بيتس قال هامساً: تُرى من هي التي كانت معها ملعقة شاي في وشاحها الصوفي؟

ردّت عليه توبنس: هذا ما كنت أفكر فيه بالضبط.

دخلت السيدة بيتس الغرفة وتبعها زوجها. كانت امرأة كبيرة الجسم ذات صوت يوحي بالحزم، فيما بدا السيد هاملتن بيتس كئيباً خاضعاً. قالت المرأة: علمت أنك وكيل تحريات خاصة يا سيد بلانت، وأنك تنجز عملك بسرعة كبيرة؟

قال تومي: إن الإنجاز السريع هو شعارنا يا سيدة بيتس. أريد أن أسألك بعض الأسئلة.

وبعد ذلك سارت الأمور بسرعة. رأى تومي القلادة التي انتُزعت منها اللؤلؤة والطاولة التي كانت عليها، وخرج السيد بيتس عن صمته ليذكر قيمة اللؤلؤة المسروقة بالدولارات.

أحسّ تومي في داخله بيقين مزعج من أنه لا يحقق تقدماً في حل هذه القضية، وأخيراً قال: أظن أن هذا يكفي. آنسة روبنسون، أرجو أن تحضري لي آلة التصوير الخاصة من الصالة.

أذعنت الآنسة روبنسون للأمر، وقال تومي: إنها آلة صغيرة من اختراعي، لكنها تبدو في مظهرها كأية كاميرا عادية.

أحس ببعض الارتياح عندما رأى السيدة بيتس وزوجها متأثرين بما سمعا. التقط صورة للقلادة والطاولة التي كانت عليها، كما أخذ عدة صور للبيت، ثم أرسل الآنسة روبنسون لاستجواب الخدم. وأمام الوجوه المتلهفة للكولونيل كينغستن بروس والسيدة بيتس أحس تومي بالحاجة إلى التفوه ببعض العبارات المرجعية الواثقة، فقال: الوضع الآن كما يلي: إما أن اللؤلؤة ما تزال في البيت أو أنها ليست في البيت.

قال الكولونيل باحترام إضافي لا تبرره طبيعة الملاحظة التي قالها تومي: صحيح تماماً.

- إن لم تكن في البيت فقد تكون في أي مكان، ولكن إذا كانت في البيت... فلا بد أنها مخبأة في مكان ما.

تدخل الكولونيل وقال: وفي هذه الحالة يجب التفتيش، صحيح تماماً. إنني أعطيك إذناً مفتوحاً يا سيد بلانت؛ فتش البيت من العلّية حتى القبو.

قالت السيدة كينغستن بروس متباكية: آه، تشارلز! أترى أن هذا تصرف حكيم؟ الخدم لن يعجبهم هذا، أنا واثقة من أنهم سيغادرون.

قال تومي مهدّئاً: سنؤجّل تفتيش غرفهم حتى النهاية. من المؤكد أن السارق قد أخفى اللؤلؤة في مكان لا يخطر ببال أحد.

وافق الكولونيل قائلاً: يبدو أنني قرأت شيئاً من هذا.

قال تومي: تماماً، ربما قرأت «قضية ريكس في بيلي» التي كانت سابقة من نوعها.

بدا الكولونيل محتاراً: آه، نعم.

- والآن فإن المكان البعيد الاحتمال الذي قد توجد فيه اللؤلؤة هو غرفة السيدة بيتس.

قالت السيدة بيتس بإعجاب: غرفتي! ألن يكون هذا عملاً ذكياً؟

وبلا أي ضجة أخذته إلى غرفتها حيث استخدم تومي كاميرته الخاصة مرة أخرى، وعندها انضمت توبنس إليه هناك.

- أرجو أن لا تمانعي في قيام مساعدتي بتفتيش خزانتك يا سيدة بيتس؟

- أبداً. هل تريدني هنا؟

أكد لها تومي أنه لا حاجة بها لأن تبقى فغادرت. ثم قال تومي: بوسعنا الاستمرار في خداعهم، لكني شخصياً لا أعتقد أن لدينا أي أمل في العثور على هذا الشيء. تباً لك ولخدمة الأربع وعشرين ساعة هذه يا توبنس!

قالت توبنس: اسمع، الخدم لا غبار عليهم؛ أنا متأكدة من هذا. لكني نجحت في الحصول على شيء من الخادمة الفرنسية، يبدو أنه عندما كانت الليدي لاورا تقيم هنا قبل سنة خرجت لتناول الشاي عند بعض أصدقاء عائلة الكولونيل، وعندما عادت إلى البيت وقعت من وشاحها الصوفي ملعقة شاي. ظن الجميع أن الملعقة قد سقطت في الوشاح مصادفة، ولكن ونحن نتحدث عن سرقات مماثلة حصلت على المزيد من المعلومات؛ إن الليدي لاورا دائمة الإقامة عند الناس. أظن أنها فقيرة فتذهب لتقيم عند أناس ما زال اللقب يعني لهم شيئاً. ربما كانت مصادفة وربما كانت شيئاً أكثر من ذلك، ولكن وقعت خمس حوادث سرقة واضحة بينما كانت تقيم في منازل مختلفة، أحياناً تكون المسروقات أشياء تافهة وأحياناً تكون جواهر ثمينة.

- يا إلهي! هل تعرفين أين غرفة هذه العجوز؟

- إنها الغرفة المقابلة لهذه.

- إذن أظن أن علينا أن ندخل إليها ونحقق في الأمر.

كان باب الغرفة المقابلة مفتوحاً قليلاً. كانت غرفة واسعة ذات أثاث منجَّد بقماش أبيض مزخرف وستائر وردية، وكان فيها باب داخلي يؤدي إلى الحمّام. وعند باب الحمام هذا ظهرت فتاة نحيفة سمراء تلبس ملابس أنيقة.

لاحظت توبنس علامات الدهشة والذهول التي بدت على شفتي الفتاة، وقالت وهي تتكلف الهدوء: هذه هي إليس يا سيد بلانت، خادمة الليدي لاورا.

تخطى تومي عتبة الحمام واستحسن في نفسه تجهيزاته العصرية الفخمة، ثم شرع في العمل ليبدد الشكوك التي ظهرت على وجه الفتاة الفرنسية.

- هل أنت مشغولة بواجباتك يا آنسة إليس؟

- نعم يا سيدي، إنني أنظف حمّام سيدتي.

- حسناً، هل لك بمساعدتي ببعض التصوير بدلاً من ذلك. معي كاميرا خاصة وأقوم بتصوير جميع غرف هذا البيت من الداخل.

قطعت كلامه ضربةٌ قوية ومفاجئة لباب غرفة النوم، فقفزت إليس من مكانها عندما سمعت الصوت.

- ما الذي سبّب هذا؟

قالت توبنس: لا بد أنها بفعل الريح.

قال تومي: سندخل الغرفة الأخرى.

ذهبت إليس لتفتح لهما الباب لكنه لم يُفتح، وتحرك مقبض الباب دون نتيجة. كان من نوع مقابض الأبواب الدائرية، وقال تومي بحدة: ما الأمر؟

- آه يا سيدي، لا بد أن أحدهم قد اقفل الباب من الناحية الثانية.

أمسكت بمنشفة وحاولت فتح الباب ثانية، وفي هذه المرة دار مقبض الباب بسهولة فَفُتح الباب على مصراعيه. قالت إليس: غريب! لا بد أن مقبض الباب كان عالقاً.

لم يكن في غرفة النوم أحد. أحضر تومي كاميرته وقامت توبنس وإليس بتنفيذ أوامره، لكن نظراته كانت منصبّة كل مرة إلى الباب الموصل بين غرفة النوم ومدخل الغرفة.

قال غاضباً: ترى لماذا علق هذا الباب؟

تفحصه بدقة وهو يفتحه ويغلقه؛ لم يكن فيه أي عيب. قال متنهداً: صورة أخرى... هلاّ سحبتِ تلك الستارة الوردية إلى الوراء يا آنسة روبنسون؟ شكراً لك. آنسة إليس، أرجو أن تمسكي اللوحة هكذا.

كان قد أعطى إليس لوحة القلم الزجاجية لتمسكها له، ثم أعاد الكاميرا إلى وضعها الطبيعي وأغلقها. بعد ذلك تعذّر بحجة

بسيطة ليتخلص من إليس، وحالما خرجت من الغرفة أمسك بتوبنس وتحدث معها بسرعة: اسمعيني، لديّ فكرة. هل بمكنك أن تبقي هنا؟ فتّشي كل الغرف... سيحتاج هذا إلى بعض الوقت. حاولي استجواب السيدة العجوز، الليدي لاورا، ولكن لا تنتبهيها إلى شيء. قولي لها إنك تشكّين في خادمة الاستقبال، ولكن مهما كان السبب لا تدَعيها تغادر المنزل. سأذهب في السيارة الآن وسأعود بأسرع ما يمكن.

- حسناً، ولكن لا تكن واثقاً أكثر مما ينبغي. لقد نسيتَ شيئاً واحداً؛ الفتاة. في تلك الفتاة شيء غريب. اسمعني، لقد عرفت الوقت الذي خرجت فيه من البيت هذا الصباح؛ لقد استغرقت ساعتين من الزمن لتصل إلى مكتبنا. هذا لا يُعقَل. إلى أين ذهبت قبل أن تأتي إلينا؟

اعترف زوجها قائلاً: في هذا الأمر شيء. حاولي تتبع أي دليل لديك ولكن لا تدَعي الليدي لاورا تغادر المنزل. ما هذا؟

كانت أذنه المُصغية قد أحست بوجود حركات أقدام عند الدرج، فخرج إلى الباب لكنه لم يرَ أحداً. قال: حسناً، إلى اللقاء. سأعود في أسرع وقت ممكن.

* * *

راقبته توبنس وهو يقود سيارته وهي تشعر بهاجس خفيف. كان تومي واثقاً جداً، أما هي فلم تكن كذلك. كان هناك شيء أو شيئان لم تفهمهما تماماً. وكانت ما تزال تقف عند النافذة ترقب

الطريق عندما رأت رجلاً يخرج من مكان قريب من البوابة المقابلة ويعبر الطريق ثم يرنّ جرس المنزل.

خرجت توبنس من الغرفة بسرعة البرق ونزلت الدرج. كانت غلاديس هيل خادمة الاستقبال قد خرجت من غرفة في مؤخرة البيت، لكن توبنس أشارت إليها تأمرها بالعودة إلى مكانها، ثم ذهبت إلى الباب الأمامي وفتحته.

كان القادم شاباً هزيلاً طويل القامة يرتدي ملابس لا تناسبه، وقد وقف على عتبة البيت. كانت عيناه سوداوين متلهفتين، وتردد لحظة ثم قال: هل الآنسة كينغستن بروس في الداخل؟

قالت توبنس: هلاّ دخلت؟

تراجعت قليلاً ليدخل، ثم أغلقت الباب وقالت بعذوبة: أظن أنك السيد رينيه؟

نظر إليها نظرة سريعة وقال: نعم.

- هلاّ دخلت إلى هنا من فضلك؟

فتحت باب المكتب. كانت الغرفة خالية ودخلت توبنس وراءه وأغلقت الباب وراءها، فالتفت إليها عابساً وقال: أريد رؤية الآنسة كينغستن بروس.

ردّت عليه توبنس بهدوء: لست متأكدة تماماً من أنك تستطيع ذلك.

- اسمعي! من أنت بالله عليك؟

- وكالة التحريات الدولية.

لاحظت دهشة السيد رينيه العظيمة فأضافت تقول: أرجو أن تجلس يا سيد رينيه. في البداية أقول لك إننا نعرف عن زيارة الآنسة كينغستن بروس لك صباح هذا اليوم.

كان مجرد تخمين جريء لكنه نجح، وبعد أن رأت في وجهه الذعر أسرعت تقول: إن أهم شيء هو استعادة اللؤلؤة يا سيد رينيه. لا أحد في هذا البيت يريد الفضيحة وشيوع الخبر. ألا يمكننا أن نتوصل إلى ترتيب ما؟

نظر الشاب إليها بإمعان ثم قال متأملاً: لا أدري إلى أي مدى تعرفين. دعيني أفكر في الأمر لحظة.

غطى رأسه بين يديه، ثم سألها سؤالاً غيرَ متوقع: هل صحيح أن ذلك الشاب سينت فينسينت قد خطب بقصد الزواج؟

- صحيح تماماً، وأنا أعرف خطيبته.

فجأة أصبح السيد رينيه واثقاً بمحدثته فأسرّ لها قائلاً: كان الوضع رهيباً؛ كانوا يلحّون عليها ليلاً نهاراً ويحاولون إدخال يانزيس في رأسه... كل هذا لأنه سيرث لقباً ذات يوم. لو كان الأمر لي...

أسرعت توبنس تقول: لا نريد أن نتحدث في السياسة. هل تمانع في أن تخبرني -يا سيد رينيه- لماذا تظن أن الآنسة كينغستن بروس قد أخذت اللؤلؤة؟

- أنا... أنا لا أظن ذلك.

أجابته توبنس بهدوء: بل تظن ذلك. لقد انتظرت رحيل رجل التحري (كما تعتقد) وصفا الجو لك، فجئت تسأل عنها... هذا واضح. لو كنتَ قد أخذت أنت اللؤلؤة لما كنت قلقاً هكذا.

قال الشاب: كانت تصرفاتها غريبة جداً. جاءت هذا الصباح وأخبرتني عن السرقة وقالت إنها في طريقها إلى مكتب تحريات خاصة. بدت متلهفة لقول شيء ما، ومع ذلك لم تكن قادرة على البوح به.

- حسناً، كل ما أريده هو اللؤلؤة. من الأفضل أن تذهب وتتحدث إليها.

ولكن في تلك اللحظة فتح الكولونيل الباب وقال: الغداء جاهز آنسة روبنسون. أرجو أن تتغذي معنا. إن...

ثم سكت وحدّق إلى الضيف. قال السيد رينيه: من الواضح أنك لا تريد دعوتي إلى الغداء. حسناً، سأذهب.

همست توبنس في أذنه عندما مرّ من جانبها: عد فيما بعد.

ذهبت توبنس وراء الكولونيل وهو يهدر ويتذمر من وقاحة بعض الناس، ودخلا غرفة طعام ضخمة حيث كانت العائلة قد اجتمعت. شخص واحد فقط من بين الحاضرين لم تكن توبنس تعرفه.

- هذه الآنسة روبنسون يا ليدي لاورا، وهي تساعدنا.

أومأت الليدي لاورا برأسها ثم شرعت تحملق إلى توبنس من تحت نظاراتها. كانت امرأة نحيفة طويلة القامة ذات ابتسامة حزينة

وصوت رقيق وعينين حادتين ذكيتين. حملقت توبنس إليها فخفضت الليدي لاورا عينيها.

وبعد الغداء خاضت الليدي لاورا في حديث تظاهرت فيه بالفضول الرقيق: كيف يسير التحقيق؟

شددت توبنس على الاشتباه في خادمة الاستقبال، لكن ذهنها لم يكن منصرفاً إلى الليدي لاورا حقيقة. قد تخفي الليدي لاورا ملاعق شاي وأغراضاً أخرى في ثيابها، لكن توبنس شعرت -بثقة كبيرة- في أنها لم تسرق اللؤلؤة الوردية.



بعد ذلك تابعت توبنس تفتيش المنزل. كان الوقت يجري ولم تكن هناك أية إشارة على عودة تومي، والذي أقلق توبنس أكثر هو عدم وجود مؤشر على عودة السيد رينيه. وفجأة خرجت توبنس من إحدى غرف النوم لتصطدم ببياتريس كينغستن بروس التي كانت على وشك أن تنزل الدرج، وكانت ترتدي كامل ثيابها للخروج.

قالت توبنس: أظن أنك يجب أن لا تخرجي من البيت الآن.

نظرت الفتاة إليها نظرات متغطرسة ثم قالت ببرود: ليس من شأنك أن أخرج أو لا أخرج.

قالت توبنس: ولكن من شأني أن أبلّغ الشرطة أو لا أفعل.

اصفرّ وجه الفتاة وقالت متلعثمة وهي تتوسل لتوبنس: يجب أن لا تبلغي الشرطة... لا تفعلي... لن أخرج، ولكن لا تفعلي ذلك.

قالت توبنس وهي تبتسم: يا عزيزتي! كانت القضية واضحة تماماً بالنسبة لي من البداية. إنني...

لكنها قوطعت؛ ففي غمرة حديثها مع الفتاة لم تسمع توبنس جرس الباب، ولدهشتها جاءها تومي مسرعاً على الدرج ورأت في الصالة أسفل منه رجلاً ضخم الجسم يخلع قبعته.

قال مبتسماً: هذا مفتش التحري ماريوت من اسكتلنديارد.

انتزعت بياتريس نفسها من قبضة توبنس وهي تصرخ واندفعت لتنزل على الدرج في الوقت الذي فُتح فيه باب المنزل مرة أخرى ليدخل منه السيد ربتيه.

قالت توبنس بمرارة: لقد قضيتَ على آمالنا!

قال تومي وهو يسرع إلى غرفة الليدي لاورا: إيه؟

ثم دخل إلى الحمام وأخرج منه قطعة صابون كبيرة. كان المفتش يصعد الدرج، وقال: لقد ذهبت بهدوء تام. إنها متمرسة وتعرف متى تنتهي اللعبة، وماذا عن اللؤلؤة؟

قال تومي وهو يعطيه قطعة الصابون: أظن أنك ستجدها داخل هذه الصابونة.

لمعت عينا المفتش بإعجاب وقال: إنها خدعة قديمة وجيدة أيضاً. تقطع الصابونة نصفين وتحفر فيها مكاناً للؤلؤة، ثم تلصقهما معاً مرة أخرى وتسوي بينهما مرة أخرى باستخدام الماء الحار. إنه عمل رائع وذكي من طرفك يا سيدي.

تقبل تومي المديح شاكراً، ثم نزل الدرج مع توبنس. اندفع الكولونيل كينغستن إليه وصافحه بحرارة قائلاً: يا سيدي العزيز، إنني أعجز عن شكرك بما فيه الكفاية. الليدي لاورا تريد شكرك هي الأخرى.

قال تومي: أنا سعيد لأننا أرضيناك، لكني أخشى أن لا أستطيع الانتظار أكثر من هذا، فلديّ موعد ضروري جداً مع أحد الوزراء.

أسرع إلى السيارة وقفز فيها، فقفزت توبنس في السيارة هي الأخرى وصاحت: تومي، ألم يعتقلوا الليدي لاورا؟

قال تومي: آه، ألم أخبرك؟ لم يعتقلوا الليدي لاورا؛ لقد اعتقلوا إليس.

وبينما جلست توبنس ذاهلة من هول الصدمة أكمل يقول: كثيراً ما حاولت -في الماضي- أن أفتح أبواباً والصابون على يدي، ولكنها لم تكن تُفتح لأن اليدين تنزلقان. ولذلك فقد تساءلت: ماذا كانت إليس تفعل بالصابون حتى جعلت يديها مليئتين بالرغوة؟ تذكرين أنها أمسكت بمنشفة حتى لا يبقى أثرٌ للصابون على مقبض الباب بعد ذلك. وخطر ببالي أن اللص المحترف يفضّل أن يعمل خادماً لسيدة يُشتبه في أنها مصابة بمرض السرقة وتقيم فترات طويلة في بيوت مختلفة. وهكذا استطعت أخذ صورة لها مع صورة الغرفة، كما نجحتُ في طبع بصماتها على لوح التصوير الزجاجي. وبعد ذلك ذهبت إلى إدارة اسكتلنديارد، وهناك حمّضنا الفيلم وتعرفنا على البصمات بنجاح... وعلى الصورة أيضاً. لقد كانوا يبحثون عنها منذ زمن طويل. إن إدارة اسكتلنديارد مكان مفيد بالفعل.

قالت توبنس وقد صحت من المفاجأة: كل هذا وهذان الشابان الغبيان (رينيه وبياتريس) يشكّان كلٌ في صاحبه بتلك الطريقة الساذجة التي تحدث في القصص. ولكن لماذا لم تخبرني بما كنتَ ستفعله عندما خرجت؟

- في المقام الأول كنت أشك في أن إليس كانت تتنصت إلى حديثنا عند الدرج، وفي المقام الثاني...

- نعم؟

- ها هي زميلتي المثقفة تنسى؛ إن المحقق ثورندايك لم يكن يخبر أحداً بشيء حتى اللحظة الأخيرة. وإلى جانب ذلك يا توبنس، لقد غلبتماني بمقلب أنت وصديقتك جانيت سميث في المرة السابقة، وهذا يجعلنا متعادلَين.



الفصل الرابع

مغامرة الغريب الشرير

قال تومي وهو يتثاءب: لقد كان يوماً مملاً.

قالت توبنس وهي تتثاءب أيضاً: لقد حانت ساعة الشاي تقريباً.

لم يكن العمل في وكالة التحريات الدولية نشيطاً. لم تكن الرسالة المنتظرة من تاجر اللحوم قد وصلت بعد، كما أن القضايا الحقيقية لم تبدُ قادمة بعد.

دخل ألبرت وهو يحمل طرداً مختوماً فوضعه على الطاولة. قال تومي: لغز العلبة المختومة... هل تحتوي على اللآلئ الخرافية للدوقة الروسية أم أنها آلة شيطانية صُممت لكي تفجر مكتبنا وتمزقه إرباً؟

قالت توبنس وهي تفتح العلبة: الواقع أنها هدية الزفاف مني إلى فرانسيس هافيلاند. إنها جميلة، أليس كذلك؟

ثم مدت يدها لتريه محتويات الطرد، وكانت علبة فضية

صغيرة لحفظ السجائر. أخذها تومي ولاحظ الكلمات المنقوشة عليها بخط يدها: «إلى فرانسيس من توبنس». فتح العلبة وأغلقها ثم أومأ مستحسناً وقال: إنك تبذرين نقودك هنا وهناك. سآخذ واحدة مثلها هدية لعيد ميلادي الشهر القادم، ولكني أريدها علبة من ذهب. غريب أن تبذري هذه النقود على فرانسيس هافيلاند، الذي كان وسيبقى من أغبى الرجال الذين خلقهم الله!

- يبدو أنك نسيت أنني كنت معتادة على حمله بالسيارة معي في أثناء الحرب عندما كان جنرالاً. آه، لقد كانت أياماً رائعة.

وافقها تومي: كانت رائعة بالفعل؛ كانت النساء الجميلات يأتين إلى المستشفى ويشددن على يدي. لكني لا أرسل لهن هدايا زفاف، ولا أظن أن العروس ستهتم كثيراً بهديتك هذه.

قالت توبنس متجاهلة ملاحظاته: إنها جميلة وتصلح للجيب، أليس كذلك؟

وضعها تومي في جيبه وقال باستحسان: هذا صحيح. مرحباً، ها هو ألبرت ومعه بريد المساء. من المحتمل أن ترغب دوقة ما في استئجارنا للعثور على كلبها الثمين الضائع.

فرزا الرسائل معاً، وفجأة صفر تومي صفرة طويلة وهو يمسك بإحداها بيده وهتف: رسالة زرقاء عليها طابع روسي! هل تذكرين ما قاله الرئيس؟ علينا أن ننتبه لمثل هذه الرسائل.

قالت توبنس: أمر مثير... لقد حدث شيء أخيراً. افتحها لنرى إن كانت محتوياتها في مستوى توقعاتنا أم لا. من تاجر اللحوم،

أليس كذلك؟ انتظر لحظة، سنحتاج بعض الحليب للشاي؛ سأرسل ألبرت ليشتريه لنا.

عادت من المكتب الخارجي بعد أن أرسلت ألبرت في مهمته لتجد تومي حاملاً الورقة الزرقاء بيده. قال: كما اعتقدنا يا توبنس؛ كما قال الرئيس كلمة بكلمة تقريباً.

أخذت توبنس الرسالة منه وقرأتها. كانت مكتوبة بأسلوب حذر ومتكلّف، وظاهرها أنها من شخص يدعى غريغور فيودورسكي متلهف على معرفة أخبار عن زوجته، وقد طلب من وكالة التحريات الدولية أن لا توفر أي جهد لكشف مكان وجودها. أما فيودورسكي نفسه فإنه غير قادر على مغادرة روسيا في الوقت الحالي بسبب أزمة في تجارة اللحوم.

قالت توبنس متأملةً وهي تمسّد الورقة على الطاولة أمامها: أتساءل عمّا تعنيه هذه الرسالة حقاً.

قال تومي: أظن أنها شيفرة معينة. هذا ليس من شأننا، علينا أن نسلّم هذه الرسالة إلى الرئيس في أسرع وقت ممكن. ولكن من الأفضل أن نتحقق منها بإزالة الطابع الذي عليها لنرى إن كان الرقم ١٦ مكتوباً تحته أم لا.

- حسناً، لكني أعتقد...

وقفت دون حراك، وفوجئ تومي من سكونها المفاجئ فرفع بصره ليرى رجلاً ضخم الجسم يسد مدخل الباب. كان الداخل رجلاً ذا حضور قوي، ذا جسم مربوع ورأس مستدير وفك قوي، وبدا في نحو الخامسة والأربعين من عمره.

قال الرجل الغريب وهو يتقدم داخل الغرفة وبيده القبعة: أرجو المعذرة، لقد وجدت مكتبكم الخارجي خالياً وهذا الباب مفتوحاً، ولذلك جازفت بالدخول. هل هذه وكالة بلانت للتحريات الدولية؟

- نعم، بالتأكيد.

- لعلك أنت السيد بلانت؟ السيد ثيودور بلانت؟

- أنا السيد بلانت. هل ترغب في استشارتي؟ هذه سكرتيرتي، الآنسة روبنسون.

أمالت توبنس رأسها باحترام، لكنها واصلت إمعان النظر في الرجل الغريب من تحت رموشها المسدلة. كانت تتساءل منذ متى كان يقف عند مدخل الباب وما الذي سمعه ورآه، ولم يفتها أن تلاحظ أنه حتى عندما كان يتحدث مع تومي ظلّت عيناه تنظران بين حين وآخر إلى الورقة الزرقاء التي كانت تحملها بيدها.

نبّهها تومي بصوته الحاد الذي فيه نبرة التحذير إلى احتياجات اللحظة: آنسة روبنسون، أرجو تدوين الملاحظات. والآن يا سيدي، هلاّ ذكرت لنا المسألة التي تريد استشارتي بشأنها؟

أمسكت توبنس بالدفتر والقلم، وبدأ الرجل الضخم يتحدث بصوت أجش: اسمي باور، الدكتور تشارلز باور. أعيش في هامبستيد، حيث أعمل. وقد جئت إليكم -يا سيد بلانت- لأن عدة أمور غريبة حدثت في الفترة الأخيرة.

- نعم يا دكتور باور؟

- لقد تم استدعائي بالهاتف مرتين خلال الأسبوع الماضي لحالات طارئة، وفي الحالتين وجدت البلاغ زائفاً. في المرة الأولى اعتقدت أنها مزحة، ولكن عندما عدت من المرة الثانية وجدت بعض أوراقي الخاصة وقد رُفعت من مكانها وبُعثرت، وأظن الآن أن هذا ما حدث في المرة الأولى أيضاً. وقد قمت ببحث دقيق وشامل فتوصلت إلى نتيجة أن طاولة مكتبي كلها قد تم العبث بمحتوياتها وتم إعادة الأوراق المختلفة بسرعة.

سكت الدكتور باور وحملق إلى تومي قائلاً: حسناً يا سيد بلانت؟

ردّ عليه الشاب مبتسماً: حسناً يا دكتور باور.

- ما رأيك في هذا؟

- في البداية أحب سماع الحقائق. بماذا تحتفظ في طاولة مكتبك؟

- أحتفظ بأوراقي الخاصة.

- نعم، وما هي هذه الأوراق الخاصة؟ ما هي قيمتها بالنسبة للص عادي... أو لأي شخص آخر؟

- بالنسبة للّص العادي لا أرى أنها يمكن أن تكون ذات قيمة أبداً، لكن ملاحظاتي على بعض المواد شبه القلوية الغامضة ستثير اهتمام أي شخص مهتم بالحصول على معرفة فنية بشأن هذا الموضوع. لقد كنت أقوم بدراسة هذه المسائل خلال السنوات القليلة الماضية. إن هذه المواد شبه القلوية سموم قاتلة، وهي

أيضاً سموم لا يمكن كشفها تقريباً، فهي لا تؤدي إلى أي رد فعل معروف.

- إذن فإن سرها يساوي مبلغاً كبيراً من المال؟

- بالنسبة إلى الأشخاص عديمي الضمير، نعم.

- ومن الذي تشك فيه؟

هزّ الدكتور كتفيه وقال: حسب علمي فإن أحداً لم يدخل البيت من الخارج عن طريق كسر الباب، وهذا يشير بإصبع الاتهام إلى واحد من أهل البيت. ولكني لا يمكن أن أصدق...

سكت فجأة ثم أضاف يقول بصوت هادئ رزين: سيد بلانت، يجب أن أضع نفسي بين يديك دون تحفظ؛ فأنا لا أجرؤ على الذهاب إلى الشرطة بخصوص هذه المسألة. إنني واثق تماماً من خدمي الثلاثة، فقد خدموا عندي منذ وقت طويل وبأمانة وإخلاص. ومع ذلك فمن يدري؟ كما يعيش معي في بيتي اثنان من أبناء إخوتي، بيرترام وهنري. هنري ولد طيب، طيب جداً، لم يضايقني أو يزعجني أبداً؛ إنه شاب رائع ومجتهد. أما بيرترام فيؤسفني أن أقول إنه يختلف عنه تماماً، فهو عنيف ومسرف وكسول جداً.

قال تومي متأملاً: فهمت. إذن فأنت تشك في تورط ابن أخيك بيرترام في هذا الأمر؟ لكنني لا أتفق معك في هذا، بل يمكن أن أشك في الولد الطيب، هنري.

- ولماذا؟!

- العرف والسوابق! حسب خبرتي فإن الشخصيات التي تثير

الريبة تكون دائماً بريئة، والعكس صحيح يا سيدي العزيز. نعم، بالتأكيد، إنني أشك في هنري.

قالت توبنس تقاطعه بنبرة فيها احترام: أرجو المعذرة يا سيد بلانت، هل أفهم من الدكتور باور أن هذه الملاحظات بشأن... بشأن شبه القلويات الغامضة، كانت محفوظة في المكتب مع الأوراق الأخرى؟

- إنها محفوظة في درج مكتبي يا سيدتي العزيزة، لكنها في درج سري لا يعرفه أحد غيري. ولهذا السبب بقيت هذه الأوراق بمنأى عن عبث اللص.

- وما الذي تريد مني عمله تماماً يا دكتور باور؟ هل تتوقع أن يقوم الفاعل بتفتيش المكتب مرة أخرى؟

- نعم يا سيد بلانت. لديّ كل الأسباب التي تدعوني إلى هذا الظن. بعد ظهر هذا اليوم تلقيت برقية من أحد المرضى الذين حوّلتهم إلى بورنماوث قبل بضعة أسابيع، وقد أوضحت البرقية أن مريضي هذا في حالة حرجة ويرجوني أن آتي إليه على الفور. وبعد أن اشتبهت في الأحداث التي أخبرتك عنها أرسلت برقية بنفسي إلى ذلك المريض دفعت أجور جوابها مسبقاً، فتبين من جوابه أنه في صحة جيدة وأنه لم يطلب مني الحضور إليه. وقد خطر لي أنني إذا ما تظاهرت بأنني قد خُدعت وأنني غادرت إلى بورنماوث بناء على البرقية فسوف تكون لدينا فرصة جيدة في اكتشاف الأوغاد متلبسين بجريمتهم. لا شك أنهم... أو أنه، سينتظر إلى حين ذهاب أهل البيت إلى النوم قبل أن يشرع في عملياته. وأقترح عليك أن تقابلني

خارج بيتي في الساعة الحادية عشرة من هذه الليلة حتى نحقق في هذه المسألة معاً.

أخذ تومي ينقر على الطاولة بسكين الرسائل وهو يفكر ثم قال: بأمل الإمساك بهم متلبسين بالجريمة؟ إن خطتك هذه تبدو لي رائعة يا دكتور، لا أرى عليها أي مأخذ. ما هو عنوانك؟

- اسم المنزل «لارشيز»، في هانغمانز لاين. إنها منطقة منعزلة لكننا نشرف على منظر رائع للسهل هناك.

- حسناً.

نهض الزائر وقال: إذن سأكون في انتظارك هذه الليلة يا سيد بلانت، خارج بيت لارشيز في الساعة الحادية عشرة إلاّ خمس دقائق، فهذا أضمن.

- بالتأكيد؛ الحادية عشرة إلاّ خمس دقائق. وداعاً يا دكتور باور.

نهض تومي وضغط على زر على طاولته فجاء ألبرت ليرافق الزبون. خرج الدكتور بعرج واضح، ولكن قوته الجسدية كانت واضحة أيضاً رغم ذلك.

قال تومي: زبون قبيح يصعب التعامل معه. حسناً يا توبنس، ما رأيك بهذا الأمر؟

ردت توبنس: سأخبرك بكلمة واحدة: إنها خدعة.

- ماذا؟

- قلت إنها خدعة. إن دراستي لأمهات الكتب البوليسية لم تكن عبثاً. تومي، إن هذا الأمر خدعة، والواقع أنني لم أسمع قصة أوهن من قصة شبه القلويات الغامضة هذه.

اعترف زوجها قائلاً: حتى أنا لم أجدها مقنعة.

- هل رأيت نظراته إلى الرسالة؟ إنه واحد من العصابة يا تومي. لقد عرفوا حقيقة أنك لست السيد بلانت الحقيقي، وقد جاؤوا للانتقام منّا.

قال تومي وهو يفتح الخزانة الجانبية ويستعرض الكتب المصفوفة بنظرة شغف: في هذه الحالة يسهل علينا اختيار دورنا. سنكون الإخوة أوكوود، وأنا سأكون ديزموند.

هزت توبنس كتفيها وقالت: حسناً، افعل ما تشاء. سأكون أنا فرانسيس في الحال. لقد كانت فرانسيس أذكى الأخوين؛ كان ديزموند يتورط في متاعب دائماً وكانت فرانسيس تظهر في الوقت الحرج كبستانية أو غير ذلك لتنقذ الموقف.

- آه، لكنني سأكون سوبر ديزموند. عندما أصل إلى لارشيز...

قاطعته توبنس بفظاظة: لكنك لن تذهب إلى هامبستيد هذه الليلة.

- ولِمَ لا؟

- هل ستمشي إلى الفخ وعيناك مغمضتان!

- لا يا عزيزتي، بل سأمشي إلى الفخ وعيناي مفتوحتان. ثمة فرق كبير بين الحالتين، وأظن أن صديقنا الدكتور باور سيُفاجأ قليلاً.

- لا أحب ذلك. أنت تعرف ماذا يحدث عندما يخالف ديزموند أوامر الرئيس ويعمل وفق هواه. إن الأوامر التي تلقيناها كانت واضحة تماماً؛ أن نرسل الرسائل ونبلغهم على الفور بأي شيء يحدث.

- لم تفهمي الأمر جيداً. لقد طلب الرئيس منا أن نبلغه على الفور إن جاء أي شخص وذكر رقم ١٦. لكن أحداً لم يأت.

- هذه مراوغة.

- لا فائدة؛ يعجبني أن أتولى هذا الأمر بمفردي. يا عزيزتي تونس، سأكون بخير؛ سأذهب إلى هناك بكامل أسلحتي. إن أساس الأمر كله هو أنني سأكون حذراً يقظاً دون أن يعرفوا ذلك، وسوف يربت الرئيس على ظهري معجباً بعمل الليلة.

- حسناً، أنا غير مرتاحة للأمر. إن ذلك الرجل قوي كالغوريلا.

- آه! ولكن فكري في المسدس الذي أحمله.

فُتح باب المكتب الخارجي وظهر ألبرت، وبعد أن أغلق الباب وراءه اقترب منهما حاملاً بيده ظرفاً وقال: رجل يريد رؤيتك، وعندما بدأت بأسطوانتي المعهودة قائلاً إنك مشغول مع اسكتلنديارد أخبرني بأنه يعرف كل شيء عن هذا، وقال إنه هو نفسه

قد جاء من اسكتلنديارد! وقد كتب شيئاً على البطاقة ووضعها في الظرف.

أخذ تومي الظرف وفتحه، وعندما قرأ البطاقة ارتسمت ابتسامة على شفتيه وقال: كان الرجل يسلّي نفسه على حسابك بقوله الحقيقة يا ألبرت. أدخله.

دفع البطاقة إلى تونس. كانت تحمل اسم مفتش التحري دايمشيرش، وقد كُتب عليها بخط سريع: صديق لماريوت.

وبعد قليل دخل مفتش اسكتلنديارد إلى المكتب الداخلي. كان المفتش دايمشيرش شبيهاً بالمفتش ماريوت من حيث المظهر، قصيراً وبديناً والدهاء ظاهر في عينيه. قال مبتهجاً: مساء الخير. لقد ذهب ماريوت إلى جنوب ويلز لكنه طلب مني قبل ذهابه أن أراقبكما وأراقب هذا المكان بشكل عام.

أكمل يقول عندما رأى تومي على وشك مقاطعته: آه، أرجوك يا سيدي! نحن نعرف كل شيء عن الأمر. صحيحٌ أن هذا المكتب غير تابع لنا ولا نتدخل فيه، ولكن أحد الأشخاص عرف في الفترة الأخيرة أن الأمر كله ليس كما يبدو ظاهراً. لقد جاء عندك رجل بعد ظهر اليوم. لا أعرف ماذا سمّى نفسه ولا أعرف اسمه الحقيقي، لكني أعرف القليل عنه؛ أعرف عنه ما يدفعني إلى طلب معرفة المزيد. هل أنا على صواب إذا ما افترضت أنه أعطاك موعداً للقائك هذه الليلة في مكان ما؟

- هذا صحيح.

- ظننت الأمر كذلك. وهل كان العنوان هو ١٦ طريق ويسترهام في فينسبري بارك؟

قال تومي مبتسماً: أنت مخطئ في هذا، مخطئ تماماً. العنوان هو لارشيز، هامبستيد.

بدا دايمشيرش ذاهلاً. من الواضح أنه لم يتوقع هذا، وقال: لا أفهم هذا، لا بد أنها خطة جديدة. هل قلت لارشيز، هامبستيد؟

- نعم، سأقابله هناك في الساعة الحادية عشرة إلاّ خمس دقائق هذه الليلة.

- لا تفعل ذلك يا سيدي.

صاحت توبنس فجأة: ألم أقل لك؟

احمرّ وجه تومي وقال غاضباً: إذا كنت تعتقد أيها المفتش...

لكن المفتش رفع يده مهدئاً وقال: سأخبرك بما أعتقده يا سيد بلانت. إن المكان الذي ستكون فيه في الساعة الحادية عشرة هذه الليلة هو هنا في هذا المكتب.

صاحت توبنس ذاهلة: ماذا؟!

- هنا في هذا المكتب. لا تحاول أن تعرف كيف عرفت بالأمر... أحياناً يتداخل عمل الدوائر مع بعضها... لكنك استلمت إحدى هذه الرسائل الزرقاء الشهيرة اليوم. إن ذلك العجوز الذي لا أعرف اسمه هو مَن يقف وراء هذا العمل؛ إنه يستدرجك للذهاب إلى هامبستيد حتى يتأكد تماماً من ابتعادك عن طريقه، ثم يدخل

هنا خلسة في أثناء الليل حيث يكون المبنى كله خالياً وهادئاً ليبحث ويفتش مكتبك كما يحلو له.

- ولكن لماذا يظن أن الرسالة ستكون هنا؟ كان يجب أن يعرف أنني سأحتفظ بالرسالة معي أو أن أكون قد أوصلتها.

- أرجو المعذرة يا سيدي، هذا ما لا يمكن أن يعرفه. ربما عرف -مصادفةً- حقيقة أنك لست السيد بلانت الحقيقي، لكن من المحتمَل أن يظن أنك رجل اشتريت هذا المكتب حقيقة، وفي هذه الحالة ستكون الرسالة محفوظة حسب الإجراءات المتبعة في أحد الملفات هنا.

قالت توبنس: فهمت.

- وهذا تماماً هو ما ينبغي علينا أن نتركه يظنه؛ سوف نقبض عليه هذه الليلة متلبساً بالجريمة.

- إذن هذه هي الخطة؟

- نعم؛ إنها فرصة العمر. كم الساعة الآن؟ آه، إنها السادسة. متى تغادر مكتبك في العادة يا سيدي؟

- في الساعة السادسة تقريباً.

- يجب أن تبدو مغادراً المكتب في الوقت المعتاد، وسوف نعود إليه خلسة في أقرب وقت ممكن. لا أظن أنهم سيأتون إلى هنا قبل الحادية عشرة، لكنهم قد يفعلون ذلك بالطبع. لو سمحت لي، سأذهب لألقي نظرة على الخارج وأرى إن كان أحدٌ يراقب المكان.

خرج دايمشيرش، وبدأ تومي جدالاً مع توبنس. استغرق الجدال وقتاً من الزمن وازدادت حرارته وحدّته، وفي نهاية الأمر أذعنت توبنس واستسلمت فجأة. قالت: حسناً، إنني أستسلم؛ سأذهب إلى البيت وأجلس هناك كفتاة صغيرة طيبة بينما أنت تقوم بالتصدي للمحتالين وتجلس مع رجال التحري وحدك... ولكن انتظر أيها الشاب، سأنتقم منك لحرماني من متعة هذا العمل.

كان دايمشيرش قد عاد في تلك اللحظة، وقال: يبدو أن أحداً لا يراقب المكان، ولكننا لا نعرف. من الأفضل أن نغادر بطريقة معتادة. إنهم لن يستمروا في مراقبة المكان عندما تغادرونه.

نادى تومي ألبرت وأمره بأن يقفل المكتب، ثم خرج الأربعة إلى الكراج القريب حيث تقف السيارة في العادة. قادت توبنس السيارة وجلس ألبرت بجانبها، وجلس تومي والمفتش في المقعد الخلفي.

وسرعان ما حوصروا وسط السيارات حيث ازدحم الشارع وتوقف السير. نظرت توبنس إلى الوراء وأومأت برأسها، ففتح تومي والمفتش الباب الأيمن وخرجا إلى وسط شارع أكسفورد، وبعد قليل تحركت توبنس بسيارتها.



قال دايمشيرش عندما دخل مع تومي شارع هيلهام مسرعَين: من الأفضل أن لا تدخل المكتب الآن. هل المفتاح معك؟

أومأ تومي برأسه بالإيجاب.

- إذن ما رأيك في العشاء؟ الوقت مبكر الآن، ولكن ثمة مطعم صغير مقابل المكتب تماماً. سنأخذ طاولة قريبة من النافذة حتى نراقب المكان طوال الوقت.

تناولا وجبة صغيرة كما اقترحها المفتش، وقد وجد تومي المفتش دايمشيرش رفيقاً مسلياً. إن معظم عمله الرسمي كان مع جواسيس دوليين وكانت عنده قصص أدهش بها مستمعه البسيط، وظلاّ في المطعم الصغير حتى الساعة الثامنة عندما اقترح دايمشيرش عليه الانطلاق. قال: الجوّ مظلم تماماً الآن، ونستطيع أن نتسلل إلى الداخل بلا أي مشكلة.

كان الجو مظلماً كما قال. عبرا الطريق ونظرا بسرعة إلى أعلى الطريق الخالي وأسفله، ثم انسلاّ إلى مدخل البناية فصعدا الدرج وأدخل تومي مفتاحه في قفل المكتب الخارجي. وفي تلك اللحظة بالذات ظنّ أنه سمع دايمشيرش يصفر بجانبه، فسأله بحدّة: لماذا تصفر؟

قال دايمشيرش مدهوشاً: لم أصفر، كنت أظن أنك أنت الذي صفرت.

- حسناً، هناك شخص...

لم يكمل عبارته، فقد أمسكت به من الخلف ذراعان قويتان، وقبل أن يصيح وُضعت على فمه كمامة عليها مادة حلوة المذاق تثير الغثيان وضُغطت على فمه وأنفه. قاوم بكل شجاعة ولكن دون جدوى؛ فقد أعطى الكلوروفورم مفعوله. بدأ رأسه يدور وكانت الأرض تموج أمامه، ثم فقد وعيه.

عاد إلى وعيه وهو يتألم لكنه كان بكامل قواه العقلية. كان الكلوروفورم مجرد نشقة، فقد وضعوا كمامة الكلوروفورم على فمه حتى يفقد سيطرته لبعض الوقت ومن ثم أغلقوا فمه بقطعة من قماش حتى لا يصرخ. وعندما استعاد وعيه كان نصفَ ممدَّد ونصفَ جالس، ملقى على الحائط في إحدى زوايا مكتبه الداخلي. كان ثمة رجلان مشغولان بتقليب محتويات الأدراج وتفتيش الخزائن وهما يشتمان ويلعنان.

قال أطولهما بصوت أجشّ: يا إلهي! لقد قلبنا المكان كله رأساً على عقب وظهراً على بطن ولم نجدها.

زمجر الآخر قائلاً: لا بد أن تكون هنا؛ إنها ليست معه ولا يوجد مكان آخر يمكن أن تكون فيه.

عندما تكلم التفت، ولشدة دهشة تومي وذهوله رأى أن ذلك المتكلم الأخير لم يكن سوى المفتش دايمشيرش! ابتسم المفتش المزعوم عندما رأى الدهشة تعلو وجه تومي وقال: ها قد استيقظ صديقنا الشاب، وهو مدهوش قليلاً... نعم، مدهوش. لكن الأمر بسيط جداً؛ لقد اشتبهنا بأن أمور وكالة التحريات الدولية ليست كلها كما ينبغي أن تكون، وقد تطوعت لاكتشاف إن كان الأمر كذلك أم لا. إن كان السيد بلانت الجديد جاسوساً فعلاً فسوف يرتاب، ولذلك أرسلت في البداية صديقي العزيز القديم كارل باور. طلبت من كارل أن يتصرف بما يثير الريبة وأن يخترع حكاية لا يمكن تصديقها، ففعل ذلك، ثم ظهرتُ أنا على المسرح. استخدمت اسم المفتش ماريوت حتى أحصل على الثقة، وكان ما تبقّى سهلاً.

ثم ضحك. أما تومي فكان يصارع ليقول أشياء كثيرة، إلا أن الكمامة في فمه منعته. كما كان متشوقاً ليفعل أشياء بيديه وقدميه، ولكن للأسف، لقد كان مقيداً بإحكام. وكان أكثر ما أدهشه هو التغير المذهل في الرجل الذي وقف فوقه؛ لقد بدا إنكليزياً حقيقياً وهو يمثل شخصية المفتش دايمشيرش، أما الآن فما كان لأحد أن يشك للحظة واحدة في أنه أجنبي عالي الثقافة يتكلم الإنكليزية بكل إتقان وبلا أي أثر للكنة أجنبية.

قال المفتش المزعوم مخاطباً شريكه الذي بدا متشرداً متوحشاً: كوغينز، يا صديقي الطيب، خذ سلاحك وقف بجانب السجين. سوف أزيل هذه الكمامة عن فمه. هل تفهم يا سيدي العزيز بلانت أنك ستكون أحمق يسعى إلى حتفه لو صرخت؟ أنا واثق أنك تفهم؛ فأنت شاب ذكي جداً بالنسبة إلى سنّك.

أزال الكمامة عن فمه بخفة ورشاقة ورجع إلى الوراء. حرك تومي فكيه المتصلبين وقلب لسانه داخل فمه وابتلع ريقه مرتين، ولم يقل أي شيء أبداً.

قال الآخر: أهنئك على رباطة جأشك. أعرف أنك تقدر الموقف، أليس لديك أبداً ما تقوله؟

قال تومي: ما أريد أن أقوله سيبقى في نفسي، ولن يُفسده مرور الوقت.

- آه، لكن ما أريد أنا قوله لن يبقى حبيس نفسي. بصراحة يا سيد بلانت: أين تلك الرسالة؟

قال تومي مبتهجاً: يا سيدي العزيز، لا أعرف. إنها ليست معي، وأنت تعرف هذا كما أعرفه. لو كنت مكانك لواصلت البحث عنها، فأحب أن أراك وصاحبك كوغينز وأنتما تلعبان لعبة البحث معاً.

تجهم وجه المفتش المزعوم وقال: الظاهر أنك تستمتع باستهانتك بالموقف يا سيد بلانت. هل ترى ذلك الصندوق المكعّب هناك، إنها عدة كوغينز الصغيرة. يوجد في الصندوق حامض الأسيد. نعم، حامض الأسيد... وحديد يمكن تسخينه في النار حتى يصبح أحمر حارقاً.

هز تومي رأسه بحزن وقال: خطأ في التشخيص؛ لقد أخطأنا أنا وتوبنس في تسمية هذه المغامرة.

- أحمق جاهل! هل ستفعل ما نطلبه منك أم لا؟ هل أطلب من كوغينز أن يُخرج أدواته ويبدأ بالعمل؟

- لا تفقد صبرك، سأفعل ما تريد بالطبع حالما تخبرني ما هو. لا أظنك تحسبني راغباً في أن يتم تقطيعي إلى شرائح تُشوى؟ إنني أكره الأذى لنفسي.

نظر دايمشيرش إليه بازدراء وقال: تافه، يا لهؤلاء الإنكليز من جبناء!

- إنه المنطق السليم يا عزيزي، المنطق السليم فحسب. دع حامض الأسيد جانباً وعد بنا إلى موضوعنا.

- أريد الرسالة.

- قلت لك إنها ليست معي.

- تعرف هذا، وتعرف أيضاً مَن الذي يمتلك الرسالة... الفتاة.

قال تومي: قد تكون على حق. ربما وضعَتها في حقيبتها عندما أفزعَنا صديقك كارل.

- آه، أنت لا تنكر إذن؟ إنه تصرف حكيم. جيد، اكتب لهذه الفتاة (توبنس كما تسميها) واطلب منها أن تحضر الرسالة إلى هنا فوراً.

قال تومي: لا أستطيع هذا.

تدخّل المفتش المزعوم قبل أن ينهي جملته وقال: لا تستطيع؟ حسناً، سنرى في الحال. كوغينز!

قال تومي: لا تتعجل هكذا وانتظر حتى أكمل عبارتي؛ كنت أريد أن أقول إنني لا أستطيع هذا إلا إذا أطلقت يديّ. أنا لست بهلواناً يستطيع أن يكتب بأنفه أو بمرفقه.

- إذن فأنت تريد الكتابة؟

- بالطبع. ألم أقل لك ذلك منذ البداية؟ كلي استعداد لأن أكون لطيفاً متعاوناً. لن تؤذوا توبنس بالطبع، أنا واثق من ذلك... إنها فتاة لطيفة.

قال دايمشيرش: نريد الرسالة فقط.

لكن ابتسامة كريهة جداً ارتسمت على وجهه. وبإشارة من رأسه جثا كوغينز المتوحش على ركبته وأرخى ذراعَي تومي،

فحركهما تومي قليلاً وقال مبتهجاً: هذا أفضل. هل يتفضل كوغينز الطبيب بإعطائي قلمي. أظن أنه على الطاولة مع الأشياء الأخرى المتنوعة عليها.

أسرع الرجل وأحضر له القلم المطلوب وأعطاه ورقة. قال دايمشيرش متوعداً: انتبه لما ستكتبه، سنترك الأمر لك تكتب ما تريد، لكن الفشل يعني... الموت، والموت البطيء.

قال تومي: في هذه الحالة سأبذل جهدي بالتأكيد.

فكّر بعض الوقت ثم بدأ يكتب بسرعة. ثم سأل وهو يسلمه الورقة المكتوبة: ما رأيك بهذه: «عزيزتي توبنس، هل يمكنك أن تأتي على الفور وتحضري معك تلك الرسالة الزرقاء؟ نريد أن نفكّ رموزها هنا وفي الحال. بسرعة، فرانسيس.»؟

سأله المفتش المزعوم دَهِشاً: فرانسيس؟ هل هذا هو الاسم الذي تناديك به؟

- لأنك لم تحضر حفل تعميدي فلا أظن أنك تستطيع أن تعرف إن كان هذا هو اسمي أم لا، لكني أعتقد أن علبة السجائر التي أخذتَها من جيبي دليل جيد على أنني أقول الحقيقة.

ذهب الرجل إلى الطاولة وأخذ العلبة وقرأ عليها: «إلى فرانسيس من توبنس». ابتسم ابتسامة خفيفة، ثم أعادها إلى الطاولة وقال: أنا سعيد لأنك تتصرف بمثل هذا التعقل. كوغينز، أعطِ تلك الرسالة إلى فاسيللي. إنه يقوم بالحراسة خارج المكتب، وقل له أن يأخذها على الفور.

مرّت الدقائق العشرون التالية ببطء، والعشرة التي بعدها ببطء أكثر. كان دايمشيرش يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ووجهه يزداد حلكة وسواداً مع مرور الوقت، وقد التفت مرة إلى تومي متوعّداً وقال: إن كنت قد تجرأت على خداعنا...

ردّ عليه تومي متشدّقاً: لو كان عندنا أوراق لعب للعبنا حتى نبدد الوقت، فالنساء يجعلن المرء ينتظر دائماً. لكن أرجو أن لا تقسو على توبنس الصغيرة عندما تأتي.

- آه، لا؛ بل سنعمل على ترتيب أمر ذهابكما إلى نفس المكان... معاً.

وفجأة سمعوا حركة في المكتب الخارجي. أطلّ رجل لم يكن تومي قد رآه من قبل برأسه وتكلم شيئاً بالروسية، فقال دايمشيرش: حسناً، هذا جيد؛ إنها قادمة... وهي قادمة بمفردها.

تحرك شيء من اللهفة في قلب تومي للحظات، وبعد قليل سمع صوت توبنس: آه، ها أنت ذا أيها المفتش دايمشيرش. لقد أحضرت الرسالة. أين فرانسيس؟

عندما قالت تلك الكلمة الأخيرة كانت تدخل من الباب، فقفز فاسيللي عليها من الخلف وأطبق يده على فمها، في حين انتزع دايمشيرش حقيبتها من يدها وقلّب محتوياتها بشكل محموم. وفجأة صاح فرحاً وأخرج مغلفاً أزرق عليه طابع روسي، فيما صاح كوغينز بصوت أجش.

وفي لحظة النصر تلك فُتح الباب الآخر، الباب المؤدي إلى

مكتب توبنس، فُتح بهدوء ودخل الغرفة المفتش ماريوت ورجلان آخران مسلحان بالمسدسات وبأوامر حادة: ارفعوا أيديكم.

لم يحدث قتال، فقد أُخذ الجميع على حين غرة وفي وضع لا أمل فيه، إذ كان مسدس دايمشيرش على الطاولة فيما لم يكن الآخران مسلحَين.

قال المفتش ماريوت باستحسان وهو يقيّد آخر رجل فيهم: صيد جميل، وأرجو أن نحصل على المزيد منهم بمرور الوقت.

نظر دايمشيرش إلى توبنس شاحباً غاضباً وقال مزمجراً: أيتها الشيطانة الصغيرة! أنت التي خبرتِهم عنّا.

ضحكت توبنس وقالت: لم يكن ذلك كله من فعلي. كان عليّ أن أخمّن عندما أوردت ذكر الرقم ١٦ بعد ظهر اليوم، لكن رسالة تومي هي التي حسمت الأمور. اتصلت بالمفتش ماريوت وطلبت من ألبرت أن يقابله ومعه نسخة من مفاتيح المكتب، وجئت إلى هنا والمغلف الأزرق الفارغ في حقيبتي. وقد بعثت بالرسالة وفق التعليمات حالما تركتكما بعد ظهر اليوم.

من كل هذا الحديث كانت كلمة واحدة هي التي لفتت انتباه المفتش المزعوم دايمشيرش؛ فصاح بدهشة: **تومي؟!**

جاء تومي نحوهم بعد أن تحرر من قيوده وقال مخاطباً توبنس وهو يمسك بيديها: لقد أحسن صنعاً الأخ فرانسيس هذا.

* * *

الفصل الخامس

الفوز على الملك

كان يوم أربعاء ممطراً خارج مكتب وكالة التحريات الدولية. تركت توبنس صحيفة الديلي ليدر تسقط من يديها وقالت: هل تعرف ما كنت أفكر به يا تومي؟

رد زوجها: من المستحيل أن أعرف؛ فأنت تفكرين في أشياء كثيرة جداً، وتفكرين فيها جميعاً في وقت واحد.

- لقد فكرت أنه حان الوقت لنذهب معاً إلى قاعة الموسيقى الشعبية، حيث ينظمون الحفلات التنكرية الصاخبة تلك.

أسرع تومي وأمسك بصحيفة الديلي ليدر وقال: إن إعلاننا يبدو جيداً: «تحريات بلانت الذكية»... هل تعرفين -يا توبنس- أنك التحري الذكي والوحيد في هذه الوكالة؟ إن المجد ينتظرك.

- كنت أتحدث عن صالة الموسيقى والعروض التنكرية.

- لقد لاحظتُ وجود نقطة غريبة بشأن الصحف، لا أدري إن كنتِ قد لاحظتِها مثلي أم لا. خذي هذه النسخ الثلاث من صحيفة

الديلي ليدر. هل يمكنك أن تقولي لي كيف تختلف الواحدة منها عن الأخرى؟

أمسكت تونس بالصحف الثلاث بشيء من الفضول ثم قالت: يبدو سؤالاً سهلاً جداً. واحدة منها صحيفة اليوم والثانية صحيفة الأمس والثالثة صحيفة أول أمس.

- هذا واضح جداً يا عزيزتي، لكنه لم يكن قصدي. لاحظي العنوان «ديلي ليدر»، قارني بين العناوين الثلاثة... هل ترين أي فرق بينها؟

- لا، لا أظن أنني سأجد بينها أي فرق.

تنهد تومي وأطبق رؤوس أصابعه على طريقة شيرلوك هولمز الشهيرة وقال: مع أنك تقرئين الصحف أكثر مني، إلا أنني لاحظت وأنت لم تلاحظي. إذا نظرتِ إلى صحيفة اليوم سترين أن هناك نقطة بيضاء صغيرة في وسط حرف الدال من كلمة «ديلي»، وهناك نقطة أخرى في حرف اللام من نفس الكلمة، أما في صحيفة الأمس فلا توجد النقطة البيضاء في كلمة ديلي أبداً، بل توجد نقطتان بيضاوان في حرف اللام من كلمة «ليدر»، وفي صحيفة أول أمس ستجدين نقطتين في حرف الدال من كلمة «ديلي»... والواقع أن مكان النقطة أو النقاط يتغير كل يوم.

سألته تونس: لماذا؟

- إنه سر صحفي.

- تعني أنك لا تعرف ولا تستطيع التخمين.

- سأكتفي بالقول إن هذا الإجراء شائع في جميع الصحف.

- ألستَ ذكياً؟ ولا سيما في التهرب من الموضوعات التي لا تروق لك. لنعُد إلى ما كنّا نتحدث عنه.

- وعن أي شيء كنّا نتحدث؟

- عن الذهاب إلى صالة الموسيقى الشعبية، أعني «صالة الفنون الثلاثة» التي تنظِّم فيها الحفلات التنكرية.

قال تومي متأففاً: لا، لا يا تونس. دعينا من هذا الأمر؛ فأنا لم أعد صغيراً لكي أذهب إلى أمثال هذه الأماكن... أؤكد لك أنني لم أعد صغيراً لمثل هذا الأمر.

- عندما كنت فتاة صغيرة نشأت على فكرة أن الأزواج مخلوقات تحب التسكع والسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، وأن إبقاءهم في البيت يتطلب زوجة على جانب كبير من الجمال والذكاء. وقد كان هذا وهماً آخر تبخر من عقلي؛ فكل الزوجات اللاتي أعرفهن يتلهفن للخروج والسهر ويبكين لأن أزواجهن يلبسون ثياب النوم ويذهبون إلى أسرّتهم منذ الساعة التاسعة والنصف!

- خففي الوطء يا تونس.

- الواقع أنني لا أريد الذهاب من أجل المتعة فقط؛ لقد أسرني هذا الإعلان.

أمسكت صحيفة الديلي ليدر وقرأت الإعلان بصوت مرتفع: «أحتاج إلى ثلاثة كوبة، ١٢ دورة لعب، آس البستوني، هذا ضروري للفوز على الملك».

كان تعليق تومي: إنها طريقة مكلفة في تعلم لعبة البريدج.

- لا تكن مغفلاً؛ لا علاقة لهذا الأمر بالبريدج. لقد كنت أتناول الغداء بالأمس مع فتاة في مطعم اسمه «آس البستوني»، إنه مطعم صغير غريب الأجواء تحت الأرض في تشيلسي، وقد أخبرتني أن من عادة المشاركين في تلك الحفلات أن يعرجوا على ذلك المطعم في أثناء المساء لتناول وجبات خفيفة من اللحم والبيض وفطائر الجبنة.

- وما هي فكرتك؟

- لا بد أن «ثلاثة كوبة» تعني «صالة الفنون الثلاثة»، و«١٢ دورة لعب» تعني الساعة الثانية عشرة، و«آس البستوني» هو المطعم الذي يحمل هذا الاسم.

- وما معنى عبارة «ضروري للفوز على الملك»؟

- حسناً، هذا ما أظن أننا سنكتشفه.

قال تومي: لن أتعجب إن أخطأتِ التقدير، لكني لا أفهم سبباً لرغبتكِ في التدخل في علاقات الناس العاطفية.

- لن أتدخل. إن ما أعتزم عمله هو القيام بتجربة مثيرة في عمل التحري، فنحن بحاجة إلى ممارسة.

- صحيحٌ أننا لا نعاني من ازدحام في العمل، لكن الحل ليس في المشاركة في حفلات تنكرية!

ضحكت توبنس وقالت: لكن عندك روح رياضية يا تومي؛ حاول أن تنسى أنك في الثانية والثلاثين من عمرك وأن لديك شعرة رمادية في حاجبك الأيسر.

- وهل مطلوبٌ مني أن أرتدي ملابس تنكرية لأصبح أضحوكة للناس؟

- بالطبع، لكن يمكنك أن تترك هذا لي، فلديّ فكرة رائعة.

نظر تومي إليها نظرات شكّ وريبة، إذ كان يرتاب دوماً في أفكار توبنس اللامعة.

❊ ❊ ❊

عندما عاد إلى الشقة مساء اليوم التالي خرجت توبنس من غرفة النوم مسرعة للقائه وقالت: لقد وصلَت.

- ماذا تعنين؟

- البدلة، تعال لتراها.

تبعها تومي، فرأى على السرير بدلة رجل إطفاء كاملة مع خوذة لامعة. صاح: يا إلهي! هل انضممت إلى رجال المطافئ دون علمي؟

قالت توبنس: خمّن ثانية، فأنت لم تفهم الفكرة بعد. استخدم خلايا مخك الرمادية الصغيرة يا عزيزي، كن ذكياً.

قال تومي: انتظري لحظة؛ لقد بدأت أفهم. في عقلك هدف خفي من هذا. ماذا ستلبسين يا توبنس؟

- بدلة قديمة من بدلاتك، مع قبعة أميركية ونظارة ذات إطار ثمين.

- فكرة فجة، ولكني فهمتها. ستمثلين دور ماكارتي بينما أكون أنا ربوردان.

- هذا صحيح، فقد رأيت أنه يجب علينا تطبيق وسائل التحري الأميركية إضافة إلى الإنكليزية. سأكون أنا البطلة لمرة واحدة فقط وستكون أنت مساعدي المتواضع.

قال تومي محذراً: لا تنسي أن ملاحظة بريئة من ربوردان البسيط هي التي ترشد ماكارتي دوماً إلى الطريق الصحيح.

ضحكت توبنس، فقد كانت معنوياتها مرتفعة.

* * *

كانت أمسية ناجحة جداً. جموع الحاضرين، والموسيقى الصاخبة، والملابس التنكرية الغريبة... ونسي تومي دوره كزوج ضَجِر جيء به إلى هذا المكان مرغَماً.

وقبل الثانية عشرة بعشر دقائق انطلق الزوجان بالسيارة إلى مطعم «آس البستوني» الشهير... أو غير الشهير. وكما قالت توبنس، كان مطعماً صغيراً تحت الأرض سيء المظهر، لكنه كان -مع ذلك- مزدحماً بأزواج يرتدون ثياباً تنكرية غريبة. وفي جهة من المطعم كانت هناك مقصورات شبه مغلقة، وقد احتل تومي وتوبنس واحدة منها وتركا بابها مفتوحاً قليلاً حتى يتمكنا من رؤية ما يجري في الخارج.

قالت توبنس: إنني أتساءل: من هم جماعتنا من بين هؤلاء؟ أعني من الذي نشر ذلك الإعلان؟ ربما كان ذلك الذي يرتدي زي شيطان القرون الوسطى؟

- وماذا عن ذلك الكولومبي وكأنه القرصان الأحمر؟

- لعلها تلك الفتاة القادمة التي تلبس ثياب ملكة الكوبة؟ إنه لباس جيد.

دخلت الفتاة إلى المقصورة المجاورة لمقصورتهما بصحبة رفيقها الذي كان يتنكر بزي رجل يرتدي أوراق الصحف كما في قصة «أليس في بلاد العجائب»، وكانا يضعان قناعين، إذ يبدو أن هذه العادة منتشرة في هذا المطعم.

فجأة قالت توبنس: ما هذا الشجار والصراخ؟

دوّت من المقصورة المجاورة صيحةٌ غطّتها ضحكة رجل عالية. كان الجميع يغني ويضحك، وعلت أصوات الفتيات الحادة على أصوات مرافقيهن من الرجال.

سأل تومي: ماذا عن راعية الغنم تلك التي جاءت مع المهرج الفرنسي؟ ربما كان هذان هما جماعتنا إياها.

- أي زوج قد يكون المقصود! المهم أننا نستمتع بوقتنا.

قال تومي متذمراً: كان من الممكن أن أمتع نفسي بطريقة أفضل في بدلة غير هذه. أنت لا تعرفين الحرارة التي تسببها هذه البدلة!

- ابتهج؛ إنك تبدو رائعاً فيها.

- إنني أكثر سعادة منك، فلم أرَ شخصاً مضحكاً مثلك.

- حافظ على تهذيب لسانك يا ولدي الصغير ديني. ما هذا؟ الرجل الذي يرتدي ثياباً كأوراق الجريدة يترك فتاته وحدها. إلى أين هو ذاهب في اعتقادك؟

- أظن أنه ذاهب ليستعجل الطعام، وإني لأكاد أحذو حذوه.

بعد أن انقضت أربع دقائق أو خمس قالت توبنس: لقد استغرق طويلاً في استعجال الطعام... تومي، هل ترى فيّ فتاة حمقاء؟

ثم سكتت، وفجأة قفزت من مكانها قائلة: سمّني مغفلة إن شئت... أنا ذاهبة إلى المقصورة المجاورة.

- اسمعي يا توبنس، لا يمكنك...

- لديّ إحساس بوجود شيء غير طبيعي. أعرف أن هناك شيئاً غير طبيعي، لا تحاول أن تمنعني.

خرجت من مقصورتهما بسرعة وتبعها تومي. كان باب المقصورة المجاورة مغلقاً، فدفعته توبنس بقوة ودخلت ودخل تومي على إثرها. كانت الفتاة التي تلبس ثياب ملكة الكوبة تجلس عند الزاوية وهي مستندة بظهرها إلى الحائط في وضع استرخاء غريب، وكأنها نظرت إليهما نظرات متفحصة من تحت القناع لكنها لم تتحرك. كان ثوبها ذا ألوان صارخة يتناوب فيها الأحمر

والأبيض، ولكن على الجانب الأيسر منها بدت الألوان مختلطة، لقد كان اللون الأحمر أكثر مما ينبغي!

أسرعت توبنس إليها وهي تصرخ، وفي نفس الوقت رأى تومي ما رأته؛ كانت قبضة خنجر مزيّنة بالحلي بارزةً تحت القلب مباشرة.

جثت توبنس على ركبتيها بجانب الفتاة، ثم هتفت: أسرع يا تومي، إنها ما تزال على قيد الحياة. اطلب من المدير أن يستدعي الطبيب على الفور.

- حسناً، واحذري أن تلمسي مقبض الخنجر يا توبنس.

- سأكون حريصة، اذهب بسرعة.

أسرع تومي ودفع الباب بقوة، ووضعت توبنس ذراعها حول الفتاة. أومأت الفتاة بحركة واهنة فأدركت توبنس أنها تريد التخلص من القناع، فأرخته توبنس عن وجهها بخفة وهدوء. عندئذ رأت وجهاً متورداً وعينين واسعتين مليئتين بالرعب والمعاناة، وفيها نوع من الذعر القاتل.

قالت توبنس بلطف: يا عزيزتي، هل تستطيعين الكلام؟ هل لك أن تخبريني -إن استطعت- عمّن فعل هذا؟

أحست أن الفتاة تركز نظرها عليها. كانت تتنهد تنهيدات عميقة مرتجفة لقلب يضعف شيئاً فشيئاً، لكنها كانت تنظر إلى توبنس بثبات. ثم فتحت فمها وقالت بصوت هامس: "بينغو هو

الذي فعلها...»، ثم ارتخت يداها وبدت وكأنها تستكنّ إلى كتف توبنس.

جاء تومي ومعه رجلان، فتقدم أضخمهما بطريقة تدل على التمكن والسلطة. كان كل ما فيه يقول إنه طبيب، فتخلّت توبنس عن الحمل الذي تحمله على كتفها وقالت بنبرة منفعلة: أخشى أنها قد ماتت.

قام الطبيب بفحصها فحصاً سريعاً وقال: نعم، لا فائدة. من الأفضل أن نترك كل شيء كما هو إلى أن يأتي الشرطة. كيف حدث هذا؟

شرحت توبنس بشكل خاطف وسريع أسباب دخولها إلى المقصورة، فقال الطبيب: هذا أمر غريب. ألم تسمعي شيئاً؟

- سمعت وكأنها صرخت، لكن الرجل ضحك بصوت عال. ومن الطبيعي أنني لم أحسب...

وافقها الطبيب: من الطبيعي أن لا تحسبي. تقولين إن الرجل كان يرتدي قناعاً، ألا تستطيعين التعرف عليه؟

- أخشى أنني لن أستطيع. هل بوسعك أن تعرفه يا تومي؟

- لا. ولكن هناك الثياب التي كان يرتديها.

قال الطبيب: علينا أولاً أن نعرف من هي هذه الفتاة المسكينة، وبعد ذلك أظن أن الشرطة سيتوصلون إلى الحقيقة بسرعة، فالمفروض أن لا تكون قضية صعبة. آه، ها قد وصلوا.



كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً عندما عاد الزوجان إلى بيتهما مرهقَين متعبَين. ومرت عدة ساعات قبل أن تستطيع توبنس النوم، فقد كانت تتقلب على فراشها من جانب إلى آخر وترى أمامها دائماً ذلك الوجه المتورّد للفتاة وعينيها اللتين ملأهما الرعب.

كان ضوء الفجر يتخلل النوافذ عندما غطت توبنس في نوم عميق، فبعد الأحداث المثيرة نامت نوماً عميقاً خالياً من الأحلام. وعندما استيقظت كانت الشمس قد ارتفعت، ووجدت تومي مستيقظاً وفي كامل لباسه يقف بجانب السرير وبهزها من ذراعها بلطف: استيقظي؛ المفتش ماريوت ورجل آخر معه هنا ويريدان رؤيتك.

- كم الساعة الآن؟

- الحادية عشرة تماماً. سأطلب من أليس أن تصنع لك الشاي فوراً.

- نعم، أرجوك. وأخبر المفتش ماريوت أنني سأنزل بعد عشر دقائق.

بعد ربع ساعة جاءت توبنس إلى غرفة الجلوس مسرعة، فوقف المفتش ماريوت لتحيتها بعد أن كان جالساً بهدوء ورزانة: صباح الخير يا سيدة بيرسفورد. هذا هو السير آرثر ميريفيل.

صافحت توبنس رجلاً طويلاً نحيفاً ذا عينين غائرتين وشعر يغزوه الشيب، وقال المفتش ماريوت: الأمر يتعلق بالحادث المؤسف

الذي وقع في الليلة الماضية. أريد أن يسمع السير آرثر منك بنفسه الكلمات التي قالتها السيدة المسكينة قبل أن تموت، فهو لم يقتنع بهذا الكلام.

قال السير آرثر: لا يمكنني أن أصدق ولن أصدق أن بينغو هيل يمكن أن يمس شعرة واحدة من رأس فير.

أكمل المفتش ماريوت يقول: لقد أحرزنا بعض التقدم منذ الليلة الماضية يا سيدة بيرسفورد. قبل كل شيء تعرّفنا على الضحية، وهي الليدي ميريفيل. وقد اتصلنا بزوجها السير آرثر فتعرف على الجثة على الفور، وقد تأثر بشكل لا يوصف بالطبع. ثم سألته إن كان يعرف شخصاً يدعى بينغو.

قال السير آرثر: يجب أن تفهمي -يا سيدة بيرسفورد- أن الكابتن هيل (المعروف بين أصدقائه باسم بينغو) هو أفضل وأعزّ صديق لدي. إنه يعيش معنا في الواقع، وقد كان يقيم في منزلي عندما ألقي القبض عليه صباح اليوم. أعتقد أنك قد أخطأت... لا يمكن أن يكون ما نطقَت به زوجتي هو اسمه.

قالت تونس بلطف: لا يوجد أي احتمال للخطأ؛ لقد قالت: "بينغو هو الذي فعلها".

قال ماريوت: أرأيت يا سير آرثر؟

ألقى الرجل الحزين بنفسه على الكرسي وغطى وجهه بيديه قائلاً بأسى: هذا أمر لا يصدَّق. ما هو الدافع وراء هذا؟ آه، أعرف ما تفكر به أيها المفتش؛ أنت تظن أن علاقة ما كانت بين هيل

وزوجتي، ولكن حتى لو كان الأمر كذلك (وهو ما لا أقر به لحظة واحدة) فأي دافع له لقتلها؟

سعل المفتش ماريوت وقال: إنه كلام ليس من المفرح قوله يا سيدي، لكن الكابتن هيل كان منجذباً نحو سيدة أميركية شابة في الفترة الأخيرة، سيدة شابة ثرية. ولو أن الليدي ميريفيل أحبت أن تفسد الأمر لأمكنها أن تمنع زواجه.

قفز السير آرثر واقفاً غضباً وهو يقول: هذا قول شنيع أيها المفتش.

فهدّأه المفتش بحركة من يده وقال: أرجو المعذرة يا سيدي، أنا آسف. أنت تقول إنك والكابتن هيل قررتما حضور هذا الاحتفال، وكانت زوجتك في زيارة خارج البيت في ذلك الوقت وأنت لم تعرف أنها ستكون هناك؟

- لم أعرف ذلك أبداً.

- أرجو أن تريه ذلك الإعلان الذي حدثتني عنه يا سيدة بيرسفورد.

استجابت تونس، فقال المفتش: إنه يبدو لي واضحاً بما فيه الكفاية، الكابتن هيل هو الذي نشر هذا الإعلان لكي يلفت انتباه زوجتك. كانا قد اتفقا أصلاً على اللقاء في ذلك المكان، لكنك قررت الذهاب إليه أيضاً فكان تحذيرها ضرورياً. هذا هو تفسير عبارة «ضروري للفوز على الملك». أنت طلبت بدلة التنكر من شركة مسرحية في الدقيقة الأخيرة، لكن بدلة الكابتن هيل كانت

صناعة منزلية، وقد ذهب إلى الحفل كرجل يرتدي بدلة من أوراق الصحف. هل تعرف ماذا وجدنا في يد زوجتك المتوفاة يا سير آرثر؟ نتفة انتُزعت من ورق الصحيفة! لقد أمرت رجالي بأن يأخذوا بدلة الكابتن هيل معهم من بيتك، سأجدها في مكتبي عندما أعود، وإذا ما وجدنا فيها جزءاً ممزقاً يتطابق مع نتفة الورق التي كانت بيد زوجتك فإن ذلك سينهي القضية.

قال السير آرثر: لن تجدها، أنا أعرف بينغو هيل.



في وقت متأخر من تلك الأمسية رن جرس البيت، ولدهشة الزوجين كان القادم هو المفتش ماريوت مرة أخرى. دخل وهو يقول مبتسماً: أظن أن وكالة بلانت للتحريات تريد سماع آخر التطورات.

قال تومي: نعم، بالطبع نريد. هل تشرب شيئاً؟

وضع فنجاناً من الشاي أمام المفتش ماريوت الذي قال بعد قليل من الوقت: إنها قضية واضحة. كان الخنجر ملكاً للسيدة، وكانت الفكرة أن يبدو الأمر كحادث انتحار، ولكن الخطة لم تنجح بفضل وجودكما في المكان. لقد وجدنا العديد من الرسائل؛ كانت العلاقة بينهما منذ وقت طويل... هذا واضح، واضح جداً، ودون أن يعرف السير آرثر بها. ثم وجدنا آخر حلقة...

قالت توبنس بحدة: آخر ماذا؟

- آخر حلقة في السلسلة؛ تلك القصاصة من صحيفة الديلي ليدر. كانت قد انتُزعت من الثوب الذي كان يرتديه، وهي مطابقة تماماً. آه، نعم، إنها قضية واضحة تماماً. بالمناسبة، لقد أحضرت معي صورة لهذين الدليلين، فربما أثارت اهتمامكما. نادراً جداً ما تحدث قضية واضحة تماماً كهذه.

قالت توبنس عندما عاد زوجها من مرافقة المفتش إلى خارج البيت: تومي، لماذا تظن أن المفتش ماريوت بقي يردد باستمرار أن هذا قضية واضحة تماماً؟

- لا أدري، ربما من باب الرضا عن النفس.

- ليس كذلك أبداً، بل إنه يحاول إثارتنا. أتعرف يا تومي، الجزارون -على سبيل المثال- يعرفون شيئاً عن اللحوم، أليس كذلك؟

- أظن هذا، ولكن ما علاقة...

- وبنفس الطريقة فإن بائعي الخضار يعرفون كل شيء عن الخضروات والسماكين عن السمك... ورجال التحري، لا بد أن المحترفين منهم يعرفون كل شيء عن المجرمين. إنهم يعرفون المجرم الحقيقي عندما يرونه ويعرفون عندما لا يكون شيئاً حقيقياً. إن خبرة ماريوت تقول له إن الكابتن هيل ليس مجرماً. لكن الحقائق كلها تدينه تماماً، وكمحاولة أخيرة جاء ماريوت ليحثّنا ويثيرنا على أمل أن نتذكر معلومة صغيرة... شيئاً حدث في الليلة الماضية ربما يلقي ضوءاً مغايراً على الأمور. لماذا لا يكون الأمر انتحاراً يا تومي؟

- تذكّري ما قاله لك.

- أعرف. ولكن خذ الأمر بمعنى آخر، بمعنى أن الأمر من فعل بينغو وأن سلوكه هو الذي دفعها إلى الانتحار... ربما كان هذا ممكناً.

- نعم، لكنه لا يفسر تلك المزقة من الصحيفة.

- دعنا ننظر إلى صور ماريوت. نسيت أن أسأله عن رواية هيل للحادث.

- لقد سألته عن ذلك في الصالة قبل قليل، فقال إن هيل يقول إنه لم يتحدث مع الليدي ميريفيل في العرض أبداً، وزعم أن شخصاً ما قد دسّ بيده ملاحظة تقول: «لا تحاول أن تتحدث معي الليلة؛ آرثر يشك في الأمر». لكنه لم يستطع إبراز تلك الملاحظة المكتوبة، وهي لا تبدو قصة محتملة الوقوع. على أية حال أنتِ وأنا نعرف أنه كان معها في ذلك المطعم لأننا رأيناه.

أومأت توبنس وحدقت إلى الصورتين. كانت إحدى الصورتين لقطعة صغيرة مكتوب عليها «ديلي لي»، وكانت بقيتها ممزقة. أما الصورة الأخرى فكانت للصفحة الأولى لصحيفة الديلي ليدر، وهي ممزقة من الأعلى مزقاً صغيراً مستديراً. لم يكن فيها شك؛ كانت القطعة الممزقة تنطبق على الأصل تماماً.

سألها تومي: ما كل هذه العلامات الموجودة على الجانب؟

قالت توبنس: إنها ثقوب الغرز حيث خيطت هذه الصفحة مع الصفحات الأخرى.

- ظننت أنها نمط جديد من توزيع النقاط غير الذي لاحظناه في عنوان الجريدة.

ثم ارتعد قليلاً وقال: يا إلهي! إنني لأقشعرّ عندما أفكر بأننا كنا نناقش موضوع النقاط ونحتار في أمر ذلك الإعلان ونتعامل مع ذلك كله بلهو كأي موضوع عادي.

لم تجبه توبنس. نظر تومي إليها ففوجئ إذ رآها تحدّق أمامها وفمها مفتوح قليلاً وقد ارتسم على وجهها شيء من الذعر. قال بلطف وهو يهزها من ذراعها: توبنس، ماذا دهاك؟

لكن توبنس بقيت بلا حراك لبعض الوقت، وأخيراً قالت بصوت ذاهل: دينيس ريوردان!

- ماذا؟

- إنه كما قلت أنت تماماً؛ مجرد ملاحظة بسيطة بريئة. أحضر لي صحف الديلي ليدر التي صدرت هذا الأسبوع كله.

- ما الذي تريدينه؟

- إنني أتقمص دور المحقق ماكارتي. لقد كنت قلقة حائرة، وبفضلك توصلت إلى فكرة أخيراً. هذه هي الصفحة الأولى من صحيفة الثلاثاء، يبدو أنني أتذكر أن صحيفة الثلاثاء كانت فيها نقطتان على حرف الدال من كلمة «ديلي» وواحدة على اللام في الكلمة ذاتها أيضاً. أحضر لي الصحف حتى تأكد.

قام الاثنان بمقارنة تلك الصحف بلهفة، وكانت توبنس مصيبة تماماً فيما تذكرته.

- أترى؟ هذا الجزء المقطوع لم يُنتزَع من صحيفة الثلاثاء.

- لكننا لا نستطيع أن نجزم بذلك يا توبنس؛ فقد تكون مجرد طبعات مختلفة فقط.

- قد تكون... لكنها أعطتني فكرة على أية حال. لا يمكن أن تكون مصادفة، هذا أكيد... لا يمكن لهذا أن يعني إلا شيئاً واحداً إن كانت فكرتي صائبة. اتصل بالسير آرثر يا تومي واطلب منه أن يأتي إلينا على الفور، قل له إن لديّ أخباراً مهمة له. ثم اتصل بماريوت واطلبه أيضاً.

وصل السير آرثر ميريفيل إلى الشقة بعد نحو نصف ساعة وقد أثار الاستدعاء اهتمامه، فتقدمت توبنس لتحييه قائلة: أرجو المعذرة بسبب استدعائك بهذا الأسلوب الجازم، ولكننا اكتشفنا (أنا وزوجي) شيئاً نعتقد أنك يجب أن تعرفه على الفور. أرجوك أن تجلس.

جلس السير آرثر، وأكملت توبنس تقول: أعرف أنك شديد الاهتمام بتبرئة صديقك.

هز السير آرثر رأسه بأسف وقال: لقد كنت كذلك، ولكن حتى أنا اضطررت إلى الاستسلام أمام الدليل القاطع الذي يدينه.

- ماذا تقول لو قلت لك إن المصادفة وضعت بين يديّ دليلاً سيبرئ صديقك من أية مشاركة في الجريمة؟

- سأكون سعيداً جداً لسماعه يا سيدة بيرسفورد.

- افترض أنني قابلت -بالمصادفة- فتاة كانت مع الكابتن هيل الليلة الماضية في الساعة الثانية عشرة... وهو الوقت الذي كان يفترض أن يكون فيه في مطعم الآس البستوني.

صاح السير آرثر: هذا رائع! كنت أعرف أن ثمة خطأ ما. لا بد أن المسكينة فير قد قتلت نفسها.

- لا؛ لقد نسيت الرجل الآخر.

- أي رجل؟

- الرجل الذي رأيته أنا وزوجي وهو يغادر المقصورة. لا بد من وجود رجل آخر يرتدي زياً من أوراق الصحف في الحفلة. بالمناسبة: ماذا كانت بدلتك أنت؟

- بدلتي؟ لقد ذهبت إلى الحفل مرتدياً زيَّ جلّاد من القرن السابع عشر.

قالت توبنس بهدوء: إنه زيٌّ مناسب جداً.

- مناسب يا سيدة بيرسفورد؟ ماذا تقصدين بقولك هذا؟

- مناسب للدور الذي قمت به. هل أخبرك بأفكاري بشأن هذا الموضوع يا سير آرثر؟ من السهل أن ترتدي بدلة أوراق الصحف فوق بدلة الجلاد تلك، وقبل ذلك قمت بتسليم الكابتن هيل رسالة صغيرة تطلب منه أن يتكلم مع سيدة معينة. لكن السيدة نفسها لم تعرف شيئاً عن تلك الرسالة، فذهبت إلى مطعم الآس البستوني في الموعد المحدد ورأت الشخص الذي كانت تتوقع رؤيته وكان

متنكراً. دخلا إلى المقصورة، وهناك فاجأها وطعنها بالخنجر، فأخرجت صرخة ضعيفة فقط غطّاها بضحكة، ثم غادر فوراً. وحتى آخر لحظة بقيت المرأة تعتقد وهي خائفة مرعوبة ومندهشة بأن الذي قتلها هو بينغو، أو الكابتن هيل. لكنها مزقت قبل موتها قطعة صغيرة من الزي، وقد لاحظ القاتل ذلك فهو رجل ينتبه إلى التفاصيل، ولكي يجعل حبل المشنقة يلتف على عنق ضحيته تماماً كان لا بد أن تبدو هذه المزقة وكأنها قد انتزعت من بدلة الكابتن هيل. وهذا أمر تعترضه مصاعب جمة ما لم يكن الرجلان يعيشان في منزل واحد، فعندها يكون الأمر في غاية البساطة بالطبع. قام بانتزاع نفس القطعة تماماً من بدلة الكابتن هيل، ثم أحرق زيه واستعد ليلعب دور الصديق الوفي.

سكتت توبنس ثم قالت: حسناً، ماذا تقول يا سير آرثر؟

نهض السير آرثر وانحنى لها وهو يقول: إنه الخيال الواسع لسيدة فاتنة تقرأ كثيراً من الروايات.

قال تومي: أتعتقد ذلك؟

قال السيد آرثر: وزوج يسير على هدي زوجته. لا أحسب أنكما ستجدان مَن يصدقكما.

ثم ضحك ضحكة عالية، فتصلبت توبنس في كرسيها وقالت: إنني مستعدة لأن أقسم وأشهد على هذا الضحكة في أية محكمة... لقد سمعتها آخر مرة في مطعم الآس البستوني. ويبدو أن معلوماتك عنا نحن الاثنين خاطئة قليلاً؛ صحيح أن اسمنا الحقيقي هو بيرسفورد ولكن لنا اسماً آخر.

أخذت بطاقة عن الطاولة وسلمتها إليه، فقرأها السير آرثر بصوت مرتفع: «وكالة التحريات الدولية»...

سحب أنفاسه بحدة وقال: "إذن هذه هي حقيقتكم؟ هذا ما جعل ماريوت يحضرني إلى هنا صباح اليوم. لقد كان فخاً"... ثم سار نحو النافذة وقال: إنه منظر جميل هذا الذي يبدو من هنا، إنه يشرف على مدينة لندن.

صاح تومي بصوت عال: يا مفتش ماريوت.

ظهر المفتش من الباب المقابل بسرعة، فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتَي السير آرثر وقال: لقد توقعت ذلك. لكنك لن تمسك بي هذه المرة يا حضرة المفتش، إنني أفضل الموت بطريقتي الخاصة.

وضع السير آرثر يديه على عتبة النافذة ثم قفز منها، فصرخت توبنس وأطبقت يديها على أذنيها كي لا تسمع الصوت الذي تخيلته، صوت الارتطام المقزز البعيد. ودمدم المفتش ماريوت بكلمة غضب ثم قال: كان يجب أن نفكر في النافذة... مع أنه كان من الصعب إثبات جريمته لو لم ينتحر. سأنزل الآن لأرى ما يمكنني عمله.

قال تومي ببطء: يا لهذا الشيطان المسكين! إن كان يحب زوجته إلى هذا الحد...

لكن المفتش قاطعه وقال متأففاً: يحبها؟ إن لديه أسباباً أخرى؛ لقد كان في حيرة يائسة لا يدري من أين يحصل على المال، وكانت الليدي ميريفيل تملك ثروة واسعة وقد آلت كلها إليه. ولو أنها هربت

مع الشاب هيل فإنه ما كان ليرى بنساً واحداً منها.

- هل الأمر فعلاً هكذا؟

- بالطبع. لقد أحسست منذ البداية بأن السير آرثر رجل شرير وأن الكابتن هيل رجل بريء. نحن في الشرطة نعرف كيف نميز بين الأمور، ولكن الأمر يغدو فظيعاً عندما تصطدم بحقائق مغايرة. سأنزل الآن، ومن الأفضل أن تعطي زوجتك شراباً منعشاً يا سيد بيرسفورد فما حدث مزعج لها.

قالت توبنس بصوت منخفض عندما أغلق المفتش الباب وراءه: بائعو الخضار، الجزارون، بائعو الأسماك، رجال التحري... كنت على حق، أليس كذلك؟ لقد كان يعرف.

جاءها تومي بعصير ليمون وقال: اشربي هذا.

- ما هذا؟

- إنه ليمون. نعم، كان ماريوت عل حق طول الوقت، لقد كانت محاولة خداع بارعة.

أومأت توبنس وقالت: لكن خدعته انقلبت عليه.

- وهكذا: كش ملك!

* * *

الفصل السادس

قضية السيدة المفقودة

رن الجرس الداخلي على مكتب السيد بلانت مدير وكالة التحريات الدولية. أسرع تومي وتوبنس إلى العين السحرية على باب مكتب كل منهما، وهي عين تتيح رؤية جيدة لما في المكتب الخارجي.

كانت مهمة ألبرت أن يؤخر الزبون المتوقع بشتى الوسائل؛ كان يقول: سأرى يا سيدي، لكن أخشى أن السيد بلانت مشغول جداً في الوقت الحالي. إنه مشغول بحديث بالهاتف مع شرطة اسكتلنديارد الآن.

قال الزائر: سأنتظر. ليس معي بطاقة لكن اسمي هو غابرييل ستافنسون.

كان الزبون مثالاً رائعاً للرجولة؛ يبلغ طوله أكثر من ستة أقدام، وهو ذو وجه برونزي مسفوع، وقد أظهرت عيناه الزرقاوان تناقضاً غريباً مع لون بشرته البنية.

حزم تومي أمره بسرعة، فوضع قبعته على رأسه وانتشل قفازين ثم فتح الباب ووقف عند عتبته.

قال ألبرت: هذا الرجل يريد رؤيتك يا سيد بلانت.

قطب تومي جبينه، ثم أخرج ساعته من جيبه وقال: عندي مقابلة مع الدوق في الساعة الحادية عشرة إلاّ ربعاً.

ثم نظر إلى الزائر نظرات متفحصة وقال: أستطيع أن أعطيك بضع دقائق من وقتي لو تفضلت من هنا.

تبعه الرجل طائعاً إلى المكتب الداخلي حيث كانت توبنس تجلس متظاهرة بالرزانة ممسكة بدفتر وقلم. قال تومي: هذه سكرتيرتي الموثوقة الآنسة روبنسون. أرجو أن توضح لي مسألتك يا سيدي، فأنا لا أرى من أمورك إلاّ أن مسألتك ملحّة وأنك جئت إلى هنا بسيارة أجرة وأنك كنت -مؤخراً- في القطب الشمالي أو الجنوبي.

حدق الزائر إليه دَهِشاً وصاح: هذا رائع! كنت أعتقد أن رجال التحري لا يقومون بهذه الأشياء إلاّ في القصص. إن الصبي الذي يعمل في مكتبك في الخارج لم يعطك حتى اسمي!

تنهد تومي وقال مستنكراً: هذا كله سهل جداً. أشعة شمس منتصف الليل في القطب لها تأثير غريب على الجلد... إن للأشعة القطبية خصائص معينة، وأنا سأكتب دراسة صغيرة عن هذا الموضوع عمّا قريب. لكن هذا كله خارج موضوعنا. ما الذي جاء بك إليّ في حالة الاضطراب هذه؟

- أولاً يا سيد بلانت اسمي هو غابرييل ستافنسون.

- آه، بالطبع؛ الرحالة المعروف! أظن أنك عدت مؤخراً من منطقة القطب الشمالي؟

- لقد وصلت إلى إنكلترا قبل ثلاثة أيام؛ أعادني صديق لي كان يقوم برحلة بحرية في مياه بحر الشمال على يخته، وإلاّ لما وصلت قبل أسبوعين. يجب أن أقول لك -يا سيد بلانت- أنني وقبل أن أبدأ برحلة الاستكشاف الأخيرة هذه قبل سنتين قد نلت حظاً سعيداً بخطوبتي للسيدة موريس لي غوردن.

قاطعه تومي: أكان اسمها لي غوردن قبل زواجها؟

قالت توبنس بعفوية: بل كانت الليدي هيرميون كرين، الابنة الثانية للّورد لاينشستر.

نظر تومي إليها نظرة إعجاب، فأضافت توبنس تقول: وقد قُتل زوجها الأول في الحرب.

أومأ غابرييل ستافنسون وقال: هذا صحيح. كما قلتُ فقد خطبتُ هيرميون، وبالطبع عرضت عليها التخلي عن حملة الاستكشاف هذه، لكنها لم توافق على ذلك باركها الله! إنها الزوجة المناسبة لرحالة مستكشف. وأول ما فكرت فيه عندما عدت إلى إنكلترا هو رؤية هيرميون، فبعثت لها برقية من ساوثهامتبون وأسرعت إلى البلدة في أول قطار، ولما كنت أعرف أنها كانت تعيش في ذلك الوقت مع عمة لها هي الليدي سوزان كلونري في شارع بونت فقد ذهبت إلى هناك مباشرة، لكن خاب أملي عندما عرفت أن هيرمي كانت خارج البيت في زيارة لبعض الأصدقاء في نورثمبرلاند. كانت الليدي سوزان

لطيفة في استقبالي بعد أن تلاشت دهشتها أول مرة حين رؤيتي (فكما قلت لك لم يكن أحدٌ يتوقع وصولي قبل أسبوعين)، وقد قالت لي إن هيرمي ستعود في غضون أيام قليلة. ثم سألتها عن عنوانها، لكن المرأة العجوز همهمت وتلعثمت وقالت إن هيرمي ستكون في أكثر من مكان، وقالت إنها غير متأكدة من الترتيب الذي ستعتمده في زياراتها. وأريد أن أخبرك -يا سيد بلانت- بأننا لم نكن ننسجم كثيراً أنا والليدي سوزان؛ إنها امرأة بدينة منتفخة الأوداج، وأنا أشمئز من النساء السمينات! أعرف أن هذه نزوة شخصية لا منطق وراءها، ولكن هذا هو الواقع... لا أستطيع الانسجام مع امرأة بدينة.

قال تومي بجفاء: إن نزوتك تتفق مع الموضة السائدة، كما أن لكل امرئ نزوة معينة، وقد كانت نزوة اللورد الراحل روبرتس كراهية القطط.

- أرجو أن تنتبه إلى أنني لا أعني بأن الليدي سوزان امرأة سخيفة. ربما كانت سيدة عظيمة، لكنني -ببساطة- لم أنجذب إليها أبداً؛ لقد شعرت في أعماق قلبي دوماً بأنها كانت غير موافقة على خطوبتنا، وأنا متأكد من أنها مستعدة لتأليب هيرمي ضدي لو كان ذلك بمقدورها. إنني أقول لك دون أن أضمن لك صحته... اعتبره تحيزاً إن شئت. حسناً، لنكمل حديثنا. إنني من أولئك الناس العنيدين الذين يحبون التصرف بطريقتهم؛ لذلك لم أغادر شارع بونت إلاّ بعد أن حصلت منها على أسماء وعناوين الناس الذين من المحتمل أن تكون هيرمي قد ذهبت لزيارتهم، ثم غادرت إلى الشمال في قطار البريد.

قال تومي مبتسماً: أرى أنك رجل أفعال يا سيد ستافنسون.

- لقد وقع الأمر عليّ كالقنبلة يا سيد بلانت؛ فلا أحد من هؤلاء الناس رأى أثراً لهيرمي! ولم يكن يتوقع قدومَها إلا منزل واحد من بين المنازل الثلاثة التي زرتها... لا بد أن الليدي سوزان قد أخطأت في إعطائي عنوان البيتين الآخرين. وعلمت أن هيرمي قد ألغت زيارتها إلى ذلك البيت بواسطة برقية أرسلتها في اللحظة الأخيرة. عندئذ عدت إلى لندن مسرعاً بالطبع وذهبت إلى الليدي سوزان مباشرة، وسوف أنصفها وأقول إنها بدت منزعجة قلقة، وقد اعترفت بأنها لا تعرف المكان الذي قد تكون هيرمي ذهبت إليه. ومع ذلك فقد رفضت فكرة إبلاغ الشرطة بشدّة وقالت إن هيرمي ليست فتاة صغيرة حمقاء وإنما هي امرأة تتمتع باستقلاليتها وهي معتادة على التخطيط لحياتها، وربما كانت تنفّذ فكرة خاصة بها. رأيت أنه ربما لم تكن هيرمي تريد إبلاغ الليدي سوزان بكل تحركاتها، لكنني بقيت قلقاً. لقد انتابني ذلك الشعور الغريب الذي ينتاب المرء عندما يكون شيءٌ ما غير طبيعي، وكنت على وشك المغادرة عندما تلقت الليدي سوزان برقية، فقرأتها وعلامات الارتياح بادية على وجهها ثم سلمتها إلي. كانت البرقية تقول: «غيرت خططي. أنا راحلة إلى مونت كارلو لمدة أسبوع. هيرمي».

مد تومي يده وقال: هل أحضرت البرقية معك؟

- لا، لم أحضرها. لكنها كانت صادرة من مدينة مالدون في مقاطعة صوري. لقد لاحظت هذا في ذلك الوقت لأنني رأيته غريباً؛ فماذا يمكن أن تفعل هيرمي في مالدون؟ لم أسمع أن لها أصدقاء هناك.

- ألم تفكر في الإسراع إلى مونت كارلو كما أسرعت إلى الشمال؟

- فكرت في هذا بالطبع لكنني قررت غير ذلك؛ فكما ترى يا سيد بلانت، بينما الليدي سوزان كانت مقتنعة تماماً بالبرقية لم أكن أنا مثلها. لقد رأيت أنه من الغريب أن ترسل هيرمي برقيات ولا تكتب رسائل. إن سطراً واحداً أو سطرين بخط يدها كان سيهدئ كل مخاوفي، لكن أي شخص يمكن أن يرسل برقية ويوقعها باسم هيرمي. وكلما فكرت في الأمر أكثر كلما ازدادت مخاوفي، وفي نهاية الأمر ذهبت إلى مالدون، وكان ذلك بعد ظهر الأمس. إنها بلدة واسعة وفيها فندقان، وقد سألت عنها في كل الأماكن التي تخطر بالبال، ولكن لم تكن هناك أية إشارة إلى أن هيرمي كانت هناك! ثم عدت في القطار فقرأت إعلانكم وفكرت في تكليفكم بالقضية. إذا كانت هيرمي قد ذهبت إلى مونت كارلو فعلاً فلا أريد الطلب من الشرطة البحث عنها حتى لا أعمل فضيحة، لكني لن أذهب في مهمة بحث يائسة عنها بنفسي. سأبقى هنا في لندن في حال... في حال وجود خدعة ما.

أومأ تومي برأسه متأملاً وقال: ما الذي تشك فيه بالضبط؟

- لا أدري، لكني أشعر بوجود شيء غير طبيعي.

وبحركة سريعة أخرج ستافنسون صورة من جيبه ووضعها أمام تومي وقال: هذه هي هيرميون، سأترك الصورة معك.

أظهرت الصورةُ امرأةً طويلة القامة نحيلة الجسم، تعدّت

المرحلة الأولى من شبابها لكنها ذات ابتسامة ساحرة وعينين رائعتين.

قال تومي: حسناً يا سيد ستافنسون، ألا يوجد شيء لم تخبرني عنه؟

- لا شيء أبداً.

- ولا أي معلومة مهما كانت صغيرة؟

- لا أظن ذلك.

تنهد تومي وقال: هذا يجعل المهمة أكثر صعوبة. لا بد أنك قد لاحظت -يا سيد ستافنسون- عندما تقرأ عن الجريمة كيف أن معلومة صغيرة هي كل ما يحتاجه رجل التحري لكي تضعه على المسار الصحيح لعملية البحث، وأعتقد أن القضية ذات خصائص غريبة. أظن أنني توصلت إلى حلها جزئياً منذ الآن ولكن الوقت سيُظهر الأمور.

أمسك بالكمان الذي كان موضوعاً على الطاولة وحرك القوس على الأوتار أكثر من مرة، فعضّت توبنس على نواجذها غضباً وامتعض الزائر. ثم وضع الكمان على الطاولة مرة أخرى وقال: بعض النغمات من موسكوفسكي! حسناً يا سيد ستافنسون، اترك لي عنوانك وسوف أخبرك بالتطورات.

وبعد أن خرج الزائر أمسكت توبنس بالكمان ووضعته في الخزانة ثم أقفلتها بالمفتاح وقالت: إن كان لا بد لك من تقمص شخصية شيرلوك هولمز فلا تفعل ذلك أمام الزبائن بالله عليك!

لو لم يكن ذلك الرجل الزائر بسيطاً كالطفل لاكتشف أمرك. هل ستواصل عمل شيرلوك هولمز؟

قال تومي بارتياح: أفتخر بأنني قمت بذلك الدور على أحسن ما يرام حتى الآن. كانت الاستنتاجات جيدة، أليس كذلك؟ كان عليّ أن أجازف فيما يتعلق بموضوع سيارة الأجرة، وعلى أية حال فإنها الطريقة المعقولة الوحيدة للوصول إلى هذا المكان.

قالت توبنس: من حسن الحظ أنني قرأت عن خطوبته في صحيفة الديلي ميرور هذا الصباح.

- نعم، هذا يبدو جيداً لصالح تحريات بلانت الذكية. هذه قضية من قضايا شيرلوك هولمز بلا شك... حتى أنت لا تستطيعين إلاّ أن تلاحظي التشابه بينها وبين قضية اختفاء الليدي فرانسيس كارفاكس.

- هل تتوقع العثور على السيدة ليغوردن مقتولة؟

- من الناحية المنطقية يجب أن يعيد التاريخ نفسه، أما من الناحية الفعلية... ما رأيك أنت؟

- يبدو أن أوضح تفسير هو أن هيرمي خائفة من لقاء خطيبها لسبب أو لآخر، وأن الليدي سوزان تؤيد موقفها وتساندها. لعلها قد سقطت سقطة ما فارتاعت من ذلك كثيراً.

قال تومي: لقد خطر لي هذا أيضاً، لكني رأيت أنه من الأفضل أن نتأكد تماماً قبل أن نعلن ذلك التفسير لرجل مثل ستافنسون.

ما رأيك في الذهاب إلى مالدون؟ لن يضيرنا أن نأخذ بعض مضارب الغولف معنا.

* * *

بعد أن وافقت توبنس على الاقتراح أصبحت وكالة التحريات الدولية في عهدة ألبرت.

ورغم أن مالدون منطقة سكنية معروفة إلا أنها لم تكن كبيرة الحجم، وقد قام تومي ومعه توبنس بعمل كل ما يمكن أن يوحي به ذكاؤهما في السؤال والتحقيق، ومع ذلك عادا بلا نتيجة. لكن فكرة ذكية خطرت ببال توبنس بينما كانا عائدَين إلى لندن فقالت: تومي، لماذا جعلوا العنوان على البرقية مالدون، صوري؟

- لأن مالدون في مقاطعة صوري أيتها الغبية.

- أنت الغبي... أنا لا أقصد هذا. إذا وصلتك برقية من... من توركيه على سبيل المثال، فإنهم لا يكتبون المقاطعة بعدها. ولكن إذا كانت من ريتشموند فإنهم يكتبون ريتشموند صوري، لأنه توجد بلدتان باسم ريتشموند.

أبطأ تومي سرعة السيارة التي كان يقودها وقال بحماسة: إن فكرتك رائعة يا توبنس. هيا نسأل في مكتب البريد هناك.

توقفت السيارة أمام مبنى صغير في وسط شارع إحدى القرى، وبعد دقائق اتضح لهما أن هناك بلدتين تحملان اسم مالدون؛ مالدون في صوري ومالدون في مقاطعة ساسكس، وهي قرية صغيرة لكن فيها مكتب برقيات.

قالت توبنس منفعلة: ها هي. كان ستافنسون يعرف أن مالدون موجودة في صوري ولذلك لم ينظر مطولاً إلى اسم المقاطعة بعدها بشكل دقيق.

قال تومي: غداً سنبحث في مالدون ساسكس.

* * *

كانت مالدون ساسكس مختلفة تماماً عن تلك التي في مقاطعة صوري؛ كانت تبعد عن محطة القطار مسافة أربعة أميال وفيها مبنيان حكوميان ودكانان صغيران ومكتب بريد مشترك مع محل بيع الحلوى وبطاقات المعايدة، كما أن فيها سبعة أكواخ صغيرة.

تولت توبنس عملها مع الدكانين بينما ذهب تومي إلى محل الحلوى، ثم التقيا بعد نصف ساعة. قالت توبنس: حسناً؟

- يبيعون مرطبات جيدة ولكن لا معلومات.

قالت توبنس: سأعود إلى مكتب البريد. هناك سيدة عجوز بغيضة لكني سمعتهم يصرخون بها بأن العشاء جاهز.

عادت إلى المكان وبدأت تتفحص بطاقات المعايدة، فجاءت فتاة شابة من الغرفة الخلفية وهي تمضغ الطعام. قالت توبنس: أريد هذه من فضلك. هل تنتظرينني إلى أن ألقي نظرة على هذه الصور الهزلية؟

اختارت بعض البطاقات وهي تتحدث وتقول: لقد خاب

ظني لأنني فقدت عنوان أختي. إنها تسكن قريباً من هنا وقد فقدتُ رسالتها، واسمها لي غوردن.

هزت الفتاة رأسها وقالت: لا أتذكرها. ونحن لا نستلم كثيراً من الرسائل هنا، لذلك لو رأيت اسمها على إحدى الرسائل لعرفته. لا توجد في المنطقة بيوت كبيرة باستثناء «غرينج».

سألتها توبنس: وما هو «غرينج»؟ مَن صاحبه؟

- الدكتور هوريستون. وقد تحول الآن إلى مصح، وأظن أن معظم نزلائه من مرضى الأعصاب؛ يأتون إليه هنا للشفاء والراحة. إن المنطقة هنا هادئة تماماً.

أسرعت توبنس واختارت بعض البطاقات ودفعت ثمنها. صاحت الفتاة: ها هي سيارة الدكتور هوريستون قد جاءت.

أسرعت توبنس إلى باب المحل. كانت سيارة صغيرة بمقعدين تمر من أمام المحل، يقودها رجل طويل القامة داكن البشرة ذو وجه بغيض حاد الملامح. وما لبثت السيارة أن ابتعدت إلى أسفل الشارع.

رأت توبنس تومي يقطع الشارع باتجاهها، فأسرعت إليه قائلة: تومي، أظن أنني عرفت الأمر... مصح الدكتور هوريستون.

- سمعت عنه في المحل ورأيت أنه ربما كان فيه ما يفيدنا، ولكن إذا كانت قد أصيبت بانهيار عصبي أو بشيء من هذا فإن عمتها وأصدقاءها سيعرفون ذلك بالتأكيد.

- نعم، أنا أقصد هذا. هل رأيت ذلك الرجل في السيارة الصغيرة؟

- رجل كريه المنظر شرير، نعم.

- إنه الدكتور هوربستون.

صفَّر تومي وقال: يبدو ماكراً كريهاً. ما رأيك يا توبنس؟ هل نذهب ونلقي نظرة على المصح؟

* * *

وصلا إلى المكان في نهاية الأمر، وكان بيتاً كبيراً لا تنسّق في بنائه محاطاً بحدائق مهملة.

قال تومي: مسكن كئيب يقشعرّ منه جسمي. لديّ إحساس بأن هذا القضية ستكون أكثر خطورة مما توقعنا في البداية.

- آه، لا تقل ذلك. أرجو أن لا نكون قد تأخرنا! إن تلك المرأة في خطر شديد، كل جارحة مني تقول ذلك.

- لا تطلقي لخيالك العنان.

- لا أملك غير ذلك، فأنا لا أثق بذلك الرجل. ماذا ستفعل؟ أظن أنها ستكون خطة جيدة إذا ما ذهبت أنا في البداية وقرعت الجرس وسألت عن السيدة لي غوردن بجرأة لأرى ما هي إجابته، إذ ربما كانت هنا وكان الأمر طبيعياً لا أسرار فيه.

نفَّذت توبنس خطتها، وفُتح الباب على الفور تقريباً، فتحه

خادم هادئ القسمات. قالت: أريد رؤية السيدة لي غوردن إن كانت بحال تسمح لها برؤيتي.

تخيلت أن الخادم قد طرفت عيناه قليلاً، لكنه أجابها بسرعة: لا توجد واحدة بهذا الاسم هنا يا مدام.

- آه، أليس هذا هو مصح الدكتور هوربستون؟

- نعم يا مدام، ولكن لا توجد واحدة باسم السيدة لي غوردن هنا.

اضطرت توبنس إلى التراجع وهي محتارة لتتشاور مع تومي خارج البوابة. قال لها: ربما كان يقول الحقيقة، نحن لا نعرف.

- لم يقل الحقيقة؛ لقد كان يكذب، أنا واثقة من هذا.

قال تومي: انتظري ريثما يعود الطبيب، وعندها سأقدم نفسي على أنني صحفي مهتم بمناقشة نظامه الجديد في الراحة والاستشفاء. هذا سيعطيني فرصة في الدخول ودراسة جغرافية المكان.

عاد الطبيب بعد نصف ساعة تقريباً، فأمهله تومي خمس دقائق ثم تحرك بدوره إلى الباب الرئيسي، لكنه عاد بلا نتيجة أيضاً. قال: قيل لي إن الطبيب مشغول ولا يمكن إزعاجه، كما أنه لا يقابل الصحفيين أبداً. أنت على حق يا توبنس؛ في هذا المكان شيء غامض! إن موقعه مثالي، فهو يبعد أميالاً عن أي مكان. إن أي شيء خطير يمكن أن يجري هنا دون أن يعرف به أحد.

قالت توبنس بإصرار: هيا بنا.

- سأتسلق الجدار لأرى إن كنت أستطيع الوصول إلى البيت بهدوء دون أن يراني أحد.

- وأنا معك.

كانت شجيرات الحديقة قد نمت لتصبح أدغالاً تمنح غطاءً مثالياً، فنجح تومي وتوبنس في التسلل إلى البيت دون أن يلحظهما أحد. وهناك خلف المنزل شاهدا شرفة خلفية واسعة للمنزل تنزل منها درجات متفتتة، وفي الوسط جدار عليه بعض النوافذ المطلّة على غرف المنزل. لكنّ أياً منهما لم يجرأ على الاقتراب من الشرفة المكشوفة، كما أن النوافذ كانت مرتفعة بحيث لم يكن باستطاعتهما رؤية ما في داخل الغرف. بدا أن استطلاعهما لم يأتِ بفائدة كبيرة.

وفجأة أحكمت توبنس قبضتها على ذراع تومي. كان أحد الأشخاص يتكلم في الغرفة القريبة منهما، وكانت النافذة مفتوحة فسمعا بوضوح أطراف الحديث الذي كان يدور. قال رجل بصوت غاضب: ادخل، ادخل وأغلق الباب. هل تقول إن امرأة جاءت قبل ساعة تقريباً وسألت عن السيدة لي غوردن؟

عرفت توبنس الصوت الذي أجابه؛ لقد كان صوت الخادم الهادئ. قال: نعم يا سيدي.

- وقلت لها إنها غير موجودة عندنا بالطبع؟

- بالطبع يا سيدي.

قال الآخر وقد استشاط غضباً: والآن هذا الصحافي!

اقترب فجأة من النافذة وفتحها، فشاهد الاثنان من وراء الشجيرات الدكتور هوريستون. أكمل الطبيب يقول: إن المرأة هي التي تهمني أكثر. كيف كانت تشبه؟

- شابة جميلة المظهر وتلبس ثياباً أنيقة يا سيدي.

وخز تومي توبنس في خاصرتها.

قال الطبيب غاضباً: هذا ما كنت أخشاه تماماً؛ قدوم بعض أصدقاء هذه المرأة. إن الأمر يزداد صعوبة، ويجب أن أقوم بخطوات...

ترك الجملة دون أن يكملها. وسمع تومي وتوبنس الباب وهو يغلق، ثم ساد الصمت المكان.

عاد تومي وتوبنس أدراجهما، وعندما ابتعدا عن مسمع أهل البيت قال تومي: توبنس، الأمر خطير... إنهم ينوون الأذى. أعتقد أننا يجب أن نعود إلى البلدة على الفور لنرى ستافنسون.

ولدهشته هزت توبنس رأسها بالنفي وقالت: يجب أن نبقى هنا. ألم تسمعه وهو يقول إنه سيقوم بخطوات؟ وهذا قد يعني أيّ شيء.

- أسوأ ما في الأمر هو أنه لا توجد لدينا قضية لنذهب إلى الشرطة بخصوصها.

- اسمع يا تومي، لماذا لا تتصل بستافنسون من القرية؟ سأبقى هنا.

وافقها زوجها قائلاً: ربما تكون هذه أفضل خطة، لكني أريد أن أقول يا توبنس...

- ماذا؟

- احذري على نفسك.

- بالطبع يا عزيزي، انطلق.

* * *

عاد تومي بعد ساعتين تقريباً، فوجد توبنس في انتظاره قرب البوابة. سألته بلهفة: حسناً؟

- لم استطع الاتصال بستافنسون. وحاولت الاتصال بالليدي سوزان لكنها كانت خارج البيت أيضاً، ثم فكرت في الاتصال بالعجوز برادي، وقد طلبت منه أن يبحث عن اسم هوريستون في الدليل الطبي.

- حسناً، وماذا قال الدكتور برادي؟

- آه، لقد عرف الاسم على الفور. كان هوريستون طبيباً حقيقياً فيما مضى لكنه ارتكب خطأً فاحشاً، وقد قال برادي إنه محتال عديم الضمير وقال إنه شخصياً لن يستغرب منه أي شيء.

ردّت عليه توبنس على الفور: يجب أن نبقى هنا؛ فلديّ إحساس بأنهم يعتزمون عمل شيء الليلة. على فكرة، كان هناك بستاني يقلم الأشجار والنباتات حول البيت. تومي، لقد رأيت أين وضع السلم.

قال زوجها معجباً: هذا جميل منك يا توبنس. إذن الليلة...

- حالما يحلّ الظلام...

- سنرى...

- ما ستراه.

* * *

أخذ تومي دوره في مراقبة البيت بينما ذهبت توبنس إلى القرية لتناول بعض الطعام، ثم عادت وتولّيا المراقبة معاً. وفي الساعة التاسعة قررا أن الليل قد خيم تماماً وأن الوقت مناسب للبدء بالعمليات، وأصبحا عند ذلك قادرَين على الالتفاف حول البيت بحرية كاملة.

وفجأة أمسكت توبنس بتومي من ذراعه وقالت: اسمع.

جاء الصوت الذي سمعته مرة أخرى، خافتاً محمولاً بهواء الليل، وكان صوت أنين امرأة تتألم.

أشارت توبنس إلى إحدى النوافذ في الطابق الأول فوقهما، وقالت هامسة: لقد جاء الصوت من هذه الغرفة.

مرة أخرى اخترق ذلك الأنين هدوء الليل، فقرّر الاثنان تنفيذ خطتهما الأصلية. تقدمت توبنس الطريق إلى حيث شاهدت البستاني وهو يضع السلم، فحملا السلم إلى جانب البيت حيث النافذة التي سمعا منها صوت الأنين.

ثبّت تومي السلم على جانب البيت دون أي ضجيج، وهمست

توبنس: سأصعد أنا وأنت تبقى أسفل مني، فأنا لا أخشى تسلق السلالم وأنت أقدر على تثبيت السلّم مني، وفي حال خروج الطبيب من إحدى الزوايا فيمكنك أن تتعامل معه بينما أنا لا أستطيع.

تسلقت توبنس السلم بهدوء تام، ثم رفعت رأسها بحذر لتنظر من النافذة، ثم خفضت رأسها بسرعة ورفعته بعد دقيقة أو اثنتين مرة أخرى. بقيت هكذا مدة خمس دقائق تقريباً، ثم نزلت أخيراً وقالت متلعثمة بأنفاس لاهثة: إنها هي! تومي، إنه أمر مرعب. إنها مستلقية هناك على السرير تتأوه وتئنّ وتتقلب يَمنة ويَسرة، وحالما وصلتُ إلى أعلى السلم دخلت امرأة ترتدي ثياب الممرضات فمالت عليها وحقنتها بشيء في ذراعها ثم خرجت مرة أخرى. ماذا سنفعل؟

- هل كانت في وعيها؟

- أظن ذلك، بل أنا واثقة من ذلك تقريباً. أظن أنها مقيدة إلى السرير! سأصعد ثانية، وإذا استطعت فسوف أدخل الغرفة.

- أظن يا توبنس...

- إذا حدث لي أي خطر فسوف أصرخ. إلى اللقاء.

أسرعت توبنس تصعد السلم ثانية متجنّبة مزيداً من الجدل، ورآها تومي تحاول فتح النافذة. نجحت في عملها دون أية ضجة، وبعد قليل كانت قد اختفت في الداخل.

مرّ الوقت على تومي عصيباً. في البداية لم يسمع أي شيء، ولئن كان ثمة حديث بين المرأتين فلا بد أنه كان يدور همساً. ثم

ما لبث أن سمع تمتمات أصوات فسحب أنفاسه مرتاحاً، ولكن الأصوات توقفت فجأة وأطبق الصمت على المكان.

أصاخ تومي بسمعه لكنه لم يسمع شيئاً. ماذا عساهما تفعلان؟ وفجأة وقعت يدٌ على كتفه، وسمع توبنس وهي تقول في عتمة الليل: هيا.

- توبنس! كيف وصلت إلى هنا؟

- من الباب الرئيسي. هيا نخرج من هنا؟

- نخرج من هنا؟!

- هذا ما قلته.

- ولكن... ماذا عن السيدة لي غوردن؟

أجابته توبنس بنبرة فيها مرارة لا توصف: **تنحف!**

نظر تومي إليها وهو يظن أنها تهزأ به، سألها: ماذا تقصدين؟

- ما قلته: تنحف، تخفّض وزنها! ألم تسمع ستافنسون عندما قال إنه يكره البدينات؟ في السنتين اللتين غاب فيهما عنها ازداد وزن هيرمي، وقد أصيبت بالذعر عندما علمت أنه قادم فجاءت بسرعة لتتلقى علاج الدكتور هوريستون الجديد. إنها حقن من نوع معين، وهو يجعل منها سراً كبيراً ويتلقى رسوماً باهظة عليها. أعتقد أنه طبيب دجال، لكنه ناجح جداً. وكانت قد بدأت بالعلاج لتوّها عندما عاد ستافنسون إلى الوطن قبل أسبوعين من موعده المقرر،

فطلبت من عمتها السكوت وإبقاء الأمر سراً. أما نحن فقد جئنا إلى هنا لنظهر حماقتنا!

سحب تومي نفساً عميقاً وقال: أعتقد أن هناك حفلة موسيقية جيدة في قاعة الملكة غداً، سيكون لدينا وقت طويل من أجلها. وأرجوك أن تعملي لي معروفاً بعدم إضافة هذه القضية إلى سجل إنجازاتنا؛ فليست فيها أية خصائص مميزة أبداً.



الفصل السابع

عصا الضرير

قال تومي: "حسناً"، ثم وضع سماعة الهاتف مكانها والتفت إلى توبنس قائلاً: كان المتحدث هو الرئيس. أنه خائف علينا، إذ يبدو أن الأطراف التي تلاحقها قد أدركت حقيقة أنني لست السيد ثيودور بلانت الحقيقي. علينا أن نتوقع أحداثاً مثيرة في أية لحظة. إن الرئيس يرجوك أن تذهبي إلى البيت وتبقي فيه ولا تشغلي نفسك بعملنا هذا بعد الآن، فمن الواضح أن عش الزنابير الذي أثرناه أكبر مما كنا نظن.

قالت توبنس حازمة: إن كل الكلام عن عودتي إلى البيت هراء. مَن سيعتني بك إذا ذهبت أنا إلى البيت؟ كما أنني أحب الإثارة، ولم يكن عملنا قوياً نشطاً في الآونة الأخيرة.

- لا يمكن للمرء أن يتوقع حدوث أعمال وسرقات كل يوم. كوني عاقلة؛ إن فكرتي هي أنه عندما يصيب عملَنا الكسادُ فيجب علينا القيام بقدر معين من التمارين المنزلية كل يوم.

- هل نستلقي على ظهورنا ونلوّح بأرجلنا في الهواء مثلاً؟

- لا تفسري كلامي بمثل هذه الحرفية. عندما أقول «تمارين» فإنما أقصد تمارين في فن التحري... إعادة إنتاج روائع القصص على سبيل المثال.

أخرج تومي من دُرج بجانبه نظارةً ذات عدسات خضراء داكنة ووضعها على عينيه، ثم عدّل النظارة بشيء من العناية وأخرج من جيبه ساعة وقال: لقد كسرت زجاجها صباح اليوم، وهذا يجعلها ساعة بلا غطاء بحيث أستطيع تلمّس عقاربها بأصابعي الحساسة.

قالت توبنس: احذر، فقد كدت تكسر عقرب الساعات.

قال تومي: أعطني يدك.

أمسك بيده وتحسس بإصبعه نبضها ثم قال: آه، لوحة مفاتيح الصمت. هذه المرأة لا تعاني من مرض القلب.

- أظن أنك تتقمص شخصية ثورنلي كولتون؟

قال تومي: هذا صحيح؛ حلاّل المشكلات الأعمى. وأنت السكرتيرة التي نسيتُ اسمها، ذات الشعر الأسود والخدين المتوردين.

ثم أضاف يقول: على الجدار القريب من الباب عصا رفيعة مجوّفة أمسكها بيدي الحساسة فتدلني على كثير من الأشياء.

نهض فارتطم بأحد الكراسي، فصاح: تباً! نسيت أن هذا الكرسي موجود هنا.

قالت توبنس متأثرة: لا بد أن العمى أمر فظيع جداً.

وافقها تومي بحماسة: هو كذلك. إنني أشعر بالأسف على كل أولئك المساكين الذين فقدوا نعمة البصر في الحرب أكثر من أسفي على أي شخص آخر. لكنهم يقولون إنك عندما تعيش في الظلمة فإنك تطور في ذاتك حواس خاصة، وهذا ما أريد تجربته لأرى إن كنت أستطيع ذلك أم لا. من السهل جداً تدريب النفس على العمل في الظلمة. والآن يا توبنس، كوني سيدني تايمز الطيبة. كم عدد الخطوات حتى نصل إلى تلك العصا؟

خمنت توبنس ثم قالت: ثلاث خطوات مستقيمة وخمسٌ إلى اليسار.

خطا تومي خطوات غير واثقة، فقاطعته توبنس بصرخة تحذير عندما أدركت أن الخطوة الرابعة إلى اليسار ستجعله يرتطم بالحائط.

قالت توبنس: إنه أمر صعب؛ أنت لا تعرف مدى صعوبة تقدير عدد الخطوات التي تحتاجها للوصول إلى نقطة ما.

- إنه مثير جداً. نادي ألبرت ليدخل، سوف أصافحكما لأرى إن كنت أستطيع تمييزكما.

قالت توبنس: حسناً، ولكن يجب أن يغسل ألبرت يديه أولاً، فلا بد أنها دبقة بسبب حلوى النعنع تلك التي يتناولها دائماً.

عندما عرف ألبرت اللعبة ازداد اهتمامه كثيراً. وبعد أن انتهت المصافحة ابتسم تومي راضياً وقال: لوحة مفاتيح الصمت لا يمكن أن تكذب؛ أول من صافحني كان ألبرت والثاني أنت يا توبنس.

صاحت توبنس: خطأ! أهذه لوحة مفاتيح الصمت حقاً؟ لقد جعلت دليلك في ذلك خاتم الزواج، ولكنني وضعته في إصبع البرت.

ثم قام الثلاثة بتجارب أخرى لم يكن حظها من النجاح مختلفاً عن الأولى كثيراً.

قال تومي بصوت مرتفع: لكني سأنجح؛ لا يمكن للمرء أن يصبح معصوماً في غمضة عين. دعيني أقترح عليك ما يلي: إنها ساعة الغداء الآن. سنذهب لتناول الغداء في مطعم بليتز كرجل أعمى ومرافقته، ونستطيع التقاط بعض المعلومات المفيدة هناك.

- أعتقد أن هذا سيوقعنا في بعض المتاعب يا تومي.

- لا؛ سوف أتصرف كالرجل اللطيف تماماً، لكني أراهنك على أنني سأذهلك عند انتهاء الغداء.

وبعد التغلب على جميع الاحتجاجات وتذليلها كان تومي وتوبنس يجلسان بعد ربع ساعة على طاولة في إحدى زوايا الغرفة الذهبية في مطعم بليتز. تحسس تومي قائمة الطعام بأصابعه وقال: اطلبي لي أرزاً ودجاجاً مشوياً.

اختارت توبنس ما تريد أيضاً ثم صرفت النادل. وبعد أن عاد النادل وقدم إليهما الطعام قال تومي: الوضع جيد حتى الآن. والآن إلى مغامرة أكثر طموحاً؛ الرجل الذي بيننا وبينه طاولتان ثري استغلالي. إنه أصلع، أليس كذلك؟

قالت توبنس معجبة: هذا رائع! لا أعرف كيف عرفت ذلك.

- لن أخبرك عن كيفية معرفتي في كل مرة، فهذا يفسد العرض الذي أقدمه. النادل يصب العصير هناك على بعد ثلاث طاولات عنا جهة اليمين، وامرأة بدينة تلبس الأسود على وشك أن تمر من أمام طاولتنا.

- تومي، كيف تستطيع...؟

- آه! بدأتِ تفهمين ما أستطيع عمله. هناك فتاة لطيفة ترتدي لباساً بني اللون تنهض عن الطاولة الواقعة وراءك.

- خطأ؛ إنه شاب يرتدي بدلة رمادية.

- آه!

قالها تومي وهو مرتبك. وفي تلك اللحظة نهض رجلان كانا يجلسان على طاولة لا تبعد كثيراً عن طاولتهما وكانا يراقبان الزوجين الشابين باهتمام، ثم اقتربا منهما. قال أكبر الرجلين سناً وكان طويل القامة أنيق الهندام له شاربان قصيران رماديان ويضع نظارة: أرجو المعذرة، أظن أنك السيد ثيودور بلانت. هل لي أن أسألك إن كان هذا صحيحاً أم لا؟

تردد توم دقيقة وهو يشعر بصعوبة الموقف، ثم حنى رأسه وقال: هذا صحيح؛ أنا السيد بلانت.

- أي حظ سعيد غير متوقَّع هذا! كنت سأزورك في مكتبك بعد الغداء يا سيد بلانت. إنني في ورطة، ورطة شديدة. ولكن، أرجو المعذرة... هل وقع حادث لعينيك؟

قال تومي بصوت حزين: يا سيدي العزيز، إنني ضرير، ضرير تماماً.

- ماذا؟!

- أنت مندهش. ولكنك سمعت بالتأكيد عن رجال تحر عميان؟

- في الروايات وليس في الحياة الحقيقية، ومن المؤكد أنني لم أسمع أبداً بأنك ضرير.

- كثير من الناس لا يعرفون هذه الحقيقة. إنني أضع نظارة اليوم كي أحمي عيني من ضوء المطعم الباهر، ولكن حتى دون هذه النظارة فإن كثيراً من الناس لا يشكّون أبداً في عجزي هذا... إن صحت تسميته هكذا. فكما ترى، عيناي لا يمكن أن تضللاني. ولكن دعنا من هذا الكلام. هل نذهب إلى مكتبي على الفور أم أنك ستعطيني حقائق القضية هنا؟

- أظن أن المكان هنا مناسب.

أحضر النادل كرسيين إضافيين فجلس الرجلان عليهما. كان الرجل الآخر الذي لم يتكلم حتى الآن أقصر طولاً وأكثر بدانة وذا بشرة سمراء تماماً.

قال الرجل الأكبر سناً وهو يخفض صوته حتى لا يسمعه الآخرون في المطعم: إنها مسألة في غاية الحساسية.

ثم نظر إلى توبنس بارتياب. وبدا السيد بلانت وكأنه قد أحس

بنظراته فقال: دعني أقدم لك سكرتيرتي الموثوقة الآنسة غينج. إنها عيناي التي أبصر بهما، وهي ترافقني إلى كل مكان.

ردّ الغريب على التعارف بانحناءة من رأسه ثم قال: إذن أستطيع أن أتكلم بصراحة. إن ابنتي -يا سيد بلانت- في السادسة عشرة من عمرها، وقد اختُطفت في ظروف غريبة وغامضة. عرفت ذلك قبل نصف ساعة فقط، وظروف القضية جعلتني لا أجرؤ على إبلاغ الشرطة، وبدلاً من ذلك اتصلت بمكتبك فأخبروني أنك خرجت لتناول الغداء وأنك ستعود في الساعة الثانية والنصف تقريباً، ومن ثم جئت إلى هنا مع صديقي الكابتن هاركر...

حرك الرجل القصير رأسه وتمتم بكلمات غير مفهومة، فأكمل الرجل الآخر حديثه قائلاً: ولحسن الحظ تصادف وأن جئت إلى هنا لتناول الغداء. يجب أن لا نضيع أي وقت، يجب أن تعود معي إلى بيتي على الفور.

تردد تومي حذراً وقال: سأكون عندك بعد نصف ساعة؛ يجب أن أعود إلى مكتبي أولاً.

لو أن الكابتن هاركر التفت إلى توبنس في تلك اللحظة لفوجئ برؤيتها تبتسم نصف ابتسامة بطرف فمها.

- لا، لا، هذا لن ينفع؛ يجب أن تعود معي.

أخرج الرجل ذو الشعر الرمادي بطاقة من جيبه وسلمها إلى تومي وهو يقول: هذا هو اسمي.

تحسسها تومي بأصابعه ثم قال مبتسماً: إن أصابعي ليست

شديدة الحساسية حتى تدرك ما هو مكتوب فيها.

ثم سلم البطاقة إلى توبنس التي قرأتها بصوت منخفض: دوق بلير غوري.

نظرت إلى الزبون باهتمام كبير. كان دوق بلير غوري معروفاً بأنه نبيل متغطرس لا يمكن لأحد الوصول إليه، وقد تزوج ابنة جزار من شيكاغو كانت تصغره بسنوات عديدة، وكانت ذات مزاج وطبيعة حيوية دافقة مما كان نذيراً بفشل هذا الزواج. وقد انتشرت إشاعات عن وجود خلاف بينهما في الفترة الأخيرة.

قال الدوق بنبرة فيها فظاظة: هل ستأتي معي فوراً يا سيد بلانت؟

أذعن تومي لما لا مفر منه، وقال بهدوء: سنأتي معك أنا والآنسة غينج. أرجو أن تعذرني حتى أشرب كوباً من القهوة سيأتون به في الحال، فأنا أعاني من آلام شديدة في الرأس نتيجة للمشكلة في عيني والقهوة تهدئ أعصابي.

نادى النادل وطلب القهوة، ثم قال مخاطباً توبنس: آنسة غينج، سأتناول غذائي هنا في الغد مع مدير الشرطة الفرنسية. سجلي طلب الغداء وأعطيه للنادل الرئيسي مع تعليمات بأن يحجز لي طاولتي المعتادة. إنني أساعد الشرطة الفرنسية في قضية مهمة، والأتعاب كبيرة. هل أنت جاهزة يا آنسة غينج؟

قالت توبنس وقد استعدّت بقلمها: أنا جاهزة.

- سنتناول أولاً سلطة الربيان الخاصة تلك التي يقدمونها هنا.

وبعد ذلك يتبع... لأفكر قليلاً. نعم، بعد السلطة يتبع... نعم، طبق عُجّة بليتز.

سكت ثم قال معتذراً: إن مدير الشرطة الفرنسية هذا رجل مثير جداً. أظن أنك تعرفه؟

ردّ الآخر سلباً بينما نهضت توبنس وذهبت لتتحدث مع النادل الرئيسي، وبعد قليل عادت عندما أحضر النادل القهوة. شرب تومي كوباً كبيراً من القهوة وكان يرشف منه ببطء، ثم نهض وقال: عصاي يا آنسة غينج؟ شكراً لك، أرشديني من فضلك.

كانت لحظة كرب بالنسبة إلى توبنس. قالت: خطوة إلى اليمين وخمس عشرة خطوة إلى الأمام، وعند الخطوة الخامسة تقريباً هناك نادل يقدم الشراب على الطاولة التي على يسارك.

انطلق تومي وهو يحرك عصاه بثقة وابتهاج، وظلت توبنس بجانبه قريبة منه وحاولت توجيه خُطاهُ دون المبالغة في التدخل. سار كل شيء طبيعياً إلى أن وصلا إلى المدخل، حيث دخل رجل من الباب مسرعاً، وقبل أن تتمكن توبنس من تحذير السيد بلانت الأعمى اصطدم بالقادم الجديد وجهاً لوجه، وتتالت عبارات الأسف والاعتذار.

كانت سيارة صغيرة تنتظر عند باب مطعم بليتز، وقد قام الدوق نفسه بمساعدة السيد بلانت في ركوبها. ثم سأل وهو يلتفت إلى الوراء: هل سيارتك هنا يا هاركر؟

- نعم، عند الزاوية.

- أرجو أن تأخذ الآنسة غينج معك.

وقبل أن تقال أية كلمة أخرى قفز داخل السيارة إلى جانب تومي وانطلقت السيارة بهدوء.

قال الدوق: قضية حساسة جداً، سأشرح لك كل التفصيلات في الحال.

رفع تومي يده إلى رأسه وقال بمرح: أستطيع نزع نظارتي الآن؛ فقد كنت أضعها بسبب ضوء المطعم الصناعي.

لكن الرجل الآخر أنزل يده بحدة، وفي نفس الوقت أحس تومي بشيء صلب ومستدير يلامس أضلاعه. قال الدوق ولكن بصوت مختلف: كلا يا عزيزي السيد بلانت؛ لن تنزع هذه النظارة. سوف تجلس بكل هدوء دون أية حركة مهما كانت. أتفهم؟ لا أريد لهذا المسدس أن ينطلق. أنا لست دوق بلير غوري أبداً، وقد استعرت اسمه من أجل هذه المناسبة لأنني أعرف أنك لن ترفض رفقة مثل هذا الزبون المشهور. أنا رجل أكثر تواضعاً من ذلك الدوق بكثير... أنا تاجر لحوم فقد زوجته.

شعر بالرعدة التي أصابت رهينته فقال ضاحكاً: إن هذا يعني لك شيئاً يا عزيزي الشاب. لقد كنتَ ذا حماقة لا تُصدَّق، وأخشى... أخشى أن تتوقف أنشطتك في المستقبل.

قال الكلمات الأخيرة تلك بتلذذ تفوح منه رائحة الشر. وجلس تومي بلا حراك، لم يرد على تهكم الرجل الآخر. وسرعان ما خفّت سرعة السيارة ثم توقفت، وقال الدوق المزعوم: دقيقة واحدة فقط.

لفّ منديلاً وحشره في فم تومي ولفّ وشاحه فوقه، ثم أوضح بلطف: حتى لا تكون أحمق وتفكر في الصراخ طلباً للنجدة.

فتح باب السيارة ووقف السائق مستعداً، فأمسك هو وسيده بتومي بينهما ودفعاه بسرعة فوق بعض العتبات ثم إلى داخل أحد البيوت، ثم أغلقا الباب وراءهما. كان الجو يعبق برائحة غريبة، وغاصت قدما تومي في السجاد الذي يغطي الأرضية. ثم دفعاه بنفس الطريقة فوق درجات إلى الطابق العلوي وأدخلاه غرفة أحس تومي أنها في مؤخرة البيت، وفي تلك الغرفة قيّدَ الرجلان يديه.

وأخيراً خرج السائق من الغرفة، وقام الآخر بإزالة الكمامة عن فم تومي قائلاً بسرور: تستطيع أن تتكلم الآن بحرية. ماذا ستقول عن نفسك أيها الشاب؟

تنحنح تومي وحرك أطراف فمه ثم قال بهدوء: أرجو أن لا تكون قد أضعت عصاي؛ لقد كلفني صنعها الكثير من النقود.

قال الآخر بعد دقيقة من الصمت: إما أنك شجاع جريء أو أنك مجرد أحمق. ألا تفهم أنني أمسكت بك... أمسكت بك تماماً، وأنك تحت سيطرتي الكاملة، وأن أحداً ممن يعرفونك قد لا يراك أبداً بعد الآن؟

سأله تومي بصراحة: لماذا لا تختصر الجوانب المثيرة في هذه القصة؟ هل ينبغي عليّ أن أقول لك: أيها الوغد، سأهزمك رغم ذلك؟!

قال الآخر وهو يرقبه: ماذا عن الفتاة؟ ألا تهتم بمصيرها؟

- بعد التفكير بما رأيته منكم والتأمل خلال فترة صمتي الإجباري توصلت إلى نتيجة حتمية مفادها أن ذلك الغلام الثرثار هاركر هو الآخر ممن يقدمون على أفعال يائسة، ولذلك فإن سكرتيرتي المسكينة سرعان ما ستنضم إلى حفلة الشاي هذه.

- أنت مصيب في نقطة ومخطئ في الأخرى؛ لن نأتي بالسيدة بيرسفورد إلى هنا. وأقول السيدة بيرسفورد لترى أنني أعرف كل شيء عنكما. وعدم إحضارها هو احتياط بسيط أقدمت عليه، فقد خطر لي أن أصدقاء لك في مناصب عليا ربما كانوا قد وضعوك قيد المراقبة، وفي هذه الحالة إذا ما قسمنا المطاردة إلى قسمين فلن يستطيعوا تعقب الاثنين معاً. كان يجب أن يظل واحدٌ منكما بين يدي... إنني أنتظر الآن.

سكت عندما فُتح الباب. قال السائق: لم يتبعنا أحد يا سيدي، الجو هادئ تماماً.

- جيد، تستطيع أن تذهب يا غريغوري.

أغلق الباب ثانية، فقال الدوق: الوضع جيد حتى الآن. ماذا سنفعل بك الآن يا سيد بيرسفورد بلانت؟

- ليتك تنزع عني هذه النظارة اللعينة.

- لا أظن ذلك. أنت أعمى حقيقة عندما تلبسها، وبدونها سترى كما أرى... وهذا لن يخدم خطتي الصغيرة. إن لديّ خطة؛ أنت مغرم بالروايات البوليسية المثيرة يا سيد بلانت، وهذه اللعبة الصغيرة التي كنت وزوجتك تلعبانها اليوم دليل على ذلك. وقد

أعددت لعبة صغيرة أنا أيضاً... لعبة ذكية. أنا واثق من أنك ستعترف بذلك عندما أشرحها لك. إن هذه الأرضية التي تقف عليها الآن مصنوعة من المعدن، وعلى سطحها بعض النتوءات الصغيرة هنا وهناك، فإذا ما لمستُ مفتاحاً... هكذا.

خرج صوت طقطقة حادة.

- التيار الكهربائي موصول الآن، وإذا ما دست على إحدى هذه النتوءات الصغيرة فإنه يعني... الموت! أتفهم؟ إذا ما رأيت... لكنك لا تستطيع أن ترى؛ فأنت في الظلام. هذه هي اللعبة: الأعمى في مواجهة الموت. إذا استطعت أن تصل إلى الباب بأمان فسوف تنال حريتك! لكني أعتقد أنك قبل أن تصل إليه بوقت طويل ستكون قد دست على إحدى هذه النقاط الخطيرة، وسيكون هذا مسلياً جداً... بالنسبة لي!

تقدّمَ وفك الوثاق عن يدي تومي، ثم أعطاه عصاه وهو يحني له رأسه ساخراً وقال: حلال المشاكل الأعمى! لِنَرَ إن كان يستطيع حل هذه المشكلة. سأقف هنا ومعي مسدسي في وضع الاستعداد، فإذا رفعت يديك إلى رأسك لتنزع النظارة سأطلق النار. هل هذا واضح؟

قال تومي: واضح جداً.

كان تومي شاحب اللون لكنه بدا مصمماً، قال: أحسب أن فرصتي في النجاة معدومة؟

- آه! هذا ما لديّ.

قال تومي: أنت شيطان ذكي لعين، لكنك نسيت شيئاً واحداً. على فكرة، هل يمكنني إشعال سيجارة؟

- ولكن بلا حِيَل. تذكّرْ أنني أراقبك والمسدس في يدي في وضع استعداد.

- أنا لست من كلاب السيرك ولا أمارس حِيَلاً.

ثم أخرج سيجارة من علبته وتحسس جيوبه يريد علبة ثقاب وقال: لا تخف؛ إنني لا أبحث عن مسدس. أنت تعرف جيداً أنني لست مسلحاً، ومع ذلك وكما قلتُ من قبل فقد نسيتَ شيئاً واحداً.

- وما هو؟

أخرج تومي عود ثقاب من العلبة وأمسك به يريد إشعاله وقال: إنني أعمى وأنت تستطيع أن ترى. هذه حقيقة معترف بها، وهي ميزة لصالحك. ولكن افترض أننا في الظلام معاً... ما رأيك؟ أين ميزتك في هذه الحالة؟

ثم أشعل العود، فقال الرجل: هل تفكر في إطلاق النار على مفاتيح الأضواء لكي يعم الظلام الغرفة؟ لا يمكنك القيام بذلك.

قال تومي: هذا صحيح؛ لا أستطيع أن أغمرك بالظلمة، ولكن طرفَي النقيض يلتقيان كما تعلم. ونقيض الظلمة الضياء، فما قولك بالضوء؟

وبينما كان يتكلم جعل عود الثقاب يلامس شيئاً كان يمسكه

بيده وألقاه على الطاولة، فملأ الغرفةَ ضياءٌ يعمي الأبصار. وللحظة فقط أغمض الدوق عينيه وقد بهرهما ضياء أبيض يأخذ الأبصار، ووقع إلى الخلف وقد نكس يده التي تحمل المسدس. ثم فتح عينيه ثانية فشعر بشيء حاد يَخِزُ صدرَه.

أمره تومي قائلاً: ألقِ هذا المسدس، ألقِه بسرعة. إنني أتفق معك بأنّ العصا المجوّفة سلاح تافه لا فائدة منه، أما السيف فإنه سلاح مفيد جداً إن كان في شكل عصا. ألا تعتقد ذلك؟ مفيد تماماً كسلك المغنيزيوم الذي أشعلته في وجهك. ألقِ هذا المسدس.

ألقى الرجل مسدسه طائعاً وهو يشعر بوخز رأس السيف المدبّب، ثم ما لبث أن قفز إلى الوراء وهو يضحك وقال ساخراً: ما زلت أمتلك أفضلية عليك لأنني أستطيع أن أرى وأنت لا تستطيع.

قال تومي: هنا مكمن خطئك! أنا أستطيع أن أرى جيداً؛ فهذه النظارة زائفة. لقد أردت تمثيل الدور على توبنس فتعمدت الفشل مرة أو مرتين في البداية، ثم أديت الدور بشكل رائع عند نهاية الغداء. يا لك من مغفل! كنت أستطيع السير نحو الباب متجنباً كل النتوءات بسهولة تامة، لكني لم أثق في أنك تريد اللعب معي بصدق وأمانة، فما كنت لتسمح لي بالخروج من هنا حياً.

ثم صاح: "انتبه"! قالها لأن الدوق المزعوم -وقد تقلص وجهه غضباً- قفز إلى الأمام ناسياً وهو على هذه الحال أن ينظر إلى موضع قدميه، فخرج لهب أزرق فجأة وترنح الدوق لبعض الوقت، ثم سقط كما يسقط جذع الشجرة، وامتلأت الغرفة برائحة لحم محروق ممتزج برائحة أوزون قوية.

قالت توبنس: لم تكن مشكلة من طراز المشكلات التي واجهت الأب براون. يحتاج المرء إلى جوّ معين منذ البداية؛ يجب أن يكون منهمكاً في عمله بطريقة طبيعية تماماً ثم تبدأ الأشياء الغريبة بالحدوث، هذه هي الفكرة.

- لسوء الحظ علينا أن نعود إلى البلدة؛ فقد يحدث شيء غريب في طريقنا إلى المحطة.

رفع كوب القهوة الذي كان يمسك به إلى شفتيه، لكن القهوة اندلقت فجأة عندما وقعت يد ثقيلة على كتفه. ومع الضربة هذه سمع صوتاً يحييه: يا محاسن المصادفات! تومي... وزوجته أيضاً! من أين جئتما؟ لم أركما أو أسمع عنكما أي شيء منذ سنوات.

قال تومي بعد أن وضع الكوب على الطاولة والتفت ليرى هذه المتطفل، وكان ضخم الجسم عريض المنكبين في الثلاثين من عمره وله وجه مستدير مبتسم ويرتدي لباس لاعب الغولف. هتف تومي: آه، بولغر! صديقي الطيب بولغر.

قال بولغر (وكان اسمه الحقيقي مارفين إيسكورت): لم أعرف أنك قد أصبحت قسيساً كاثوليكياً؛ كنت أظنك بروتستنتياً.

انفجرت توبنس ضاحكة وبدا تومي محرجاً، وفجأة شعروا بوجود شخص رابع. كان ذلك فتاة طويلة القامة نحيفة ذهبية الشعر ذات عينين مستديرتين زرقاوين رائعتي الجمال، وكانت ترتدي ثوباً أسود أنيقاً وعلى كتفيها معطف فراء وتضع قرطاً ضخماً من اللؤلؤ.

عرفها تومي وتوبنس على الفور. لقد شاهداها ثلاث مرات

في مسرحية «سر القلب» وثلاث مرات أخرى في تلك المسرحية الناجحة «أعمدة النار» وفي عدد من المسرحيات الأخرى التي لا حصر لها. ربما لم يكن في إنكلترا أية ممثلة أسَرَت قلوب الإنكليز كما فعلت الآنسة غيلدا غلين. وكثيراً ما قيل إنها أجمل نساء إنكلترا، كما أشيع أنها أغباهن أيضاً!

قال إيسكورت معتذراً عن نسيانه رفيقته الجميلة: هؤلاء أصدقائي القدامى يا آنسة غلين، السيد تومي وزوجته. أقدم لكما الآنسة غيلدا غلين.

كانت نبرة الفخر والعجب ظاهرة في صوته، فمجرد رؤية الناس له برفقة الآنسة غلين يُعَدّ مصدر فخر له. وكانت الممثلة تنظر إلى تومي باهتمام واضح، وقد سألته: هل أنت قس حقاً؟ أأنت قس كاثوليكي حقاً؟ لقد ظننت أنهم لا يتزوجون.

ضجّ إيسكورت ضاحكاً مرة أخرى وقال: هذا جيد، أيها الماكر الخبيث تومي. إنني مسرور لأنه لم يتخلّ عنك يا سيدة بيرسفورد، أسوة بكل مظاهر العُجبِ والخيلاء التي تركها.

لم تلتفت غيلدا غلين إلى كلامه، بل ظلت تحق بتومي بعينين محتارتين. سألته: هل أنت قس؟

قال تومي: قليلون جداً أولئك الذين يدل منظرهم على مخبرهم. إن مهنتي لا تختلف عن مهنة القس كثيراً؛ أنا لا أمنح الغفران... لكنني أصغي إلى الاعترافات. إنني...

قاطعه إيسكورت قائلاً: لا تصغي إليه؛ إنه يستدرجك.

قالت متحيّرة: إن لم تكن رجل دين فلست أفهم سبباً لارتدائك ثياب قس، إلاّ إذا...

قال تومي: أنا لست مجرماً هارباً من وجه العدالة؛ أنا من الطرف الآخر.

- آه!

قالتها وهي تقطب جبينها وتنظر إليه بعينين جميلتين محتارتين. وقال تومي في نفسه: لا أظن أنها ستفهم هذا إلاّ إذا قلته بكلمات بسيطة وصريحة.

ثم خاطب صديقه قائلاً: هل تعرف مواعيد القطارات العائدة إلى لندن يا بولغر؟ نحن مضطرون إلى الاستعجال بالعودة. كم تبعد المحطة من هنا؟

- عشر دقائق سيراً على الأقدام. ولكن لا تستعجل؛ فالقطار التالي يغادر في الساعة السادسة وخمس وثلاثين والساعة الآن السادسة إلاّ ثلثاً. لقد فاتك قطارٌ غادر قبل قليل.

- أي طريق من هنا يؤدي إلى المحطة؟

- عندما تخرج من الفندق اتجه صوب اليسار، ثم اقطع شارع مورغان. هذا أفضل طريق، أليس كذلك؟

جفلت الآنسة غلين وحدّقت إليه بعينين مذعورتين وهي تهتف: شارع مورغان؟

قال إيسكورت ضاحكاً: أعرف ما تفكرين فيه... الشبح. يوجد

على أحد جانبي شارع مورغان مقبرة، وتقول الحكايات الشعبية إن شرطياً لقي حتفه نتيجة العنف ينهض ويقوم بدوريته القديمة ذهاباً وإياباً في شارع مورغان. شرطي شبح! هل تستطيع أن تقطع ذلك الشارع؟ كثير من الناس أقسموا أنهم رأوه.

قالت الآنسة غلين وقد ارتعدت قليلاً: شرطي؟ ولكن لا توجد أشباح في الحقيقة، أليس كذلك؟ أقصد أن هذه الأشياء غير موجودة.

نهضت وهي تلفّ معطفها حولها وقالت على نحو غامض: وداعاً.

كانت قد تجاهلت وجود توبنس تماماً في أثناء الحديث، وفي تلك اللحظة وهي تغادر لم تلقِ أية نظرة باتجاهها، لكنها التفتت إلى تومي بنظرة تساؤل محير. وعندما وصلت إلى الباب رأت أمامها رجلاً طويل القامة أشيب الشعر ذا وجه منتفخ صدرت منه عبارة دهشة، ثم أخرجها من الباب وهو يمسك بذراعها ويتحدث معها بحماسة.

قال إيسكورت: إنها امرأة جميلة، أليس كذلك؟ لكنها غبية. تقول الشائعات إنها ستتزوج اللورد ليكونبري. كان ذلك هو ليكونبري الذي التقاها عند الباب.

قالت توبنس: إنه لا يبدو رجلاً يستحق الزواج بها.

هزّ إيسكورت كتفيه استهجاناً وقال: ما زال للقب اللورد وقعه على الناس، كما أن ليكونبري ليس بالنبيل الفقير؛ سوف تعيش

في نعيم وترف. لا أحد يعرف ما هو أصلها. لعلها وردة خرجت من مزبلة! على أي حال يوجد سر غامض وراء وجودها هنا. إنها لا تقيم في الفندق، وعندما حاولتُ معرفة مكان إقامتها زجرتني... زجرتني بأسلوب فظ، وهي الطريقة الوحيدة التي تعرفها! بودي لو أعرف حقيقة هذا الأمر.

نظر إلى ساعته وصاح مذهولاً: يجب أن أنطلق. أنا في غاية السعادة لرؤيتكما مرة أخرى، إلى اللقاء.

ثم أسرع خارجاً، وبعد خروجه اقترب خادم وهو يحمل صينية عليها رسالة. كانت الرسالة غير معنونة، وقال مخاطباً تومي: إنها لك يا سيدي، من الآنسة غيلدا غلين.

فتحها تومي وقرأها بفضول. كان في داخلها بضعة أسطر مكتوبة بخط غير مرتب، وكانت تقول: «لست واثقة ولكني أظن أنك قد تستطيع مساعدتي، كما أنك ستذهب من ذلك الطريق إلى المحطة. هل يمكن حضورك إلى البيت الأبيض في شارع مورغان في الساعة السادسة وعشر دقائق؟ المخلصة: غيلدا غلين».

أومأ تومي إلى الخادم الذي غادر بعد ذلك ثم سلّم تومي الرسالة إلى توبنس التي قالت: أمر غريب! ألأنها ما زالت تحسبك قساً؟

ردّ عليها تومي متأملاً: لا؛ بل أعتقد لأنها أدركت أخيراً أنني لست قساً. آه! ما هذا؟

كان ذلك شاباً أحمر الشعر بارز الفكين يرتدي ثياباً بالية

مقرفة، وكان قد دخل الصالة وأخذ يذرعها جيئة وذهاباً ويتمتم مع نفسه، ثم صاح بصوت عال: تباً! هذا ما لديّ، تباً!

ثم جلس على كرسي قريب من تومي وزوجته وجعل يحق إليهما بغضب، ثم قال وهو ينظر إلى توبنس شزراً: تباً لكل النساء! آه، هيا؛ افتعلي شجاراً إن شئت. اطرديني من الفندق، فلن تكون هذه هي المرة الأولى. لماذا لا نقول ما نفكر فيه؟ لماذا نحبس مشاعرنا ونتكلف الابتسامات ونقول أشياء يقولها الجميع بحكم العادة؟ إنني لا أشعر برغبة في أن أكون مرحاً ومؤدباً، وإنما برغبة في إمساك شخص من رقبته وخنقه حتى الموت.

ثم سكت، فقالت توبنس: أثمة شخص محدد أم تعني أي شخص؟

قال الشاب عابساً: بل شخص محدد.

- هذا مثير جداً. ألن تخبرنا بالمزيد؟

- اسمي رايلي، جيمس رايلي. ربما سمعت بي؛ لقد كتبت ديواناً صغيراً من الأشعار السلمية. شعر جيد... مع أنني أنا الذي أقول ذلك.

- أشعار سلمية؟

قال السيد رايلي غاضباً: نعم، ولِمَ لا؟

أسرعت توبنس تقول: آه، لا شيء.

- أنا مؤيد للسلام دائماً. تباً للحرب! والنساء! النساء؟ هل

رأيت تلك المخلوقة التي كانت تجرجر نفسها هنا قبل قليل؟ إنها تسمي نفسها غيلدا غلين. غيلدا غلين؟ يا إلهي، كم عشقت تلك المرأة! لو كان لها قلب فإنه سيكون إلى جانبي. كانت تهتم بي ذات مرة وأستطيع جعلها تهتم بي مرة ثانية، أما إذا كانت ستبيع نفسها إلى ذلك القذر ليكونبري فليساعدها الله... سوف أقتلها بكلتا يدي!

قال عبارته هذه ثم نهض وخرج من الغرفة فجأة، فرفع تومي حاجبيه دهشة وقال: رجل مثير. حسناً، هل ننطلق يا توبنس؟

واجههما ضباب رائع وهما خارجان من الفندق إلى الهواء الخارجي البارد، وبناء على توجيهات إيسكورت فقد استداروا ناحية اليسار، وبعد دقائق قليلة وصلا إلى منعطف كُتب عليه «شارع مورغان».

تزايد الضباب وكان أبيض رقيقاً يمرّ بهما بشكل تيارات دائرية، وعلى يسارهما كان جدار المقبرة العالي وعلى يمينهما صف من بيوت صغيرة. ثم انتهت هذه البيوت ليأخذ مكانها سياجٌ شجري مرتفع.

قالت توبنس: لقد بدأت أشعر بالترقب، فهذا الضباب والصمت... وكأننا نبعد أميالاً عن أي مكان.

وافقها تومي: نعم؛ يشعر المرء بذلك، وكأنه وحده في هذا العالم. إنه تأثير الضباب وعدم قدرتنا على رؤية أي شيء أمامنا.

أومأت توبنس وقالت: لا شيء سوى صدى خطواتنا على الرصيف. ما هذا؟

– ماذا؟

– ظننت أنني سمعت وقع أقدام أخرى وراءنا.

– سرعان ما سترين الشبح إن مضيتِ في هذا الترقب المشدود. لا تكوني عصبية كثيراً، أتخشين أن يضع شبح الشرطي يده على كتفك؟

كتمت توبنس صرخة حادة وقالت: كفاك يا تومي! لقد وضعتَ هذه الفكرة في خيالي الآن.

التفتت برأسها إلى الوراء في محاولة لرؤية شيء من خلال الغلالة البيضاء التي تلف المكان، ثم قالت هامسة: ها هي مرة أخرى. لا، إنها أمامنا الآن. آه، لا تقل إنك لا تسمعها.

– بل أسمع شيئاً. نعم، إنها وقع أقدام وراءنا. آخرون غيرنا يسيرون من هذا الطريق للّحاق بالقطار. تُرى...

توقف فجأة وظلّ واقفاً جامداً وشهقت توبنس؛ فقد انفتح أمامهما فجأة ستار الضباب على نحو غير طبيعي أبداً، وعلى مسافة أقل من عشرين قدماً ظهر شرطي عملاق فجأة وكأنه قد تجسد من الضباب! بعد دقيقة واحدة لم يعد هناك، ثم بعدها بدقيقة أخرى ظهر ثانية... أو على الأقل هذا ما بدا لخيال الزوجين المتوقّد. وبينما كان الضباب يتراجع إلى الوراء شيئاً فشيئاً ظهر مشهد صغير وكأنه على خشبة مسرح؛ فقد ظهر الشرطي الضخم بزيه الأزرق، وبجانبه صندوق بريد أحمر، وعلى يمين الطريق هيكل بيت أبيض.

قال تومي: أحمر وأبيض وأزرق... إنها لوحة ملونة. هيّا يا توبنس؛ ليس هناك ما يدعو إلى الخوف.

قال هذا لأنه رأى أن ذلك الشرطي شرطي حقيقي، كما أنه لم يكن بتلك الضخامة التي بدا بها أول مرة من خلال الضباب. ولكن عندما انطلقا إلى الأمام سمعا وقع أقدام وراءهما، ومرّ رجلٌ من جانبهما مسرعاً فدخل بوابة البيت الأبيض وصعد درجات الباب، ثم طرق على الباب بقوة ودخل إلى البيت.

عندما وصلا إلى المكان الذي كان الشرطي يحدق باتجاهه علّق الشرطي قائلاً: هذا الرجل يبدو في عجلة من أمره.

كان يتكلم بصوت بطيء متأمل كمن تستغرق أفكاره وقتاً طويلاً حتى تنضج.

قال تومي: إنه من النوع الذي يكون في عجلة من أمره دائماً.

تحولت نظرة الشرطي البطيئة المرتابة لتستقر على وجه تومي، وقال: أهو صديقك؟

بدا الشك في سؤاله واضحاً الآن. قال تومي: لا، ليس صديقاً لي. لكني صدف وعرفت هويته؛ اسمه رايلي.

- آه! من الأفضل أن أنصرف.

- هل يمكنك أن تدلني على مكان البيت الأبيض؟

التفت الشرطي برأسه وأشار قائلاً: هذا هو، بيت السيدة هانيكوت.

سكت قليلاً ثم أضاف وكأنه يعطيهما معلومات قيمة: أهله عصبيّو المزاج ويشكّون دائماً بوجود لصوص، لذلك يطلبون مني مراقبة البيت. النساء في وسط العمر يصبحن هكذا دائماً!

سأله تومي: أهي سيدة في وسط العمر؟ هل تعرف إن كان ثمة سيدة شابة تقيم فيه؟

قال الشرطي متأملاً: سيدة شابة... سيدة شابة؟ لا، لا أعرف شيئاً كهذا.

قالت توبنس: ربما لا تقيم هنا يا تومي، وعلى أي حال فقد لا تكون وصلت إلى هنا بعد.

قال الشرطي فجأة: آه، تذكرت الآن؛ لقد دخلت سيدة شابة من هذه البوابة فعلاً. رأيتها عندما كنت قادماً إلى هنا، وربما كان ذلك قبل ثلاث دقائق أو أربع.

سألته توبنس بلهفة: هل كانت تضع الفراء على كتفيها؟

- كانت تلفّ حول عنقها شيئاً كفرو الأرنب.

ابتسمت توبنس. وذهب الشرطي في الاتجاه الذي قَدِما منه فاستعدا لدخول بوابة البيت الأبيض. وفجأة سمعا صرخة ضعيفة مكتومة قادمة من داخل البيت، وبعدها على الفور فُتح الباب الرئيسي وخرج جيمس رايلي منه مسرعاً ينزل الدرجات. كان وجهه شاحباً متقلصاً وعيناه تحملقان أمامه بذهول، وكان يمشي مترنحاً كالسكران.

فهذا ما يمكن للمرء أن يتوقعه من حياة كحياتها، بل أظن أن الأمر قد يكون أسوأ من ذلك، إذ ربما لا يكون لها دين أبداً! كنت سأحترم الكاثوليكية أكثر لو كان كهنتهم يتزوجون. إنني لا أتكلم بما في قلبي دائماً، لكن إذا ما فكرت في أديرة الراهبات تلك التي تغلق أبوابها على الكثير من الفتيات الجميلات ولا أحد يعلم ماذا يجري لهن... إنني لا أطيق التفكير بالأمر.

سكتت السيدة هانيكوت وسحبت نفساً عميقاً، فدخل تومي في الموضوع مباشرة دون أخذ موقف دفاعي عن تبتل الكهنة والرهبان أو النقاط الخلافية الأخرى التي تحدثت عنها. قال: لقد فهمت أن الآنسة غلين موجودة في هذا البيت يا سيدتي؟

- هذا صحيح. ولكن لتعلم أنني غير موافقة على هذا... إن الزواج زواج والزوج هو الزوج.

قالها تومي متحيراً: أنا لا أفهم تماماً...

- هذا ما فكرت فيه، هذا هو السبب الذي جعلني أحضرك إلى هذه الغرفة. يمكنك أن تصعد إلى غيلدا بعد أن أقول ما أريد قوله. لقد جاءت إليّ... بعد كل هذه السنوات! فكرّ في هذا... وطلبت مني مساعدتها. كانت تريد مني رؤية هذا الرجل لأقنعه بأن يطلّقها. وقلت لها صراحة إنني لا علاقة لي بهذا الأمر، فالطلاق أمر سيء، لكني لم أستطع صدّ أختي التي لجأت إلى بيتي.

صاح تومي: أختك؟!

- نعم، غيلدا هي أختي. ألم تخبرك بذلك؟

حملق تومي إليها فاغراً فاه. كان الأمر يبدو مستحيلاً لغرابته نظراً لفارق السن، ثم تذكر أن غيلدا غلين كانت مشهورة منذ سنوات طويلة، فقد كان يذهب لرؤيتها على خشبة المسرح منذ أن كان صبياً صغيراً. نعم، كان هذا ممكناً، ولكن ما هذا التناقض الحاد؟ إذن فقد خرجت غيلدا غلين من محيط الاحترام الذي يميز الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة. لقد نجحت في المحافظة على سرها هذا!

قال: ما زلت لا أفهم تماماً. هل أختك متزوجة؟

- لقد هربت لتتزوج عندما كانت فتاة في السابعة عشرة من عمرها. كان رجلاً عادياً أقل منها بكثير من حيث المنزلة الاجتماعية، وكان والدنا كاهناً. كان تصرفها ذلك عاراً وخزياً. ثم تركت زوجها وذهبت لتعمل في المسرح، في التمثيل! أنا لم أدخل مسرحاً طوال حياتي، فأنا لا أتعامل مع الشر. والآن بعد كل هذه السنين تريد الطلاق من الرجل وتريد الزواج برجل عظيم الشأن. لكن زوجها صلب ولا يذعن للتخويف ولا للرشوة... إنني معجبة به بسبب هذا الموقف.

سألها تومي فجأة: ما اسمه؟

- هذا أمر غريب، فأنا لا أتذكر! إنني لم أسمع باسمه منذ عشرين عاماً تقريباً، فقد منع والدي ذكر اسمه. وقد رفضت مناقشة المسألة مع غيلدا. إنها تعرف رأيي وهذا يكفي.

- هل كان اسمه رايلي؟

- ربما. لا أستطيع حقاً أن أجزم؛ لقد نسيت ذلك تماماً.

- الرجل الذي أعنيه كان هنا قبل قليل.

- ذلك الرجل؟ ظننت أنه مجنون هارب. كنت في المطبخ أعطي إيلين التعليمات، وكنت قد عدت لتوي إلى هذه الغرفة وأنا أتساءل إن كانت غيلدا قد جاءت إلى هنا أم لا، إذ أن لديها نسخة من المفتاح. وعندها سمعت صوت قدومها، ترَدَدت بعض الوقت وهي في الصالة ثم صعدت إلى الطابق العلوي مباشرة، وبعد ثلاث دقائق سمعت أصواتاً مزعجة على الباب. خرجت إلى الصالة فرأيت رجلاً يسرع إلى الطابق العلوي، ثم سمعت صيحة هناك، وسرعان ما نزل هذا الرجل الدرج وخرج من البيت كالمجنون. يا لهذه الأحداث الرائعة!

نهض تومي وقال: سيدة هانيكوت، لنصعد إليها فوراً. أخشى أن...

- تخشى ماذا؟

- أخشى أن لا يكون عندك في البيت طلاء أحمر ما يزال رطباً.

حدّقت السيدة هانيكوت إليه وقالت: ليس عندي بالطبع.

- هذا ما خشيته. أرجوك، دعينا نذهب إلى غرفة أختك فوراً.

تقدمت السيدة هانيكوت الطريق بعد لحظات صمت، وشاهدوا إيلين في الصالة وهي ترجع بسرعة إلى إحدى الغرف.

فتحت السيدة هانيكوت أول باب عند أعلى الدرج، فدخل تومي وتوبنس وراءه، وفجأة شهقت وتراجعت إلى الوراء.

كانت السيدة الشابة ذات الرداء الأسود ومعطف الفراء ترقد بلا حراك على الأريكة، أما وجهها فلم يمسه شيء، بل كان وجهاً جميلاً لا روح فيه كوجه طفل نائم. كان الجرح على جانب الرأس، وقد أحدثته ضربة قوية بآلة غير حادة حطمت الجمجمة واخترقتها. كانت الدماء تقطر على الأرض ببطء لكن الجرح نفسه كان قد توقف عن النزف منذ مدة طويلة.

تفحص تومي الجسد المسجّى أمامه ووجهه شاحب جداً، ثم قال أخيراً: إذن لم يخنقها رغم كل ذلك؟

صاحت السيدة هانيكوت: ماذا تعني؟ من؟ هل ماتت؟

- آه، نعم يا سيدتي؛ لقد ماتت. قُتلت! والسؤال هو: مَن قتلها؟ رغم أن هذا لا يثير إشارة استفهام كبرى. الغريب أنني رغم كل كلماته الصاخبة لم أفكر في أنه يضمر الشرّ في نفسه.

سكت دقيقة ثم التفت إلى توبنس وقال حازماً: هلاّ خرجتِ لتحضري شرطياً أو تتصلي بمركز الشرطة من مكان ما؟

أومأت توبنس، وكانت شاحبة جداً هي أيضاً. قاد تومي السيدة هانيكوت إلى الطابق الأرضي مرة أخرى وقال: لا أريد أن تخطئي فيما سأسألك عنه. هل تعرفين كم كانت الساعة بالضبط عندما دخلت أختك البيت؟

- نعم، أعرف لأنني كنت أقدّم عقارب الساعة خمس دقائق،

العصا يا توبنس، أتذكرين؟ أحد طرفيها يشير إلى اتجاه معين لكن الطرف الآخر يشير دوماً إلى الاتجاه المعاكس... يعتمد الأمر على إمساكك بها من الطرف الصحيح. الأبواب تُفتح... لكنها تُغلَق أيضاً، الناس يصعدون الأدراج ولكنهم ينزلونها أيضاً...

سألته توبنس: ماذا تعني؟

- إنه أمر سهل إلى درجة السخافة، ومع ذلك لم يخطر لي إلاّ الآن. كيف تعرفين أن شخصاً قد دخل بيتك؟ لا بد أنك تسمعين الباب يُفتَح ثم يُغلَق، وإذا كنتِ تتوقعين مجيء أحد فستكونين متأكدة من أنه قد وصل داخلاً، لكن من الممكن تماماً أن يكون شخصٌ آخر خارجاً من البيت في تلك اللحظة.

- لكن الآنسة غلين لم تخرج؟

- نعم، أعرف ذلك، ولكن شخصاً آخر هو الذي خرج... القاتل.

- ولكن كيف دخلَت إذن؟

- لقد دخلت بينما كانت السيدة هانيكوت في المطبخ تتحدث مع إيلين، ولذلك لم تسمعاها. عادت السيدة هانيكوت إلى غرفة الجلوس وتساءلت في نفسها إن كانت أختها قد جاءت وبدأت في ضبط الساعة، ثم سمعتها (كما خُيّل إليها) وهي تدخل البيت ثم تصعد الدرج.

- حسناً، وماذا في ذلك؟ وقع أقدام تصعد الدرج.

- كانت تلك هي إيلين التي صعدت لتسدل الستائر. لعلك

تذكرين أن السيدة هانيكوت قالت إن أختها توقفت قليلاً قبل أن تصعد، وكانت مدة الوقوف هي تماماً الوقت الذي احتاجته إيلين لتخرج من المطبخ إلى الصالة. لقد فاتتها رؤية القاتل بفارق لحظة.

صاحت توبنس: ولكن يا تومي، ماذا عن الصرخة التي أطلقَتها؟

- كانت تلك هي صرخة جيمس رايلي. ألم تلاحظي طبقة صوته العالية؟ في لحظات الانفعال الكبير يصرخ الرجل مثل النساء.

- ولكن... القاتل، كان من شأننا في هذه الحالة أن نراه؟

- لقد رأيناه فعلاً، بل إننا وقفنا نتحدث معه! ألا تذكرين كيف ظهر الشرطي فجأة؟ لأنه خرج من البوابة عندما انقشع الضباب عن الطريق. ألا تذكرين كيف أفزعَنا ذلك؟ أخيراً فإن رجال الشرطة هم رجال كغيرهم تماماً، رغم أننا لا نفكر فيهم هكذا. إنه يحبون ويكرهون، إنهم يتزوجون! أظن أن غيلدا قابلت زوجها فجأة أمام البوابة فأدخلته معها إلى المنزل لتسوية المسألة. لم يكن مثل رايلي ينفّس عن نفسه بالكلام العنيف، وقد اشتعل غضباً فجأة، وكانت هراوة الشرطي في يده...

* * *

الفصل التاسع

المزيّف

قال تومي: توبنس، سوف نضطر إلى الانتقال إلى مكتب أكبر من هذا بكثير.

- لا تكن مغروراً وتظن أنك مليونير لمجرد أنك حللت قضيتين أو ثلاث قضايا تافهة بمساعدة حظ يحيّر العقول.

- ما يسميه البعض حظاً يسمه الآخرون مهارة.

- بالطبع، إن كنت تظن حقاً أنك شيرلوك هولمز وثورندايك ومكارثي والإخوة أوكوود وقد اجتمعوا في شخصك، فليس لدي ما أقوله. أنا شخصياً أفضّل وجود الحظ إلى جانبي على مهارة العالم كله.

أذعن تومي قائلاً: ربما كان هذا صحيحاً، ومع ذلك فنحن بحاجة إلى مكتب أكبر فعلاً يا توبنس.

- لماذا؟

- هذا ما تقوله أمهات الكتب البوليسية؛ نحتاج إلى مئات الرفوف من الكتب إن كنا نريد تمثيل دور المحقق إدغار والاس تمثيلاً صحيحاً.

- لم تأتنا بعدُ أية قضية من القضايا التي اشتُهر بها إدغار والاس

- وأخشى أن لا تأتي أبداً. إذا لاحظت فإنه لا مجال عنده لرجل التحري الهاوي. كل أعماله من نوعية قضايا اسكتلنديارد الجدية، قضايا مهمة لا تجدين فيها زيفاً رخيصاً.

ظهر ألبرت عند الباب وقال: وصل المفتش ماريوت ويريد رؤيتك.

قال تومي: رجل اسكتلنديارد الغامض.

قالت توبنس: أكثر المشغولين شغلاً، أم أنه الفضول؟ إنني أخلط دائماً بين الانشغال والفضول والتدخل فيما لا يعني المرء.

دخل المفتش بابتسامة مشرقة على شفتيه، وسأل: حسناً، كيف تسير الأمور؟ أتشعران بالارتياح لنجاح قضيتنا الأخيرة؟

قالت توبنس: نعم، كانت رائعة جداً، أليس كذلك؟

ردّ عليها ماريوت بحذر: لا أدري إن كنت أستطيع وصفها بهذا الوصف بالضبط.

سأل تومي: ما الذي جاء بك إلى هنا اليوم يا ماريوت؟ لا أظنه مجرد قلقك على أعصابنا فحسب؟

قال المفتش: بل جئت بعمل للسيد بلانت الذكي.

- آه! دعني أرسم ملامح الذكاء على وجهي إذن.

- لقد جئت لتقديم عرض لك يا سيد بيرسفورد. ماذا تقول في اعتقال عصابة كبيرة؟

- هل يوجد شيء من هذا؟

- ماذا تقصد بسؤالك هذا؟

- ظننت دائماً أن العصابات أمر لا يوجد إلا في الروايات!

- بل إن هناك الكثير من العصابات التي تمارس الجريمة.

- لا أدري إن كنت أستطيع التميز في التعامل مع عصابة. إن المجال الذي أتألق فيه هو جرائم الهواة، جرائم الحياة العائلية الهادئة... أو هذا ما أتملق به نفسي على الأقل. إن مجالي هو الدراما والصراع ذو الصبغة المنزلية؛ هذا هو الشيء الذي أتقنه، بوجود توبنس قربي لتزوّدني بتلك التفاصيل الأنثوية الصغيرة التي تعتبر مهمة جداً وغالباً ما يتجاهلها الكثير من الذكور الأغبياء.

سكت عن فصاحته فجأة عندما رمته توبنس بوسادة صغيرة وطلبت منه أن لا يتكلم كلاماً لا معنى له.

قال المفتش ماريوت مبتسماً للاثنين: ألا تريدان ممارسة شيء من اللهو؟ أرجو أن لا تنزعجا عندما أقول إنني مسرور لرؤية شابين يستمتعان بالحياة مثلكما.

قالت توبنس بدهشة: هل نستمتع بالحياة حقاً؟ لم أفكر بهذا من قبل.

قال تومي: لنعد إلى موضوع العصابة التي كنتَ تتحدث عنها. بالرغم من ممارستي وخبرتي في القضايا الخاصة (كقضايا الدوقات والمليونيرات والخادمات) ربما أتنازل وأنظر في هذه المسألة من أجلك. لا أحب رؤية شرطة اسكتلنديارد في موضع نقد ولوم، إذ ستجدون صحيفة الديلي ميل قد هاجمتكم قبل أن تعرفوا أين أنتم.

- كما قلت لك من قبل، لا بد أن نجد في هذا العمل شيئاً من المتعة واللهو. ما أريد قوله هو التالي.

قدّم كرسيه إلى الأمام ثم أضاف يقول: يتم الآن تداول مجموعة من أوراق النقد المزورة... مئات منها! إن مقدار أوراق النقد المزورة التي يتم تداولها الآن سيذهلك، وهي مزورة بأسلوب بارع جداً. هذه واحدة منها.

أخرج من جيبه ورقة واحدة من فئة الجنيه فأعطاها لتومي قائلاً: تبدو حقيقية، أليس كذلك؟

تفحص تومي الورقة باهتمام كبير ثم هتف: يا إلهي! ما كنت لأعرف أن فيها أي شيء غير طبيعي.

- وكذلك معظم الناس. والآن ها هي ورقة أصلية... سأريك الفوارق بينهما، وهي فوارق بسيطة جداً ولكنك ستتعلم كيف تفرق بينهما في الحال. خذ هذه العدسة المكبّرة.

بعد خمس دقائق من التدريب أصبح كل من تومي وتوبنس خبيرين. وسألته توبنس: ما الذي تريد منّا أن نفعله يا حضرة المفتش؟ هل تريد منّا أن نبقي عيوننا مفتوحة على هذه الأشياء؟

- بل أكثر من هذا بكثير يا سيدة بيرسفورد؛ إنني أعتمد عليكما اعتماداً كاملاً في كشف هذه المسألة. لقد اكتشفنا أن مصدر هذه الأوراق المزورة هو غربي لندن، حيث يقوم شخص ذو مكانة اجتماعية رفيعة بتوزيعها هناك، وهم يهربونها إلى أوروبا أيضاً. ثمة شخص معين يثير اهتمامنا كثيراً، واسمه الميجر ليدلو... ربما سمعتما باسمه؟

قال تومي: نعم. إن له علاقة بسباقات الخيل، أليس كذلك؟

- بلى؛ إنه معروف جداً في مجال سباقات الخيل. والواقع أننا لا نملك أي دليل ضده، لكن هناك انطباعاً عاماً بأنه بارع جداً في بعض الصفقات المشبوهة، وبعض الرجال المطّلعين تظهر عليهم علامات غريبة عندما يُذكر اسمه. لا أحد يعلم عن ماضيه الكثير، وله زوجة فرنسية جميلة تُشاهَد في كل مكان ووراءها جيش من المعجبين. لا بد أن ليدلو وزوجته ينفقان الكثير من الأموال وأريد أن أعرف من أين تأتي.

قال تومي: ربما من جيش المعجبين.

- هذه هي الفكرة السائدة، لكني لست متأكداً من ذلك. قد تكون مجرد مصادفة، لكن الكثير من الأوراق النقدية المزورة كانت تأتي من نادي قمار صغير يرتاده ليدلو وزوجته وطاقمهما كثيراً.

طاقم السباق أو القمار هذا يتخلص من كثير من النقود المزورة، ولا يمكن أن توجد طريقة أفضل من هذه لتداولها.

- وما هو دورنا في هذا العمل؟

- إن سيث فينسينت الشاب وزوجته صديقان لكما كما علمت، أليس كذلك؟ وهما على علاقة قوية مع مجموعة ليدلو، ومن خلالهما سيسهل عليكما العثور على موضع قدم لكما في نفس المجموعة بطريقة لا يستطيعها أحد من الشرطة. ومن غير المحتمل كشف أمركما؛ ستكون فرصتكما مثالية.

- وما الذي تريد منّا اكتشافه بالضبط؟

- نريد أن نعرف من أين يحصلون على هذه النقود إن كان عملهم هو تمريرها.

قال تومي: تماماً. الميجر ليدلو يخرج ومعه حقيبة فارغة، وعندما يعود تكون مكدّسة بأوراق النقد. كيف يحدث هذا؟ أقوم بمتابعته حتى أكتشف الحقيقة. هل هذه هي الفكرة؟

- تقريباً. ولكن لا تهمل السيدة وأباها السيد هيروليد؛ تذكّر أن الأوراق النقدية يتم تمريرها إلى إنكلترا ومنها دخولاً وخروجاً.

صاح تومي موبّخاً: يا عزيزي ماريوت، إن وكالة التحريات الدولية لا تعرف معنى كلمة إهمال!

نهض المفتش وقال: أتمنى لكما حظاً طيباً.

* * *

بعدما غادر المفتش قالت توبنس بحماسة: آه، نقود مزيفة! هذه قضية من قضايا إدغار والاس. لقد أصبحنا مشغولَين أخيراً.

- نعم، وسوف نخرج لمطاردة مزيّفي العملية ونتال منهم بالتأكيد.

قالت توبنس: سوف أستمتع بهذه القضية ففيها حفلات كثيرة، وسأشتري غداً صبغاً أسود لرموشي.

- ولكن رموشك سوداء أصلاً.

- أريدها أن تكون أكثر سواداً!

- توبنس، إن لديك ميلاً إلى التبذّل، ومن لطف الأقدار بك أنك تزوجت رجلاً وَقوراً مثلي.

- على رسلك، فعندما تذهب إلى نادي باثيون لن تكون وقوراً.

- هيّا نبدأ الآن. إننا نطاردك أيها المزيّف ولا بد أن ننال منك.

* * *

ثبت أن التعارف بالسيد ليدلو وزوجته عمل سهل؛ فقد انضم تومي وتوبنس (الشابان الأنيقان المتحمسان الثريان ظاهراً) إلى تلك الزمرة التي تحيط بليدلو وزوجته في الحال.

كان الميجر ليدلو طويل القامة أبيض البشرة ذا مظهر إنكليزي

تقليدي وروح رياضية مرحة، وكانت نظراته الجانبية السريعة مناسبة لشخصيته المفترَضة على نحو غريب. كان لاعب ورق بارعاً، وقد لاحظ تومي أنه نادراً ما يغادر الطاولة خاسراً عندما يرتفع الرهان.

وكانت زوجته مارغريت ذات شخصية مختلفة عنه تماماً؛ كانت امرأة فاتنة نحيلة ووجهها كأنه لوحة مرسومة، وكانت لهجتها الأجنبية في النطق بالإنكليزية لطيفة ساحرة، لذلك لم يتعجب تومي أن يُفتَن بها معظم الرجال. وقد بدا منذ البداية أنها تميل إلى تومي، وقام هو بدوره فسمح لنفسه بالانخراط في حاشيتها. وكانت تقول: "لا أستطيع التحرك من غير تومي بالتأكيد... إن شعره بلون شمس الغروب"! أما والدها فكان شخصية أكثر شراً، مع أنه يبدو منضبطاً جداً ومستقيماً جداً بلحيته الصغيرة السوداء وعينيه اليقظتين.

كانت توبنس هي البادئة في تحقيق تقدم. جاءت إلى تومي بعشر أوراق نقدية فئة الجنية الواحد وقالت: انظر إلى هذه. إنها مزيفة، أليس كذلك؟

تفحصها تومي وأكّد على رأي توبنس، ثم سألها: من أين حصلت عليها؟

- ذلك الولد جيمي فوكنر. أعطتها له مارغريت ليراهن على حصان لصالحها، ثم طلبت منه أن يصرف لي ورقة من فئة العشرة جنيهات فأعطاني هذه النقود.

قال تومي متأملاً: كلها جديدة تماماً ولم تتناقلها الأيدي كما أرى. أظن أن فوكنر شاب مستقيم؟

- جيمي؟ آه، إنه رائع ولا غبار عليه.

* * *

من بين حاشية المعجبين بالسيدة ليدلو كان هناك رجل بسيط لكنه ثري إلى أبعد حد اسمه هانك رايدر، والسيد رايدر هذا من ألاباما، وكان قد مال -منذ البداية- إلى عقد صداقة مع تومي والثقة به.

قال السيد رايدر وهو يرمق مارغريت الجميلة بعين الإعجاب: إنها امرأة رائعة يا سيدي؛ رفيعة الذوق والتفكير. إنك لا تستطيع هزيمة الجمال الفرنسي، أليس كذلك؟ عندما أكون بقربها أشعر بمدى بشاعتي إزاءها.

ولأن تومي وافقه على هذه العواطف والمشاعر بأدب فقد أفضى إليه السيد رايدر بالمزيد: يبدو أمراً مخزياً أن تواجه امرأة جميلة كهذه مشكلة مالية.

- أحقاً؟

- أنت لا تدري الحياة التي تعيشها. إن ليدلو رجل غريب، وهي تخاف منه كثيراً، هي قالت لي ذلك. إنها لا تجرؤ على إخباره بديونها الصغيرة.

- أهي ديون صغيرة فعلاً؟

- حسناً... ليست بالصغيرة. المرأة تحتاج إلى ثياب، وكلما قلّت هذه الثياب كلما ازدادت قيمتها، هذه هي الطريقة التي أتصورها. كما أن امرأة جميلة مثلها لا يمكن أن ترضى بأن تخرج بثياب الموسم

الماضي. واللعب أيضاً... إن هذه المسكينة غير محظوظة باللعب؛ لقد خسرت معي خمسين جنيهاً في الليلة الماضية.

قال تومي بجفاء: لقد ربحت مني جنيه من جيمي فوكثر في الليلة قبل الماضية.

- أحقاً؟ هذا يريحني قليلاً. على فكرة، يبدو أن كثيراً من النقود المزيفة يتم تداولها في بلدكم الآن. لقد أودعت بعض النقود في مصرفي هذا الصباح فكانت خمس وعشرون ورقة منها مزيفة. هذا ما أعلمني به موظف البنك المؤدب.

- هذه نسبة كبيرة. هل كانت تبدو جديدة؟

- جديدة ومصقولة كما تخرج بعد صكّها، وقد كانت الأوراق التي دفعتها السيدة ليدلو لي. لا أدري من أين حصلَت عليها، أغلب الظن أن واحداً من أولئك المجرمين في حلبة السباق هو الذي دفعها لها.

- نعم، هذا هو المرجّح.

- أتعرف يا سيد بيرسفورد، أنا جديد على هذا النوع من الحياة الأرستقراطية، وسوف تكون ثروتي قد نقصت كثيراً عندما أعود. لقد جئت إلى أوروبا لأرى الحياة.

أومأ تومي برأسه، وفكر في نفسه بأن السيد رايدر سوف يدفع -بمساعدة مارغريت ليدلو- ثمناً باهظاً مقابل ذلك.

وفي غضون هذا الحديث كان قد أمسك بدليل للمرة الثانية

على أن الأوراق المزيفة يتم توزيعها في مكان قريب جداً منه، وأن الاحتمال الغالب هو أن لمارغريت ليدلو يداً في توزيعها وتداولها.

* * *

في الليلة التالية حصل هو بنفسه على دليل.

كان ذلك في النادي الذي ذكره المفتش ماريوت، حيث ملتقى النخبة. وكانت هناك حفلة، لكن الأهمية الحقيقية للمكان كانت تكمن وراء باب فخم ذي مصراعين متأرجحين، فقد كانت هناك غرفتان فيهما طاولات قمار مغطاة بقماش أخضر اللون تشهد يومياً تداول مبالغ كبيرة من الأموال بين أيدي المقامرين.

عندما أرادت مارغريت ليدلو الخروج في نهاية الأمر دفعت بكمية من الأوراق النقدية من الفئة الصغيرة بين يدي تومي وهي تقول: يصعب حمل كل هذه الأوراق يا تومي، فهل لك أن تبدلها لي؟ أرجوك أن تحصل لي على أوراق من فئة كبيرة. انظر إلى حقيبتي الصغيرة الجميلة... إنها منتفخة من النقود.

أحضر لها تومي ورقة المئة جنيه التي طلبتها، ثم تفحص النقود التي أعطتها له في زاوية منعزلة فوجد ربع الأوراق على الأقل مزيّفاً. ولكن من أين كانت تحصل على هذه النقود؟ لم يكن لديه جواب على هذا السؤال. وبالتعاون مع ألبرت كان متأكداً تقريباً من أن ليدلو ليس هو الرجل المطلوب، فقد راقب ألبرت تحركاته عن قرب ولم تسفر عن أية نتيجة.

شكّ تومي في والدها ذي المزاج المكفهرّ، فقد كان يسافر إلى

فرنسا ويرجع كثيراً جداً. ما الذي يمكن أن يكون أبسط من أن يحضر النقود معه في مكان خفي من صندوق السيارة أو مثل ذلك؟

خرج تومي من النادي الليلي بخطوات متثاقلة وهو مستغرق في هذه الأفكار، ولكن استوقفته فجأة ضرورة فورية. فخارج النادي وفي الشارع كان هناك السيد هانك رايدر، وقد اتضح على الفور أن السيد رايدر كان ثملاً، فقد رآه في تلك اللحظة وهو يحاول تعليق قبعته على مرآة السيارة، وقد أخطأت يده عدة مرات في إصابة هدفها.

قال السيد رايدر حزيناً: تباً لحمّالة القبعات هذه! إنها لا تشبه الحمّالات في الولايات المتحدة. هناك يستطيع الرجل تعليق قبعته كل ليلة، كل ليلة يا سيدي. إنك تضع قبعتين على رأسك. لم أر رجلاً يضع قبعتين على رأسه من قبل. لا بد أنه بفعل الجو.

قال تومي بهدوء: ربما كنتُ ذا رأسين.

- نعم، لك رأسان. هذا غريب، إنها حقيقة جديرة بالملاحظة. لنشرب كأساً من الشراب. أظن أنني ثمل، ثمل جداً! لقد خلطَت لي كل أنواع الشراب... أعني مارغريت... كل الأنواع. قالت إنني لا أستطيع شربها، قلت: إلى الجحيم...

قاطعه تومي وهو يقول مهدّئاً: لا بأس، لا بأس. هل آخذك إلى بيتك؟

ردّ عليه السيد رايدر بحزن: ليس لي بيت أذهب إليه.

ثم بكى، فسأله تومي: ما اسم الفندق الذي تقيم فيه؟

- لا أستطيع الذهاب إلى البيت. البحث عن الكنز... إنه عمل رائع. هي التي فعلته في وايتشابل.

لكن السيد رايدر صار فجأة رجلاً وقوراً، فتماسك وتكلم فجأة بنبرة آمرة: أيها الشاب، اسمع مني. لقد أخذتني مارغريت في سيارتها للبحث عن الكنز. كل الأرستقراطيين الإنكليز يفعلون ذلك. تحت كتل الفحم... خمسمئة جنيه. فكرة ذكية... إنها فكرة ذكية. اسمعني أيها الشاب، فقد كنت لطيفاً معي...

قاطعه تومي هذه المرة بأسلوب أقل احتفاء: ما الذي تقوله؟ السيدة ليدلو أخذتك في سيارة؟

أومأ الأمريكي برأسه بوقار، فسأله تومي: إلى وايتشابل؟

ومرة أخرى أومأ بالإيجاب.

- وهل وجدت هناك خمسمئة جنيه؟

حاول السيد رايدر البحث عن كلمات فقال مصححاً لسائله: هي التي وجدَت. تركتني في الخارج، خارج الباب. دائماً تتركني في الخارج، هذا عمل مؤسف. في الخارج... دائماً في الخارج.

- هل تعرف الطريق إلى هناك؟

- نعم. هانك رايدر لا يتوه.

سحبه تومي معه بفظاظة. وجد سيارته في مكانها، فركباها وانطلقا في الحال باتجاه الشرق. أنعش الهواء البارد السيد رايدر، وبعد أن سقط فجأة على كتف تومي في نوع من السبات أفاق من

سكرته صافي الذهن منتعشاً. قال: قل لي يا فتى، أين نحن الآن؟

قال تومي بسرعة: وايتشابل. هل هذا هو المكان الذي جئت إليه الليلةَ مع السيدة ليدلو؟

اعترف السيد رايدر وهو ينظر حوله قائلاً: يبدو مكاناً مألوفاً. يبدو لي أننا انعطفنا إلى اليسار في مكان ما هنا. ذاك هو... ذلك الشارع.

استدار تومي طائعاً بينما كان السيد رايدر يصدر تعليماته: هذا هو، إنني متأكد. ثم إلى اليمين... أليست الروائح مُقرِفة؟ نعم، بعد تلك الحانة التي عند الزاوية، استدر استدارة حادة وتوقف عند مدخل ذلك الزقاق الصغير. ولكن ما هو الهدف من ذلك؟ هل تركوا وراءهم بعض النقود؟ هل ستدبر لهم نكتة؟

- بالضبط، سوف نصنع ذلك.

- عمل رائع! بالرغم من أنني حائر قليلاً إزاء هذا الأمر.

نزل تومي من السيارة وساعد السيد رايدر على النزول منها، ثم سارا في الزقاق. كان على اليسار صف من البيوت الخربة لمعظمها أبواب مفتوحة على الزقاق، وتوقف السيد رايدر أمام أحد هذه البواب وقال: من هنا دخلت، من هذا الباب... أنا واثق من هذا.

قال تومي: كلها تبدو متشابهة؛ إنها تذكرني بقصة الجندي والأميرة. أتذكر عندما وضعوا إشارة على الباب ليستدلوا عليه. هل نقوم بالشيء نفسه؟

أخرج من جيبه قطعة من الطباشير وهو يضحك ورسم إشارة على الباب من أسفل، ثم رفع عينيه إلى أشباح مختلفة تقفز على الجدران وكان أحدها يصيح بصوت مروع. قال مبتهجاً: يوجد كثير من القطط في المكان.

سأله السيد رايدر: ما هو الإجراء؟ هل ندخل الباب؟

- سندخل بعد أخذ الاحتياطات المناسبة.

تفحص تومي الزقاق بنظره ثم حاول فتح الباب بهدوء. فُتح الباب بسهولة وأطلّ تومي برأسه على ساحة مظلمة، ثم عبر الباب دون ضجة ودخل السيد رايدر على إثره.

قال السيد رايدر: يا إلهي! هناك رجل قادم في الزقاق.

ثم انسلّ إلى الخارج. وقف تومي ساكناً بعض الوقت، وعندما لم يسمع شيئاً تابع عمله. أخرج من جيبه مصباحاً صغيراً وأضاءه بضع لحظات كانت كافية ليرى الطريق أمامه، ثم تقدم إلى الأمام وحاول فتح الباب المغلق الذي أمامه فَفُتح بهدوء ودخل منه.

بعد أن وقف ساكناً مصغياً لبعض الوقت أضاء المصباح مرة أخرى، ومن خلال هذا الضوء بدا له وكأن المكان كله قد نهض في وجهه! رجلان أمامه ورجلان خلفه اقتربوا نحوه وأطبقوا عليه. وصاح أحدهم مزمجراً: أشعلوا النور.

أضيء مصباح غاز متوهج، ورأى تومي من خلال هذا الضوء دائرة من الوجوه الكريهة. نظر حوله إلى الغرفة ولاحظ بعض

الأغراض الموجودة فيها، ثم قال بشيء من المرح: آه! إنه وكر صناعة التزييف إن لم أكن مخطئاً.

صاح أحد الرجال: أغلق فمك.

فُتح الباب وأغلق وراء تومي، ثم تكلم صوت لطيف معروف: لقد أمسكناه يا شباب، هذا جيد. حسناً يا سيد فضولي، دعني أخبرك بأنك في ورطة كبيرة الآن.

قال تومي: مَن؟ السيد هانك رايدر؟ يا لها من مفاجأة!

- لقد كنت أخدعك طوال هذا المساء لأقودك إلى هنا كالطفل الصغير، بينما كنت أنت مسروراً من ذكائك. لقد شككتُ بك منذ البداية، فأنت لم تأت مع الجماعة للترفيه عن نفسك. لكنني تركتك تمثل أمامنا لبعض الوقت، وعندما أصبحتَ تشك في مارغريت الجميلة شكوكاً حقيقية قلت في نفسي: هذا هو الوقت المناسب لاصطياده. أعتقد أن أصدقاءك لن يروك قبل مضي وقت طويل.

- هل ستؤذيني؟ أعتقد أن هذه هي الكلمة الصحيحة، أليس كذلك؟

- أنت شجاع بالتأكيد. لا، لن نجرب العنف معك، بل سنبقيك رهن الاعتقال فقط.

قال تومي: أخشى أنكم تراهنون على الحصان الخاسر؛ فليست لدي أية نية للبقاء رهن الاعتقال، كما تسميه.

ابتسم السيد رايدر ابتسامة لطيفة، وصاحت قطة في الخارج صيحة كئيبة.

- هل تعتمد على تلك الإشارة التي رسمتَها على الباب؟ لو كنت مكانك لما فعلت، فأنا أعرف تلك القصة التي أشرتَ إليها؛ لقد سمعتها عندما كنت صبياً صغيراً. ولذلك رجعت إلى الزقاق مرة أخرى لأمثل دور المراقب ذي العينين الكبيرتين، وإذا ما خرجتَ إلى الزقاق الآن فسوف تلاحظ أن كل باب في الزقاق عليه نفس العلامة التي رسمتَها أنت.

خفض تومي رأسه جزعاً، وقال رايدر: كنت تظن أنك ذكي، أليس كذلك؟

وعندما قال تلك الكلمات سُمعت دقات حادة على الباب.

صاح مرعوباً: ما هذا؟

وفي نفس الوقت كان يجري اقتحام الباب الأمامي للبيت، أما الباب الخلفي فكان ضعيفاً، وقد فُتح القفل على الفور وظهر المفتش ماريوت عند المدخل.

قال تومي: أحسنت صنعاً يا ماريوت، لقد كنتَ محقاً تماماً في موضوع المنطقة. أريدك أن تتعرف على السيد هانك رايدر الذي سيحكي لك كل قصص التزييف.

ثم أضاف بهدوء: كما ترى يا سيد رايدر، لقد شككت فيك؛ لذلك كلفت ألبرت بأن يتبعني على دراجته النارية إذا ما خرجت معك في السيارة في أي وقت من الأوقات. وبينما كنت أقوم ظاهرياً برسم العلامة على الباب لكي أشغل انتباهك أفرغت أيضاً زجاجة صغيرة من الناردين على الأرض. إن رائحته كريهة لكن القطط

تحبها، وهكذا فإن كل القطط في المنطقة قد تجمعت في الخارج لتحدد البيت المطلوب عندما يصل ألبرت مع الشرطة.

نظر إلى السيد رايدر المصعوق بابتسامة ثم نهض قائلاً: لقد قلتُ إنني سأنال منك أيها المزيّف، وها أنا قد فعلت.

ثم نظر حوله وهو يبتسم، وقال مرحاً: كل شيء تم دون عناء. تصبح على خير يا ماريوت.



الفصل العاشر
لغز سانْغديل

- هل تعرفين أين ستتغدى اليوم يا توبنس؟

فكّرت توبنس في السؤال ثم قالت تُخمّن: مطعم ريتز؟

- فكّري ثانية.

- في ذلك المطعم الصغير الجميل في سوهو؟

قال تومي بنبرة دلّت على أنه جاد فيما يقول: لا هذا ولا ذاك، بل في واحد من المطاعم الشعبية المتواضعة.

بعد قليل كانا يدخلان برشاقة إلى مطعم متواضع من الصنف الذي أشار إليه، ثم توجها إلى طاولة من الرخام عند الزاوية. قال تومي راضياً وهو يجلس: رائع؛ لا يمكن أن يوجد مكان أفضل من هذا.

- لماذا انتابك هذا الحب المفاجئ لحياة البساطة؟

- إنك تنظرين يا توبنس، لكنك لا تلاحظين... لو فكّرتِ لعرفتِ. حسناً، تُرى هل ستتنازل واحدة من أولئك النادلات

المتغطرسات وتنتبه إلينا؟ رائع، إنها قادمة. صحيح أنها تبدو وكأنها مشغولة بشيء آخر لكن عقلها الباطن يعمل دون شك، وهو مشغول بأمور مثل اللحم والبيض وأباريق الشاي... من فضلك يا آنسة، نريد شرائح لحم وبطاطا مقلية وفنجان قهوة كبيراً وخبزاً وزبدة وطبقاً من اللسانات للسيدة.

رددت النادلة الطلب بنبرة استخفاف، لكن توبنس مالت إلى الأمام فجأة وقاطعتها قائلة: لا، لا نريد شرائح لحم وبطاطا مقلية. هذا الرجل سيأخذ كعكة الجبنة وكوباً من الحليب.

قالت النادلة بلهجة أكثر استخفافاً: كعكة جبنة وكوب حليب.

ثم مضت وهي ما تزال تفكر في شيء آخر، فقال تومي ببرود: لم يكن ذلك ضرورياً.

- لكنني على حق، أليس كذلك؟ أنت تمثل اليوم دور «الرجل العجوز في الزاوية»، أليس هذا صحيحاً؟ أين خيطك؟

أخرج تومي من جيبه خيطاً طويلاً مجدولاً وبدأ يعقد فيه عقدتين، ثم قال: كل شيء جاهز حتى أدق التفاصيل.

- ومع ذلك فقد وقعت في خطأ صغير في طلب الوجبة.

- إن النساء حرفيّات جداً في تفكيرهن! إنْ كان هناك شيء أكرهه فهو شرب الحليب، كما أن كعكة الجبنة تكون صفراء جداً دائماً.

قالت توبنس: عليك أن تكون محترفاً في تمثيلك! والآن راقبني وأنا آكل اللسان البارد، فهو طيب المذاق جداً. وبعد ذلك سأكون على استعداد لأمثل دور الآنسة بولي بيرتون. عليك أن تعقد عقدة كبيرة ثم ابدأ بعد ذلك.

- قبل أي شيء دعيني أوضح شيئاً. إن عملنا لا يلقى رواجاً كبيراً في الفترة الأخيرة، فإذا لم يأتنا العمل فيجب أن نذهب نحن إليه. لنستخدم عقولنا في حل أحد أكبر الألغاز انتشاراً بين الناس في هذه اللحظة، وهذه يوصلني إلى النقطة التي أريدها... لغز سانتغديل.

قالت توبنس باهتمام كبير: آه، لغز سانتغديل!

أخرج تومي من جيبه قطعة مجعدة من صحيفة فوضعها على الطاولة ثم قال: هذه آخر صورة للكابتن سيسل كما ظهرت في صحيفة الديلي ليدر.

- لا أدري لماذا لا يقيم الناس دعاوى على هذه الصحف في بعض الأوقات. إنك لا تعرف من هذه الصورة إلا أن صاحبها رجلٌ لا غير!

أكمل تومي يقول بسرعة: عندما قلت «لغز سانتغديل» كان يجب أن أقول «ما يسمى لغز سانتغديل»، فربما كان لغزاً بالنسبة للشرطة لكنه ليس كذلك بالنسبة لصاحب عقل ذكي.

- اربط عقدة أخرى.

أكمل تومي بهدوء: لا أعرف مقدار ما تتذكرينه من القضية.

- كلها، لكني لا أريد كبح رغبتك في سردها.

- كان هذا قبل ثلاثة أسابيع فقط عندما تم ذلك الاكتشاف الرهيب في ملعب الغولف الشهير، فقد ارتاع اثنان من أعضاء النادي كانا يستمتعان باللعب في جولةٍ مبكرة عندما اكتشفا جثةَ رجل منكبٍّ على وجهه عند النقطة السابعة من نقاط ضرب الكرة. وحتى قبل أن يقلبا الجثة على ظهرها عرفا أنها جثة الكابتن سيسل، وهو شخصية معروفة جيداً في ملاعب الغولف وكان دائماً يرتدي معطف غولف بلون أزرق فاتح غريب. وكثيراً ما كان الكابتن سيسل يُشاهَد في ملعب الغولف في وقت مبكر من الصباح وهو يتمرن، وقد ساد الاعتقاد في البداية بأنه تعرض لأزمة قلبية صرعته فجأة، لكنِ فحص الطبيبِ كشف الحقيقة المخيفة بأنه مات مقتولاً، حيث طُعِنَ في القلب بأداة ذات مغزى، وهي دبوس شعر طويل مما تستخدمه المرأة عادة لتثبيت قبعتها على رأسها. كما اكتُشف أيضاً أنه قُتل قبل اثنتي عشرة ساعة من اكتشاف جثته على الأقل. لقد أضاف هذا إلى المسألة عقدة مختلفة تماماً، وسرعان ما تكشفت بعض الحقائق المثيرة، فقد كان آخرَ شخص رأى الكابتن سيسل على قيد الحياة عملياً هو صديقُه وشريكه السيد هولاباي، وكانا يمتلكان شركة بوركيوباين للتأمين على الحياة، وكانت روايته كما يلي:

لعب جولة مع سيسل في وقت مبكر من النهار، وبعد تناول الشاي عصراً اقترح عليه سيسل لعب المزيد من الجولات قبل حلول الظلام، فأذعن هولاباي لطلبه، وقد بدا سيسل في معنويات مرتفعة وفي أتم صحة. وكان هناك ممشى يقطع ملعب الغولف، وعندما كانا يلعبان عند الحفرة السادسة لاحظ هولاباي امرأة قادمة تسير

على الممشى. كانت طويلة القامة جداً وترتدي ثوباً بني اللون، لكنها لم تلحظه على وجه الخصوص، كما أنه اعتقد بأن سيسل لم يلحظها أيضاً.

كان ذلك الممشى يقطع الملعب أمام النقطة السابعة من نقاط ضرب الكرة، وكانت المرأة قد عبرت من جانب تلك النقطة ووقفت عند الجانب البعيد وكأنها تنتظر أحداً. كان الكابتن سيسل أول من وصل إلى النقطة بينما كان السيد هولاباي يستبدل العلَم الصغير في حفرة الغولف، وحينما اقترب من النقطة السابعة أصيب بالذهول عندما وجد سيسل والمرأة يتحدثان معاً، وعندما اقترب أكثر التفتا إليه فجأة وصاح سيسل وهو ينظر إلى الوراء قائلاً لصديقه: لن أتأخر إلاّ للحظات.

ثم سار الاثنان جنباً إلى جنب مبتعدَين وهما مستغرقان في حديث جاد، وهناك كان الممشى يبتعد عن الملعب ويمر بين سياجين ضيقين لحدائق مجاورة لينتهي عند الطريق المؤدي إلى ويندلشام. التزم الكابتن سيسل بكلمته وعاد بعد دقيقة أو دقيقتين مما أسعد هولاباي كثيراً، فيما كان لاعبان آخران يتقدمان خلفهما، وكان ضوء النهار يخفت بسرعة انطلقا لإكمال اللعب بسرعة. ولاحظ هولاباي على الفور أن شيئاً قد حدث وأزعج رفيقه؛ فلم تكن ضربات الغولف التي ضربها متقنة كما هي عادته كما أنه كان مهموماً مقطَّب الجبين، وكان لا يكاد يجيب على ملاحظات رفيقه وكان لعبه رديئاً. من الواضح أن شيئاً قد حدث وصده عن اللعب تماماً.

لعبا حتى الحفرة الثامنة، ثم قال الكابتن سيسل فجأة إن ضوء

النهار قد تلاشى وإنه يريد العودة إلى البيت. في ذلك المكان بالذات كان يوجد طريق آخر من تلك الطرق الترابية المنحدرة المؤدية إلى طريق ويندلشام، فذهب الكابتن سيسل من ذلك الطريق، وهو طريق مختصر إلى بيته الذي كان عبارة عن كوخ صغير على ذلك الطريق. وجاء اللاعبان الآخران وهما الميجر بيرنارد والسيد ليكي فذكر السيد هولاباي لهما التغير المفاجئ الذي طرأ على حال الكابتن سيسل. وهما أيضاً شاهداه وهو يتحدث مع المرأة ذات الثوب البني لكنهما لم يكونا قريبين بما يكفي لرؤية وجهها، وقد احتار الثلاثة مما يمكن أن تكون تلك المرأة قد قالته حتى ينزعج منه صديقهما إلى ذلك الحد. ثم عاد الثلاثة معاً إلى مبنى النادي كالمعتاد، وكان هؤلاء الثلاثة آخر من شاهد الكابتن سيسل حياً.

كان ذلك يومَ أربعاء، وفي أيام الأربعاء تباع تذاكر مواصلات رخيصة إلى لندن. لذا فقد ذهب الرجل وزوجته اللذان يقومان على خدمة الكابتن سيسل إلى المدينة كشأنهما دائماً ولم يعودا إلاّ في آخر قطار، فدخلا البيت كالعادة معتقدَين أن سيدهما نائم في غرفته وحيداً بعد أن سافرت زوجته في زيارة.

بقي مقتل الكابتن محيراً مدة تسعة أيام ولم يستطع أحد تخمين دافع للجريمة، وقد تم بحث هوية المرأة الطويلة ذات الثوب البني بحماسة شديدة ولكن بلا نتيجة. وكالعادة فقد وقع اللوم على الشرطة لفتور همتها وتراخيها، وهو حكم غير عادل كما تبين بمرور الوقت، لأنه بعد أسبوع اعتُقلت فتاة تدعى دوريس إيفانز ووُجهت إليها تهمة قتل الكابتن أنتوني سيسل.

لم يكن لدى الشرطة إلا القليل من الأدلة ليعملوا بموجبها؛ فقد وُجدت خصلة من شعر أشقر بين أصابع الرجل القتيل وبعض خيوط الصوف بلون اللهب وجدت عالقة في أحد أزرار معطفه الأزرق، وأظهرت التحقيقات الحثيثة في محطة القطارات وأماكن أخرى الحقائق التالية: وصلت فتاة شابة ترتدي معطفاً من الصوف بلون اللهب في قطار مساء ذلك اليوم في الساعة السابعة تقريباً وسألت عن الطريق إلى بيت الكابتن سيسل، ثم عادت الفتاة وظهرت في المحطة بعد ساعتين. كانت قبعتها منحرفة وشعرها أشعث وبدت في حالة من الهيجان الشديد، وقد سألت عن مواعيد القطارات التي تعود إلى المدينة وكانت تنظر باستمرار إلى ما وراءها وكأنها تخشى شيئاً.

إن جهاز شرطتنا رائع في مجالات عديدة؛ فبهذا الدليل الضعيف نجح في اقتفاء أثر الفتاة وتعرّف على هويتها. ظهر أنها فتاة تدعى دوريس إيفانز، وقد اتُّهِمت بالقتل وتم تحذيرها من أن أي شيء تقوله قد يستخدم دليلاً ضدها، لكنها -رغم ذلك- أصرّت على الإدلاء بتصريح، وقد كررت ذلك التصريح بالتفصيل وبلا تغيير أثناء الإجراءات اللاحقة. كانت روايتها كالتالي: كانت تعمل طابعة، وقد تعرفت ذات مساء في إحدى دور السينما على رجل أنيق الملبس صارحها بإعجابه بها وقال لها إن اسمه أنتوني، واقترح عليها أن تزوره في بيته الصغير في سانتغديل. لم تكن تعرف وقتها أو في أي وقت أنه كان متزوجاً، وقد اتفقا على الزيارة في يوم الأربعاء التالي، وهو اليوم الذي يكون فيه الخادم وزوجته غائبين وتكون زوجته خارج البيت. وفي نهاية اللقاء أخبرها أن اسمه الكامل هو أنتوني سيسل وأعطاها عنوان بيته.

وصلت إلى البيت في الوقت المحدد واستقبلها سيسل الذي كان قد وصل من ملعب الغولف لتوه، وبالرغم من أنه عبّر عن سروره برؤيتها إلا أن سلوكه كان غريباً ومختلفاً منذ البداية كما قالت الفتاة. وقد ثار في نفسها خوف مبهم، وتمنت لو أنها لم تذهب أصلاً. وبعد أن تناولا وجبة خفيفة كانت مجهّزة من قبل اقترح عليها سيسل الخروج للمشي، فوافقت الفتاة وخرجا من البيت إلى الطريق، ثم عبرا الطريق الترابي الضيق إلى حيث ملعب الغولف. وفجأة وعندما كانا يعبران النقطة السابعة من نقاط ضرب الكرة بدا وكأنه قد أصيب بالجنون التام؛ فأخرج من جيبه مسدساً ولوح به في الهواء معلناً أنه فقد صبره وأن الأمر قد وصل به إلى منتهاه، وقال لها: يجب أن ينتهي كل شيء! لقد تحطمتُ... هلكتُ. وأنتِ يجب أن تذهبي معي؛ سأقتلك أولاً ثم أقتل نفسي، وسوف يجدون جثتينا هنا في الصباح جنباً إلى جنب... معاً في الموت.

ردد كثيراً من مثل هذا الكلام وقد أمسك دوريس إيفانز من ذراعيها، أما هي فقد أدركت أنها يجب أن تقاوم رجلاً مجنوناً، فقامت بجهود حثيثة للإفلات منه أو انتزاع المسدس من يده على الأقل. تعاركا، وفي أثناء ذلك العراك لا بد أنه انتزع بعضَ شعرِ رأسها وعَلِقَ صوفُ معطفها بأحد أزرار معطفه. وأخيراً وفي جهد يائس استطاعت تحرير نفسها وركضت لتنجو بنفسها عبر ملعب الغولف وهي تتوقع أن يطلق عليها النار في أية لحظة من مسدسه، وقد سقطت على الأرض مرتين، لكنها وصلت في النهاية إلى الطريق الموصل إلى المحطة وأدركت حينها أن أحداً لم يكن يتبعها.

هذه هي القصة التي ترويها دوريس إيفانز والتي لم تغيرها أبداً،

وهي تنكر بقوة أنها قد طعنته بدبوس قبعتها دفاعاً عن النفس... مع أن هذا أمر طبيعي في مثل هذا الموقف، وهو أمر ربما حدث فعلاً. وتدعيماً لأقوالها وجد الشرطة مسدساً بين الأشجار قرب الجثة، ولم تكن قد خرجت منه أية طلقة. وقد تم تحويل دوريس إيفانز إلى المحاكمة، لكن اللغز يظل لغزاً. إذا أردنا تصديق روايتها فمَن يكون الذي طعن الكابتن سيسل؟ هل هي المرأة الأخرى، المرأة الطويلة ذات الثوب البني التي أزعجه حضورها؟ حتى هذه اللحظة لم يفسّر أحدٌ صلتَها بالقضية، فقد ظهرت فجأة على الممشى دون أن يدري أحد من أين جاءت، ثم اختفت على المنحدر ولم يسمع أحد عنها بعد ذلك. مَن هي؟ أهي من سكان المنطقة أم هي زائرة من لندن؟ وإن كانت كذلك فهل جاءت بسيارة أم بقطار؟ لم يكن فيها ما يلفت النظر سوى طولها، حيث لم يستطع أحد إعطاء أوصافها. لا يمكن أن تكون دوريس إيفانز لأن دوريس إيفانز قصيرة القامة وشقراء كما أنها كانت في تلك اللحظة قد وصلت إلى المحطة لتوها.

اقترحت توبنس قائلة: الزوجة؟ ماذا عن الزوجة؟

- اقتراح طبيعي جداً، لكن السيدة سيسل قصيرة القامة هي الأخرى، كما أنها معروفة لدى السيد هولاباي، ولا يبدو ثمة شك في أنها كانت بعيدة عن البيت تماماً. ثم وقع تطور آخر، فقد كانت شركة بوركيوباين للتأمين على الحياة تحت التصفية وكشفت الحسابات عن وجود سوء تصرف فظيع في أموال الشركة. وقد اتضحت الآن أسباب تلك الكلمات الهائجة التي قالها الكابتن سيسل لدوريس إيفانز، فلا بد أنه كان يختلس أموال الشركة منذ سنوات وبطريقة منتظمة. ولم يكن السيد هولاباي ولا ابنه يعرفان ما كان

يجري، وقد تحطما من الناحية العملية. القضية الآن كالتالي: كان الكابتن سيسل على وشك افتضاح أمره وتحطيم حياته، وقد يكون الانتحار حلاً طبيعياً، لكن طبيعة الجرح تستبعد هذه الفرضية. مَن الذي قتله؟ هل هي دوريس إيفانز؟ هل هي تلك المرأة الغامضة ذات الثوب البني؟

سكت تومي وارتشف قليلاً من الحليب فتقلصت قسمات وجهه امتعاضاً من طعمه، وقضم قضمة صغيرة من كعكة الجبن، ثم همس قائلاً: لو كنت أمثّل دوري بإتقان لعرفت على الفور أين هي العقدة في هذه القضية وأين أخطأ الشرطة.

قالت توبنس بحماسة: وما هي العقدة؟

هز تومي رأيه بأسف وقال: ليتني أعرف! من السهل أن يتقمص المرء دور الرجل العجوز الجالس في الزاوية، ولكن إلى حد معين. إن حل هذه اللغز يُحيّرني؛ مَن قتل الرجل؟ لا أدري.

ثم أخرج من جيبه مزيداً من قصاصات الصحف وقال: أدلة ووثائق أخرى... السيد هولاباي وابنه والسيدة سيسل ودوريس إيفانز.

انحنت توبنس تنظر إلى الصورة دوريس إيفانز لبعض الوقت ثم قالت أخيراً: إنها لم تقتله على أية حال، ليس بدبوس قبعة.

- وما سبب هذه الثقة؟

- حدس المرأة! إن شعرها قصير، وعلى أي حال فلن تجد في كل عشرين من النساء واحدةً تستخدم دبوس القبعة في هذه

الأيام... سواء أكان شعرها طويلاً أم قصيراً، فالقبعات تثبت على الرأس بإحكام ولا حاجة لمثل هذا الدبوس.

- لعلها حملت دبوساً من هذا النوع؟

- إننا لا نحتفظ بهذه الدبابيس كموروثات ثمينة! ولماذا عساها تُحضِر معها دبوس قبعة إلى سانتغديل؟

- إذن لا بد أن تكون المرأة الأخرى ذات الثوب البني.

- أتمنى لو لم تكن طويلة؛ إذ يمكن أن تكون الزوجة حينئذ. إنني أشتبه دائماً في الزوجات اللاتي يكُنّ خارج البيت وقت وقوع الجريمة بحيث لا يكون لهن أية علاقة بها. والزوجة لو وجدت زوجها يقيم علاقة غرامية مع تلك الفتاة فسيكون من الطبيعي أن تهاجمه بدبوس قبعة.

قال تومي مازحاً: إذن ينبغي أن أنتبه لنفسي.

لكن توبنس كانت مستغرقة في التفكير بحيث أعرضت عن الانجرار معه في المزاح. و فجأة سألته: كيف كان سيسل وزوجته؟ ماذا يقول الناس عنهما؟

- حسبما استنتجته كانا يتمتعان بشعبية واسعة، ويُفترَض أنهما كانا متفاهمَين ومتحابَّين. وهذا ما يجعل موضوع الفتاة غريباً جداً؛ إنه آخر شيء يمكن توقعه من رجل مثل سيسل. لقد كان عسكرياً سابقاً كما تعرفين، ومن الواضح أنه آخر إنسان يمكن أن نشك في أنه محتال.

- هل من المؤكد تماماً أنه كان هو المحتال؟ ألا يمكن أن يكون الاثنان الآخران هما مَن أخذ الأموال؟

- هولاباي وابنه؟ إنهما يقولان إنهما قد تحطما وأفلسا.

- آه، هما يقولان ذلك! ربما وضعا هذه النقود في البنك باسم آخر... أنت تعرف ما أعنيه. لماذا لا يكونان يضاربان في هذه النقود منذ فترة دون أن يدري سيسل بذلك ثم خسرا كل هذه الأموال؟ ربما كان من المناسب لهما أن يموت سيسل في الوقت الذي مات فيه.

ضرب تومي على صورة السيد هولاباي الأب بإصبعه وقال: إذن فأنت تتهمين هذا الرجل المحترم بقتل صديقه وشريكه؟ لقد نسيت انه افترق عن سيسل في ملعب الغولف على مرأى من بيرنارد وليكي وأنه أمضى الأمسية في دورمي هاوس، وإلى جانب ذلك هناك دبوس القبعة!

قالت توبنس وقد نفد صبرها: تباً لهذا الدبوس! هل تعتقد أن هذا الدبوس يشير إلى أن القاتل امرأة؟

- أمر طبيعي. ألا توافقينني الرأي؟

- لا. إن الرجال قديمو الطراز على نحو غريب، ويحتاج الأمر إلى عصور طويلة حتى يحرروا أنفسهم من الأفكار المسبقة؛ إنهم يقرنون دبابيس القبعات ودبابيس الشعر بالإناث ويسمّونها «أسلحة النساء»! ربما كانت كذلك في الماضي، لكنها صارت قديمة الآن. أنا لم أستخدم دبوس القبعة ولا دبوس الشعر منذ أربع سنوات.

- إذن هل تعتقدين...؟

- إن الذي قتل سيسل رجل، وقد استخدم دبوس القبعة ليبدو الأمر وكأن امرأة هي التي ارتكبت الجريمة.

قال تومي ببطء: لعل فيما تقوليه شيئاً من الصحة يا توبنس. أمر غريب كيف تتضح الأشياء وتترتب عندما يتحاور بشأنها أكثر من شخص.

أومأت توبنس وقالت: يجب أن يكون كل شيء منطقياً إذا نظرت إلى الأمر من المنظور الصحيح. إننا نعرف بعض الشيء عن أناس أمثال الكابتن سيسل وزوجته، نعرف ما الذي يمكن أن يفعلاه وما الذي لا يمكن أن يفعلاه، ولكل منا معرفته الخاصة.

ابتسم تومي وقال: هل تقصدين أنك حُجّة فيما يتعلق بما يمكن أن تمتلكه النساء ذوات الشعور القصيرة، وأنك تعرفين جيداً ما الذي يمكن أن تشعر به الزوجات أو تفعله؟

- شيء من هذا القبيل.

- وماذا عني؟ ما هي معرفتي الخاصة؟

- أنت تعرف الملعب؛ فقد كنت فيه... ليس كرجل تحرّ يبحث عن مفاتيح لحل لغز ولكن كلاعب غولف. أنت تعرف عن لعبة الغولف وتعرف ما الذي يجعل الرجل يترك لعبته.

- لا بد أن الذي جعل سيسل يترك اللعب أمر خطير. إنه لاعب متمرس، ومع ذلك فقد لعب كما يلعب الأطفال بعد نقطة الرمي السابعة، هذا ما يقولونه.

- من قال ذلك؟

- بيرنارد وليكي، وقد كانا يلعبان وراءه مباشرة إن كنت تذكرين.

- كان ذلك بعد أن التقى بالمرأة، المرأة الطويلة ذات الثوب البني. ألم يشاهداه وهو يتحدث معها؟

- نعم. على الأقل...

سكت، ورفعت توبنس بصرها نحوه فوجدته يحملق إلى الخيط الممدود بين أصابعه، لكنه كان يحملق بعينَي مَن يرى شيئاً مغايراً تماماً.

- تومي، ماذا هناك؟

- اهدئي يا توبنس. أنا أتخيل أنني ألعب الحفرة السادسة في سانتغديل، سيسل وهولاباي العجوز يضربان كرتهما عند النقطة السادسة أمامي، بدأ الظلام ينتشر لكني أستطيع أن أرى ذلك المعطف الأزرق الفاتح الذي يرتديه سيسل بوضوح، وعلى الممشى إلى يساري توجد امرأة قادمة. إنها لم تعبر من ملعب السيدات الممتد عن يميني، لأنها لو فعلت ذلك لرأيتها. من الغريب أنني لم أرها على الممشى من قبل... عندما كنت في النقطة الخامسة على سبيل المثال.

سكت سكتة طويلة ثم أضاف قائلاً: لقد قلتِ قبل قليل إنني أعرف الملعب. يوجد خلف النقطة السادسة مباشرة كوخ صغير أو ملجأ مغطى بالأعشاب، وبوسع أي امرئ أن ينتظر هناك إلى

أن... تأتي اللحظة المناسبة. وهناك يمكنه أن يغير مظهره، أقصد... أخبريني يا توبنس، فأنا أحتاج إلى معرفتك الخاصة من جديد: هل يصعب على رجل أن يبدو في هيئة امرأة ثم يغيّر ملابسه ليعود رجلاً مرة أخرى؟ هل يمكنه ارتداء تنورة فوق بنطال رياضي قصير على سبيل المثال؟

- يستطيع ذلك بالتأكيد، لكن المرأة ستظهر ضخمة بعض الشيء، هذا كل ما في الأمر. تنورة طويلة بنية اللون، أو قل إنها بدلة رياضية بنية اللون من النوع الذي يرتديه الرجال والنساء على حد سواء، وقبعة نسائية من اللباد تتدلى من جانبيها بعض خصلات الشعر المثبتة فيها... هذا كل ما يمكن أن يحتاجه. بالطبع أنا أتكلم عمّا يمكن أن ينطلي على الجميع من بُعد، وهو ما فهمت أنك تعنيه. ثم انزع التنورة واخلع القبعة وخصلات الشعر وضع على رأسك قبعة رجل يمكنك أن تحملها ملفوفة بيدك، وبذلك تعود رجلاً كما كنت.

- وما هو الوقت المطلوب للتحول؟

- من امرأة إلى رجل؟ دقيقة أو اثنتين كحد أقصى، أما العكس فقد يطول أكثر لأن عليك ترتيب القبعة والجدائل قليلاً، كما أن التنورة قد تلتصق إذا ما لبستها فوق البنطال.

- هذا لا يهمني، بل الذي يهمني هو الوقت الذي تستغرقه الحالة الأولى. كما قلت لك: أنا ألعب عند الحفرة السادسة، والمرأة ذات الثوب البني وصلت الآن إلى النقطة السابعة فعبرَتها وانتظرت. سيسل في معطفه الأزرق يذهب إليها، فيقفان معاً دقيقة

من الزمن ثم يسيران على الممر حول الأشجار بعيداً عن الأنظار. بقي هولاباي عند نقطة الرمي وحيداً، ومرت دقيقة أو دقيقتان. أنا فوق المرج الآن، يعود الرجل ذو المعطف الأزرق ويستأنف اللعب ولكن بطريقة رديئة. ضوء النهار يتلاشى، أنا وشريكي نواصل السير وأمامنا هذان الاثنان، وسيسل يضرب كرات منحرفة غير متقنة ويفعل كل ما لا ينبغي له أن يفعله، وعند النقطة الثامنة أراه يترك اللعب وينطلق ليغيب أسفل المنحدر. ما الذي حدث له حتى غدا يلعب كشخص مختلف؟

- المرأة ذات الثوب البني... أو الرجل، إن كنت تظن أنه رجل.

- بالضبط، وتذكري أنهما كانا يقفان بعيداً عن أنظار ذَينك الرجلين اللذين كانا يلعبان خلفهما، حيث هناك أشجار كثيفة ويمكنك أن ترمي جثة بينها، وسيكون من المؤكد أن تبقى الجثة مختفية هناك حتى الصباح.

- تومي! أتظن أن الجريمة وقعت في ذلك الوقت؟ لكن ألم يكن من شأن أحد أن يسمع شيئاً؟

- يسمع ماذا؟ الأطباء اتفقوا على أن الوفاة كانت فورية. لقد رأيت في الحرب رجالاً يُقتلون على الفور؛ إنهم لا يصرخون أبداً... مجرد غرغرة أو أنين، أو مجرد شهقة أو سعلة غريبة. حسناً، يأتي سيسل إلى النقطة السابعة وتأتي المرأة باتجاهه وتتكلم معه. ربما تعرّف عليها وعرف أنها رجل متنكر في ثياب امرأة، وبدافع من الفضول لمعرفة سبب تنكره سمح لنفسه بأن يُستدرَج بعيداً عن

الأنظار. ثم طعنة واحدة بالدبوس القاتل بينما كانا يسيران على الممشى، فيسقط سيسل قتيلاً. يقوم الرجل الآخر بسحب جثته وإخفائها وسط الأشجار ويخلع عنه المعطف الأزرق ثم يطرح التنورة والقبعة والجدائل، ويرتدي معطف سيسل الأزرق المعروف وقبعته ويعود أدراجه إلى الملعب. ثلاث دقائق كافية لهذا العمل. الآخرون وراءه لا يستطيعون رؤية وجهه، ولن يروا إلا المعطف الأزرق المميز الذي يعرفونه جيداً. لم يشكّوا أبداً في أنه ليس سيسل، لكنه لم يكن ماهراً في الغولف مثله. كلهم قالوا إنه كان يلعب كرجل مختلف. وقد كان كذلك بالطبع؛ لقد كان رجلاً مختلفاً حقاً!

- ولكن...

- النقطة الثانية. كان تصرفه في إحضار الفتاة إلى هناك تصرف رجل آخر. لم يكن سيسل هو الذي التقى دوريس إيفانز في السينما وأغراها بالقدوم إلى سانغديل، بل كان رجلاً يسمي نفسه سيسل. تذكّري أن دوريس إيفانز لم تُعتقَل إلا بعد أسبوعين من الجريمة، وهي لم ترَ الجثة أبداً. ولو أنها رأتها فربما كانت قد فاجأت الجميع بقولها إنه ليس الرجل الذي خرج معها إلى ملعب الغولف في تلك الليلة والذي تكلم عن الانتحار بمثل ذلك الهياج! كانت خطةً رُسمت بعناية؛ تُدعى الفتاة لقضاء يوم أربعاء عندما يكون بيت سيسل خالياً، ثم دبوس القبعة الذي يشير إلى أن القاتل امرأة. يلتقي القاتل بالفتاة ويأخذها إلى البيت ويقدم لها العشاء ثم يأخذها معه إلى ملعب الغولف، وعندما يصل إلى مسرح الجريمة يلوّح بمسدسه في الهواء ويصيب الفتاة برعب لا يوصف، وعندما تهرب الفتاة فإن

كل ما عليه عمله هو سحب الجثة وتركها ملقاة على نقطة الرمي في الملعب. ثم يرمي بالمسدس بين الأشجار ويلفّ التنورة في طرد أنيق (وهنا أعترف بأنني أخمّن تخميناً)، والأغلب أنه مشى المسافة إلى ووكنغ التي تبعد ستة أميال أو سبعة ثم عاد إلى المدينة من هناك.

قالت توبنس: انتظر لحظة، هناك شيء واحد لم تفسره. ماذا عن هولاباي؟

- هولاباي؟

- نعم. أعترف أن الرجلين اللذين كانا في الخلف لم يستطيعا رؤيته ليعرفا إن كان هو سيسل أم غيره، لكنك لا تستطيع أن تقنعني بأن الرجل الذي كان يلعب معه قد نوّمه المعطف الأزرق مغنطيسياً إلى الحد الذي جعله لا ينظر أبداً إلى وجه صاحبه.

قال تومي: يا عزيزتي، هذه هي النقطة بالضبط! كان هولاباي يعرف كل شيء منذ البداية، وكما ترين فإنني أتبنى نظريتك بأن هولاباي وابنه هما المختلسان الحقيقيان. لا بد أن القاتل رجل كان يعرف سيسل جيداً، كان يعرف -على سبيل المثال- أن الخادمين يخرجان دوماً يوم الأربعاء وأن زوجته في الخارج، كما أنه كان شخصاً يستطيع الحصول على نسخة من مفتاح بيت سيسل. أظن أن هولاباي الابن تنطبق عليه كل هذه الأوصاف؛ إنه بنفس عمر سيسل وطوله تقريباً، كما أن الاثنين كانا رجلين حليقين. ربما رأت دوريس إيفانز عدة صور للرجل القتيل في الصحف ولكن (كما لاحظتِ أنت) فإن ما يمكن أن يراه المرء في هذه الصورة مجرد رجل لا غير دون أوصاف وملامح واضحة.

– ولكن ألم ترَ الفتاة هولاباي في المحكمة؟

– لم يظهر الابن في القضية أبداً. ولماذا يظهر؟ فليست لديه أية شهادة يدلي بها. كان هولاباي الأب هو الذي وقف تحت الأضواء طوال الوقت، وبحوزته ذلك الدليل الذي لا يُدحَض عن غيابه عن مسرح الجريمة، إذ كان برفقة الرجلين الآخرين. ولم يكلف أحدٌ نفسَه عناء السؤال عمّا كان ابنه يفعله في ليلة الجريمة تلك.

اعترفت توبنس قائلة: إنه كلام منطقي ينطبق على الأحداث.

سكتت دقيقة ثم سألته: هل ستذهب وتخبر الشرطة بكل هذا؟

– لا أدري إن كانوا سيصغون إلي.

قال صوتٌ غير متوقَّع من ورائه: **سيصغون إليك بلا شك.**

التفت تومي بسرعة فرأى المفتش ماريوت. كان المفتش جالساً على الطاولة المجاورة، وكان أمامه بيض مسلوق.

قال المفتش ماريوت: إنني آتي إلى هنا كثيراً لتناول الغذاء. وكما قلت فإننا سنصغي إلى كلامك دون شك، والواقع أنني كنت أصغي. ولا بأس في أن أقول لك إننا لم نكن راضين تماماً عن حسابات شركة بوركيوباين هذه؛ كانت لدينا شكوك حول هولاباي وابنه ولكن لم نكن نملك أي دليل نسير عليه، فقد كانا أذكى من أن يتركا دليلاً. ثم جاءت هذه الجريمة، وقد بدا أنها قلبت كل أفكارنا. ولكن بفضلك وبفضل زوجتك سنجعل هولاباي الشاب

يواجه دوريس إيفانز لنرى إن كانت ستتعرف عليه أو لا... وأعتقد أنها ستعرفه. هذه فكرة ذكية جداً منك بخصوص المعطف الأزرق، وسأحرص على أن يُعزى الفضل في حل هذا اللغز إلى وكالة بلانت للتحريات.

قالت توبنس بامتنان: أنت لطيف جداً يا حضرة المفتش.

أجابها الرجل الذي لا يستخفّه الإطراء: إننا نقدركما كثيراً في إدارة اسكتلنديارد. لكن هل لي أن أسألك عن معنى هذا الخيط؟

دسّ تومي الخيط في جيبه وقال: لاشيء، مجرّد عادة سيئة! أما بالنسبة إلى كعكة الجبن والحليب فإنني أتبع برنامج حمية خاص... بسبب سوء الهضم العصبي. الرجال المشغولون يكونون دائماً ضحية له.

قال المفتش: آه، ظننت أنك كنت تقرأ... حسناً، لا أهمية لذلك.

لكن عينَي المفتش طرفتا بما يفيد فهمه للدور الذي كان تومي يتقمّصه.



الفصل الحادي عشر

بيت الموت المترصِّد

بدأت توبنس تقول: ماذا...

ثم سكتت. كانت قد دخلت لتوها إلى المكتب الخاص بالسيد بلانت من المكتب المجاور، وقد فوجئت بمديرها وهو ينظر من ثقب التلصّص إلى المكتب الخارجي. قال لها تومي محذّراً: شش... ألم تسمعي الجرس؟ إنها فتاة، بل إنها تبدو لي فتاة جميلة، وألبرت يقول لها كل هذا الهراء عن انشغالي في الحديث مع اسكتلنديارد.

قالت توبنس: دعني أنظر.

تحرك تومي جانباً فوضعت توبنس عينها على الثقب، ثم اعترفت قائلة: إنها ليست سيئة، كما أن ثيابها على آخر طراز.

- إنها رائعة حقاً؛ مثل تلك الفتيات اللاتي يكتب ميسن عنهن، فتيات ودودات وجميلات وذكيات بشكل مميز دون أن يصل بهن ذلك حد الوقاحة. أعتقد... نعم، أعتقد أنني سأكون اليوم المفتش العظيم هانود.

قالت توبنس: إن كان هناك رجل تحرٍّ واحد لا تشبهه أبداً فهو هانود. هل يمكنك أن تقوم بتغيير شخصيتك بسرعة البرق؟ هل يمكنك أن تكون كوميدياً كبيراً، ومشرداً شقياً، وصديقاً جاداً ودوداً... كل ذلك خلال خمس دقائق؟

قال تومي وهو يضرب على مكتبه: أنا المسؤول هنا، لا تنسي هذا يا توبنس. حسناً، سوف أدخلها.

ضغط زراً على طاولته، وبعد لحظات ظهر ألبرت وهو يشير إلى الزبونة بالدخول. وقفت الفتاة عند مدخل الباب وكأنها مترددة، فتقدم تومي نحوها وقال بلطف: تفضلي يا آنسة واجلسي هنا. أخبريني عما تريدين ثم نناقش أفضل طريقة لمساعدتك.

قالت الفتاة: هذا من لطفك. أرجو المعذرة بسؤالك إن كنتَ أجنبياً؟

غصّت توبنس بصوت مسموع، فنظر تومي إليها بطرف عينه ثم قال بصعوبة: ليس هكذا تماماً، لكني عملت كثيراً في الخارج في السنوات الأخيرة. إن أساليبي هي أساليب الشرطة الفرنسية.

بدت الفتاة متأثرة بما سمعت وقالت: آه!

كانت فتاة جميلة نحيلة ذات شعر ذهبي يطلّ من تحت قبعتها البنية الصغيرة، وكانت عيناها كبيرتين وجادّتين. بدا واضحاً أنها كانت عصبية المزاج، فقد كانت تفرك كفيها الصغيرتين وظلت تعبث بحمالة حقيبتها.

قالت: قبل أي شيء لا بد أن تعرف -يا سيد بلانت- أن اسمي

هو لويز هارغريفز، وأنا أعيش في بيت ضخم قديم الطراز وغير منظم اسمه «ثيرنلي غرينج»، وهو في وسط الريف. قرية ثيرنلي قريبة منه لكنها قرية صغيرة جداً ولا أهمية لها، ويقوم الأهالي هناك بالصيد في الشتاء، كما نلعب التنس في الصيف. لم أشعر هناك بالوحدة أبداً، والواقع أنني أفضّل حياة الريف على المدينة كثيراً. أقول لك ذلك حتى تدرك أنه في قرية كقريتنا فإن كل شيء يحدث يكتسب أهمية كبيرة. قبل أسبوع تقريباً استلمت علبة من الشُّكلاتة أرسلت إليّ بالبريد، ولم يكن في داخلها ما يشير إلى مرسلها. أنا لا أحب الشّكلاتة شخصياً لكن الآخرين الذين يعيشون معي في البيت يحبونها، وقد وزعت محتويات العلبة عليهم، والذي حصل بعد ذلك هو أن كل من تناول أية قطعة من هذه الشُّكلاتة أصابه المرض. أرسلنا في طلب الطبيب، وبعد استفسارات متعددة عن الأشياء الأخرى التي تناولوها أخذ معه بقايا الشّكلاتة ليتم تحليلها... وكانت هذه الشّكلاتة تحتوي على الزرنيخ يا سيد بلانت! لم يكن الزرنيخ كافياً ليقتل لكنه كان كافياً لإصابة المرء بالمرض إلى حد لا يُستهان به.

علّقَ تومي قائلاً: يا له من أمر غريب!

- ذُهل الدكتور بيرتون كثيراً من هذه المسألة، ويبدو أن ذلك كان الحادث الثالث من نوعه الذي وقع في تلك المنطقة. وفي كل حالة من تلك الحالات كان يتم اختيار منزل كبير يرسلون إليه الشّكلاتة فيصاب أهله بالمرض بعد أكلهم منها، وقد بدا وكأن قروياً محدود الذكاء كان يصنع مَقلباً شيطانياً تماماً.

- نعم يا آنسة هارغريفز.

- عزا الدكتور بيرتون الحادث إلى تحريض الاشتراكيين! وقد رأيت أنه تفسير سخيف، ولكن يوجد شخص أو شخصان من الساخطين في قرية ثيرنلي، وبدا أنه من المحتمَل أن يكون لهم علاقة بالأمر. وقد حرص الدكتور بيرتون على أن أقوم بتبليغ الشرطة بما جرى.

قال تومي: إنه اقتراح طبيعي جداً، ولكني أرى أنك لم تفعلي ذلك يا آنسة هارغريفز؟

- نعم؛ فأنا أكره الضجة وشيوع الخبر. كما أنني أعرف مفتش الشرطة الموجود في منطقتنا، ولا أستطيع أن أتصور أن بإمكانه أن يكتشف أي شيء! وقد شاهدت إعلاناتكم مراراً فأخبرت الدكتور بيرتون أن من الأفضل استدعاء رجل تحر خاص.

- فهمت.

- أنت تشدّد كثيراً على السرية في إعلاناتك، وأفهم من هذا أنك لن تعلنَ أي شيء على الملأ دون موافقتي؟

نظر تومي إليها بفضول، لكن توبنس هي التي تحدثت. قالت بهدوء: أظن أن من الأفضل لو أخبرتنا الآنسة هارغريفز **بكل شيء**.

وقد شددت توبنس على الكلمتين الأخيرتين مما جعل وجه الآنسة هارغريفز يتورد حرجاً، فسارع تومي إلى القول: نعم، الآنسة روبنسون على حق. يجب أن تخبرينا بكل شيء.

ترددت وهي تقول: إنكم لن...

- كل شيء تقولينه سيكون موضع كتمان وثقة.

- شكراً لك... أعرف أنني يجب أن أكون صريحة جداً معك. ثمة سبب لعدم الذهاب إلى الشرطة؛ إن الذي أرسل علبة الشّكلاتة واحدٌ من أهل بيتنا يا سيد بلانت!

- وكيف عرفت ذلك يا آنسة؟

- الأمر بسيط. لديّ عادةٌ هي رسم شيء سخيف... ثلاث سمكات مجدولات معاً... وذلك كلما وقع في يدي قلم رصاص. وقد وصلَنا قبل مدة قصيرة طردٌ فيه جوارب حريرية من محل في لندن، وكنا جالسين نتناول طعام الإفطار، وكنت أضع خطاً تحت شيء مكتوب في الصحيفة، ثم بدأت بعدها -بلا تفكير- برسم سمكاتي الصغيرات السخيفات على البطاقة التي تُلصَق على الطرد قبل أن أقطع الخيط وأفتحه. لم أفكر في تلك المسألة بعد ذلك، لكني عندما كنت أتفحص الورق البني الذي كان يغلف علبة الشّكلاتة التي وصلتنا وقعت عيني على طرف البطاقة الملصقة عليه. كان معظمها ممزقاً، وكان عليها رسمي السخيف!

سحب تومي كرسيه إلى الأمام وقال: هذا خطير جداً، وهو يكوّن -كما تقولين- افتراضاً قوياً جداً بأن الذي أرسل الشّكلاتة واحدٌ من أهل بيتك. ولكن أرجو أن تعذريني إن قلت إنني ما زلت لا أفهم لماذا منعتك تلك الحقيقة من استدعاء الشرطة؟

نظرت لويز هارغريفز إلى وجهه مباشرة وقالت: سوف أخبرك يا سيد بلانت؛ ربما كنت أريد طيّ الموضوع كله.

تراجع تومي إلى الخلف وتمتم قائلاً: في هذه الحالة نعرف أين نقف. أفهم من هذا -يا آنسة- أنك غير مستعدة لتخبريني عن الذي تشتبهين فيه؟

- إنني لا أشتبه في أحد، ولكن هناك احتمالات.

- هذا صحيح. والآن هلاّ وصفتِ لي أهل البيت بالتفصيل؟

- الخدم جميعاً قدامى ويعملون عندنا منذ سنوات عديدة باستثناء خادمة الاستقبال. يجب أن أوضح لك -يا سيد بلانت- أنني نشأت في كنف عمتي الليدي رادكليف التي كانت ثرية جداً، فقد جمع زوجها ثروة واسعة وتم منحه لقب فارس، وهو الذي اشترى هذا البيت «ثرنلي غرينج»، لكنه توفي بعد سنتين من شرائه، وعندها أرسلت الليدي رادكليف في طلبي لكي أعيش معها فيه. كنت قريبتها الوحيدة الباقية على قيد الحياة. وكان الساكن الآخر في هذا البيت هو دينيس رادكليف، ابن أخي زوجها، وكنت أناديه دائماً بابن عمي لكنه ليس ابن عمي في الحقيقة. كانت عمتي لوسي تقول دائماً وأمام الجميع إنها تعتزم ترك ثروتها كلها لدينيس باستثناء حصة صغيرة لي، وقالت إنها أموال رادكليف ويجب أن تذهب إلى واحد من عائلته. لكن عندما كان دينيس في الثانية والعشرين من عمره تشاجرت عمتي معه بعنف بسبب بعض الديون التي استدانها، وعندما توفيت عمتي بعد ذلك بعام واحد فوجئت بأنها كتبت وصية تترك فيها كل ثروتها لي. أعرف أن ذلك كان ضربة موجعة لدينيس وقد أحزنني الأمر كثيراً، وكنت سأعطيه النقود لو أنه كان مستعداً لأخذها، ولكن يبدو أن مثل هذا الأمر لا يمكن القيام به. وحالما

أصبحت في الحادية والعشرين كتبت وصية أترك فيها كل ثروتي له، فهذا أقل ما يمكنني فعله. وهكذا فسوف يحصل دينيس على هذه الأموال إذا ما دعستني سيارة على سبيل المثال.

- نعم، ومتى أصبحت في الحادية والعشرين من عمرك، إن سمحت لي بهذا السؤال؟

- قبل ثلاثة أسابيع فقط.

- آه! والآن هلاّ أعطيتني تفصيلات كاملة عن أهل بيتك الموجودين معك في هذه اللحظة؟

- الخدم أم الآخرون؟

- الجميع.

- الخدم يعملون عندنا منذ وقت طويل كما قلت لك. وهم السيدة هولوواي العجوز الطاهية، وابنة أخيها روز خادمة المطبخ، كما أن لدينا خادمتين كهلتين بالإضافة إلى هانا التي كانت خادمة خاصة لعمتي وكانت تحبني دوماً. أما خادمة الاستقبال فتدعى إيستر كوانت، وتبدو فتاة هادئة طيبة. هؤلاء هم الخدم، وبعد ذلك هناك الآنسة العانس لوغنان التي كانت مرافقة لعمتي لوسي وهي تدير المنزل الآن، والكابتن رادكليف... أي دينيس الذي أخبرتك عنه، وتقيم معنا أيضاً فتاة اسمها ماري تشيلكوت، وهي صديقتي من أيام المدرسة.

فكر تومي لبعض الوقت ثم قال: هذا كله يبدو واضحاً وصريحاً يا آنسة. أفهم من هذا أنه ليس لديك سبب خاص يدعوك

إلى الاشتباه بشخص أكثر من غيره؟ هل تقول إنك خائفة فقط من أن يظهر أن الفاعل ليس واحداً من الخدم؟

- تماماً يا سيد بلانت. صدقاً أنا لا أعرف مَن الذي استخدم قطعة الورق البنية تلك، فقد كانت الكتابة مطبوعة.

- يبدو أن هناك شيئاً واحداً فقط ينبغي عمله، وهو أن أذهب إلى البيت.

نظرت الفتاة إليه متسائلة، فواصل تومي كلامه بعد لحظة من التفكير وقال: أقترح أن تمهدي الطريق لوصول أصدقاء لك، ولنقل إنهما السيد فان دوسين وأخته... إنهما صديقان أمريكيان لك. هل ستتمكنين من فعل ذلك بطريقة طبيعية؟

- نعم، لن تكون في هذا الأمر أية صعوبة. متى ستأتيان إلينا؟

- غداً إذا سمحت، لا وقت لنضيعه.

- اتفقنا إذن.

نهضت الفتاة ومدّت يدها مودعة، فقال لها تومي: بقي شيء واحد يا آنسة هارغريفز؛ لا تقولي أية كلمة لأي شخص... مهما كان، بأننا نمثل دوراً.

* * *

عندما عاد بعد أن رافق زائرته إلى خارج المكتب قال: ما رأيك بما سمعت يا توبنس؟

قالت توبنس جازمة: لا يعجبني هذا الأمر، وأنا غير مرتاحة بشكل خاص لمسألة وضع كمية قليلة من الزرنيخ في الشكلاتة.

- ماذا تقصدين؟

- ألا ترى؟ كل علب الشكلاتة تلك التي أُرسلت إلى بيوتٍ في المنطقة كانت بقصد التمويه، لكي تسود فكرة وجود مجنون من أبناء المنطقة. وعندما تصاب الفتاة بالتسمم سيظنون تسممها استمراراً للأمر ذاته، ولولا ضربة الحظ لما كان أحدٌ ليخمّن أن من يرسل العُلَب هو في الواقع شخص من داخل البيت نفسه.

- كانت تلك ضربة حظ، أنت على حق. هل تعتقدين أنها مؤامرة مقصودة ضد الفتاة؟

- أخشى ذلك. أذكر أنني قرأت عن وصية العجوز الليدي رادكليف؛ لقد حصلت تلك الفتاة على ثروة طائلة.

- نعم، وقد بلغت سن الرشد وكتبت وصية قبل ثلاثة أسابيع. يبدو الأمر سيئاً بالنسبة لدينيس رادكليف، فهو المستفيد من وفاتها.

أومأت توبنس وقالت: أسوأ ما في الأمر إنها ترى ذلك أيضاً! هذا هو سبب عدم استدعائها للشرطة، فهي تشك فيه أساساً، ولا بد أنها تحبه كثيراً حتى تتصرف بمثل هذا التصرف.

قال تومي متأملاً: في تلك الحالة لماذا لا يتزوجها؟ فهذا أكثر بساطة وأمناً.

حدقت توبنس إليه وقالت: إن ما قلته مهم جداً. آه! هل تلاحظ أنني أستعدّ لدور الآنسة فان دوسين؟

- لماذا يلجأ إلى الجريمة ما دام يمتلك وسيلة قانونية في متناول يده؟

فكّرت توبنس لبعض الوقت ثم قالت: عرفت؛ لا بد أنه تزوج نادلة -مثلاً- عندما كان في أكسفورد، وهذا هو أصل المعركة بينه وبين زوجة عمه! هذا يفسر كل شيء.

- إذن لماذا لا يرسل الحلوى المسمومة إلى النادلة؟ إنه إجراء عملي أكثر. ليتك لا تقفزين إلى هذه الاستنتاجات الغريبة يا توبنس!

قالت توبنس بكثير من الكرامة: إنها استدلالات منطقية. هذه أول مصارعة ثيران لك يا صديقي، ولكن عندما تبقى في الحلبة عشرين دقيقة...

رماها تومي -مداعباً- بوسادة المكتب.

* * *

- توبنس، تعالي هنا يا توبنس.

كان ذلك ساعة الإفطار في صباح اليوم التالي. أسرعت توبنس خارج غرفتها وجاءت إلى غرفة الطعام، فوجدت تومي يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وفي يده صحيفة مفتوحة.

- ماذا هناك؟

استدار تومي صوبها ورمى بالجريدة في يدها وهو يشير إلى العنوان الرئيسي: «حالة تسمم غامضة: وفيات بسبب فطائر التين».

تابعت توبنس القراءة:

> وقعت هذه الحادثة الغامضة نتيجة التسمم بأطعمة فاسدة في «ثرنلي غربنج». والوفيات التي سُجلت حتى الآن هي وفاة لويز هارغريفز صاحبة البيت، وخادمة الاستقبال إيستر كوانت، وقد أصيب الكابتن رادكليف والآنسة لوغان بحالة مَرَضية خطيرة. ويُفترَض أن سبب هذا الحادث هو مربّى التين المستخدَم في الفطائر، إذ أن سيدة أخرى تدعى الآنسة تشيلكوت لم تتناول شيئاً من هذه الفطائر فبقيت في صحة جيدة ولم يصبها شيء.

قال تومي: يجب أن نذهب إلى هناك على الفور. يا إلهي! لماذا لم أذهب معها مباشرة بالأمس؟

قالت توبنس: لو ذهبت معها لكنت قد تناولت فطائر التين مع الشاي أنت أيضاً ولكنت في عداد الموتى. هيا لنذهب فوراً. تقول الجريدة إن دينيس رادكليف مصاب إصابة شديدة أيضاً.

- ربما كانت خدعة من ذلك الوغد.

* * *

وصلا إلى قرية ثيرنلي الصغيرة عند الظهيرة تقريباً. فتحت لهما الباب امرأة كهلة محمرّة العينين، فقال تومي بسرعة قبل أن

تتكلم: أنا لست صحافياً أو شيئاً من هذا القبيل. لقد جاءت الآنسة هارغريفز لرؤيتي بالأمس وطلبت مني أن آتي إلى هنا. هل في البيت أحد أستطيع رؤيته؟

قالت المرأة بارتياب: الدكتور بيرتون موجود الآن في الداخل إن كنت تريد الحديث معه، وكذلك الآنسة تشيلكوت التي تقوم بجميع الترتيبات.

لكن تومي تمسك بالاقتراح الأول؛ قال بلغة الآمر: الدكتور بيرتون. أريد رؤيته على الفور إن كان موجوداً هنا.

أدخلتهما المرأة إلى غرفة صغيرة، وبعد خمس دقائق فُتح الباب ودخل منه كهل طويل القامة مقوّس الكتفين ذو وجه لطيف رغم القلق البادي عليه. قال تومي: الدكتور بيرتون؟

ثم أظهر له بطاقته وقال: لقد زارتني الآنسة هارغريفز بالأمس بخصوص تلك الشكلاتة المسمومة، فجئت إلى هنا للتحقيق في المسألة بناء على طلبها، ولكن... مع الأسف، لقد جئت متأخراً.

نظر الطبيب إليه نظرات متفحصة وقال: هل أنت السيد بلانت بنفسه؟

- نعم، وهذه مساعدتي الآنسة روبنسون.

انحنى الطبيب لتوبنس وقال: في مثل هذه الظروف لا حاجة إلى التحفظ. ولولا قصة الشكلاتة لكنت ظننت بأن هذه الوفيات ناتجة من تسمم غذائي شديد، لكنه تسمم من نوع فتاك جداً. ثمة التهابات مِعَدية مِعَوية ونزيف داخلي، ولذلك سآخذ مربى التين إلى التحليل.

- هل تشك بأنه تسمم بالزرنيخ؟

- لا. إن السم (إن كان السم قد استخدم فعلاً) فعال جداً وسريع المفعول؛ إنه يبدو أشبه بمادة التوكسين النباتي القوي.

- فهمت. أريد أن أسألك يا دكتور بيرتون: هل يعاني الكابتن رادكليف من نفس ذلك النوع من السم؟

نظر الطبيب إليه ملياً ثم قال: إن الكابتن رادكليف لا يعاني من أيِّ نوع من التسمم الآن.

- آه، إنني...

- **لقد مات الكابتن رادكليف في الساعة الخامسة من صباح هذا اليوم.**

صُعق تومي تماماً. واستعد الطبيب للمغادرة فسألته توبنس: وماذا عن الضحية الأخرى، الآنسة لوغان؟

- هناك أسباب عديدة تدعو إلى الأمل بأنها ستتعافى طالما أنها نجت من الموت حتى الآن؛ فلأنها امرأة أكبر سناً فإن تأثير السم عليها يبدو أقل من تأثيره على الآخرين. سأخبرك بنتيجة التحليل يا سيد بلانت، وفي غضون ذلك فإن الآنسة تشيلكوت ستخبرك بأي شيء تود معرفته بالتأكيد.

وبينما كان يتكلم فُتح الباب وأطلت منه فتاة. كانت طويلة القامة بوجه مسفوع وعينين زرقاوين هادئتين، وكانت هذه الفتاة هي ماري تشيلكوت.

قام الدكتور بيرتون بالتعريف اللازم، ثم قالت الآنسة تشيلكوت: أنا مسرورة لقدومك يا سيد بلانت، فهذه المسألة تبدو مرعبة. هل هناك أي شيء تريد معرفته مني؟

- من أين جاء مربى التين هذا؟

- إنه نوع خاص يأتي من لندن، وهو موجود عندنا دائماً. لم يشكَّ أحد في أن علبة المربى هذه تختلف عن غيرها. أنا شخصياً أكره طعم التين، وهذا ما يفسر نجاتي. أما دينيس فلا أستطيع استيعاب كيف أصيب، لأنه كان قد خرج لشرب الشاي. لا بد أنه التقط بعض الفطائر عندما عاد إلى البيت.

أحسّ تومي بيد توبنس تضغط على ذراعه بخفة. سأل: ومتى عاد إلى البيت؟

- لا أعرف تماماً، ولكني أستطيع معرفة ذلك.

- أشكرك يا آنسة تشيلكوت، هذا لا يهم. أرجو أن لا تمانعي في استجوابي للخدم؟

- افعل ما تشاء يا سيد بلانت... إنني على حافة الجنون. أخبرني، هل تعتقد بوجود... جريمة؟

كانت اللهفة بادية في عينيها وهي تسأل السؤال. قال تومي: لا أدري ما أقول، ستعرف عمّا قريب.

- أظن أن الدكتور بيرتون سيقوم بتحليل مربى التين.

ثم استأذنت بسرعة وغادرت عبر الباب الزجاجي لتتحدث مع أحد البستانيين.

قال تومي: تولّي أنت أمر خادمات المنزل، أما أنا فذاهب إلى المطبخ. ربما كانت الآنسة تشيلكوت تشعر بأنها على حافة الجنون لكن هذا لا يبدو عليها.

وافقته توبنس بهزة من رأسها دون أن تتكلم.

* * *

بعد نصف ساعة التقى الزوجان من جديد. قال تومي: والآن إلى النتائج. لقد خرجت الفطائر من المطبخ ليتم تناولها مع الشاي، وتناولت خادمة الاستقبال واحدة منها، وهذا ما جعلها تلقى حتفها. الطاهية واثقة من أن دينيس رادكليف لم يكن قد عاد عندما رُفعت صينية الشاي والفطائر. وهذا أمر غريب... كيف تسمم؟

قالت توبنس: دخل البيت في الساعة السابعة إلاّ ربعاً، فقد رأته خادمة المنزل من إحدى النوافذ وهو يدخل، ثم تناول شراباً قبل العشاء في المكتبة. عندما تكلمتُ مع الخادمة كانت تريد رفع الكأس، ومن حسن حظي أنني أخذتها منها قبل أن تغسلها. وبعدها بدأ يشتكي من الإحساس بالمرض.

- جيد. سآخذ هذه الكأس إلى بيرتون الآن. هل هناك شيء آخر؟

- أريدك أن تقابل هانا، الخادمة. إنها... إنها غريبة.

- ماذا تقصدين بقولك إنها غريبة؟

- تبدو لي وكأنها قد جُنّت.

- دعيني أراها.

قادته توبنس إلى الطابق العلوي حيث توجد لهانا غرفة جلوس صغيرة خاصة بها. كانت الخادمة تجلس منتصبة على كرسي مرتفع وتحدق أمامها، ولم تنظر إلى الغريبَين عندما دخلا، بل كانت تردّد بصوت مرتفع: «فليسقط عليه الجمر المشتعل، فليُلقَوا في جهنم بحيث لا ينهضون بعدها أبداً»...

تدخّلَ تومي وسألها: هل لي أن أتحدث إليك قليلاً؟

أشارت بيدها بعلامة تدل على نفاد صبرها وقالت: ليس هذا وقته. إن الوقت يجري بسرعة، وسوف ألاحق أعدائي وأتغلب عليهم ولن أعود إلاّ بعد أن أكون قد حطمتهم. هكذا مكتوب، لقد جاءني الإلهام... أنا سوط الرب.

تمتم تومي: مجنونة دون شك!

ردت عليه توبنس هامسة: إنها هكذا طوال الوقت.

أخذ تومي كتاباً كان مفتوحاً ومقلوباً على الطاولة، فنظر إلى العنوان ثم وضعه في جيبه. وفجأة نهضت المرأة العجوز والتفتت إليهما محذرة: اخرجا من هنا. لقد حان الوقت! الريح تهبّ حيث تشاء... وهكذا أدمّر. الشرير سيذهب، هذا بيت الشر... الشر! حذار من سخط الرب الذي كلفني خادمة له.

ثم اندفعت نحوهما بقوة، فرأى تومي أن أفضل شيء هو مداراتها والانسحاب. وحين ابتعدا قليلاً أخرج من جيبه الكتاب الذي أخذه عن الطاولة وقال: إنظري إلى هذا. غريبٌ أن تقرأه واحدةٌ مثل هذه الخادمة الجاهلة.

أخذت توبنس الكتاب وقرأت عنوانه اللاتيني: «العقاقير الطبية»، ونظرت إلى أول ورقة فيه وقرأت: «إدوارد لوغان». ثم قالت: إنه كتاب قديم! تومي، هل يمكننا رؤية الآنسة لوغان؟ لقد قال الدكتور بيرتون إنها قد تحسنت.

- هل نسأل الآنسة تشيلكوت؟

- لا، فلنبحث عن واحدة من الخادمات ثم نرسلها إليها لتسألها.

بعد وقت قصير تم إبلاغهما أن الآنسة لوغان ستراهما. ذهبا إلى غرفة نوم كبيرة تواجه الحديقة، وكانت ترقد على السرير سيدة مسنّة ذات شعر أبيض، وقد ظهرت المعاناة على وجهها الرقيق.

قالت بصوت واهن: كنت مريضة جداً، كما أنني لا أستطيع التحدث كثيراً، لكن إيلين أخبرتني بأنكما تقومان بالتحري. إذن فقد ذهبت لويز لاستشارتكما؟ لقد تحدثت عن ذلك.

قال تومي: نعم يا آنسة لوغان. لا نريد أن نتعبك ولكن ربما استطعت الإجابة على بعض الأسئلة، هل الخادمة هانا سليمة العقل؟

نظرت الآنسة لوغان إليهما بدهشة واضحة وقالت: آه، نعم. إنها متدينة كثيراً ولكن ليس فيها أي شيء غير طبيعي.

أخرج تومي الكتاب الذي أخذه من الطاولة وقال: هل هذا لك يا آنسة؟

- نعم، كان أحد كتب والدي. كان طبيباً عظيماً، إنه أحد رواد المعالجة بالأمصال.

كانت نبرة الفخر ظاهرة في صوت السيدة العجوز، فقال تومي كاذباً: تماماً، أظن أنني أعرف هذا الاسم، ولكن هل أعرتِ هذا الكتاب لهانا؟

رفعت الآنسة لوغان نفسها عن السرير ساخطة وقالت: لا، بالطبع لم أفعل، إنها لا تفهم كلمة واحدة منه، فهو كتاب فني معقد.

- نعم، أرى هذا. ولكني وجدته في غرفتها.

- يا له من أمر مخز! ما كنت لأسمح للخدم بلمس أشيائي.

- أين هو مكانه الطبيعي؟

- على الرف في غرفة جلوسي. آه، انتظر؛ لقد أعرته لماري. إن هذه الفتاة الغالية مهتمة بالأعشاب وقد قامت بعمل بعض التجارب في مطبخي الصغير. لديّ مطبخ صغير أقوم فيه بتحضير المخلّلات والمربيات على الطريقة القديمة، وقد كانت لوسي (أي الليدي رادكليف) شديدة الاعتقاد بمفعول شاي حشيشة الشفاء الذي أحضره، وهو شراب رائع لعلاج نزلات البرد. مسكينة لوسي؛ كانت تصاب بنزلات البرد كثيراً. وكذلك دينيس... كان أبوه ابن عمي.

قاطعها تومي قائلاً: مطبخك هذا، هل يستخدمه أحد غيرك وغير الآنسة تشيلكوت؟

- إن هانا هي التي ترتبه وتنظفه، كما أنها تغلي إبريق الشاي فيه في الصباح الباكر.

- شكراً لك يا آنسة لوغان. لا أسئلة أخرى في الوقت الحالي. أرجو أن لا نكون قد أتعبناك كثيراً.

خرج من الغرفة ونزل الدرج وهو مقطب الجبين وقال: ثمة شيء لا أفهمه.

قالت توبنس وهي ترتعد: إنني لا أحب هذا البيت. دعنا نخرج في نزهة طويلة على الأقدام ونحاول التفكير في حل لهذا الأمر.

وافقها تومي. قاما أولاً بترك كأس الشراب في بيت الطبيب، ثم انطلقا في رحلة سير على الأقدام على الطرق الريفية وهما يناقشان القضية.

قال تومي: لو أن المرء لعب دور المغفل لكان ذلك حرياً بتخفيف وقع الأمر عليه بعض الشيء... وأنا الذي كنت أريد تمثيل دور المحقق هانود! أحسب أن من شأن بعض الناس أن يظنوا بأنني لم أهتم، ولكنني أهتم كثيراً لما جرى. أشعر أن الواجب كان يقتضي منا أن نمنع حدوث ما حدث بطريقة أو بأخرى.

قالت توبنس: لكنْ نحن لم ننصح لويز هارغريفز بعدم الذهاب إلى الشرطة. ما كان لشيء أن يقنعها بإبلاغ الشرطة، ولو لم تأت إلينا لما فعلت أي شيء.

- وستكون النتيجة هي نفسها. نعم، أنت على حق يا توبنس؛ من غير الطبيعي أن يوبّخ المرء نفسه على شيء لا يملك تفاديه. إن ما أريد فعله الآن هو التعويض عن ذلك.

- ولن يكون هذا سهلاً.

- نعم، ليس سهلاً. ثمة احتمالات كثيرة ولكنها تبدو كلها اعتباطية طائشة غير محتملة. افترضي أن دينيس رادكليف وضع السم في الفطائر. كان يعرف أنه سيخرج لشرب الشاي خارج البيت، وهذا يبدو إجراء بسيطاً جداً.

- نعم، هذا حسن حتى الآن. ثم يمكننا أن نضع مقابل ذلك حقيقة أنه تسمم هو أيضاً، وهذا ما يستبعده من دائرة الشبهة. هناك شخص واحد يجب أن لا ننساه؛ هانا. فقد يدفع الهوسُ الديني الناسَ إلى القيام بمختلف التصرفات الغريبة.

- وقد بالغت في ذلك كثيراً أيضاً. كان يجب أن تنوّهي للدكتور بيرتون بذلك.

- لا بد أن حالتها تفاقمت هكذا بسرعة، هذا إذا ما صدّقنا كلام الآنسة لوغان عنها. لكن لدي فكرة...

ثم سكتت، فقال تومي مشجعاً: وما هي؟

- إنها ليست فكرة في الحقيقة... أظن أنها مجرد تحيز وهوى.

- تحيز ضد شخص؟

أومأت توبنس بالإيجاب وقالت: تومي، هل ارتحت لماري تشيلكوت؟

فكّر تومي ثم قال: نعم، أظن ذلك. لقد أحسست أنها قديرة جداً وعملية... مع شيء من الإفراط في ذلك.

- ألا تظن أن من الغريب أنها لم تبدُ منزعجة كثيراً؟

- هذه نقطة لصالحها. أقصد لو أنها فعلت شيئاً لتعمّدت إظهار الانزعاج وبالغت في ذلك.

قالت توبنس: ربما. وعلى أية حال لا يبدو وجود أي دافع في حالتها؛ لا يستطيع المرء أن يرى فائدة لها من هذه المذبحة الجماعية.

- ولا أظن أن أحداً من الخدم معني بالقضية.

- لا يبدو هذا مرجّحاً، فمجموعة الخدم تبدو مسالمة. لا أدري كيف كانت إيستر كوانت، خادمة الاستقبال.

- تقصدين أنها لو كانت شابة وجميلة لكانت هناك فرصة بأن تكون متورطة في هذا الأمر بطريقة ما.

- هذا ما أعنيه. آه، الوضع كله يثبط الهمم!

- أظن أن الشرطة سيكشفون الأمر بلا شك.

- محتمل، لكنني أحب أن نكشفه نحن. على فكرة، هل لاحظت وجود كثير من النقاط الحمراء الصغيرة على ذراع الآنسة لوغان؟

- لا أظن أنني لاحظت ذلك. وما هي هذه البقع؟

- تبدو وكأنها بفعل الحقن.

- ربما حقنها الدكتور بيرتون بعقار ما.

- هذا ممكن، ولكنه ما كان ليعطيها ما يقرب من أربعين حقنة!

اقترح تومي على سبيل المساعدة: هل تتعاطى الكوكايين؟

- لقد فكرت في هذا، لكن عينيها لا يبدو فيهما شيء. لو كانت تتعاطى الكوكايين أو المورفين لظهر ذلك في عينيها على الفور، كما أنها لا تبدو من العجائز اللائي يفعلن ذلك.

وافقها تومي: إنها سيدة محترمة.

- المسألة صعبة جداً. لقد تحدّثنا كثيراً ولا يبدو أننا حققنا أي شيء، علينا أن لا ننسى المرور بمنزل الطبيب ونحن في طريق العودة.

* * *

فتح غلامٌ في الخامسة عشرة من عمره تقريباً باب منزل الطبيب، سأل: السيد بلانت؟ لقد خرج الطبيب لكنه ترك لك رسالة في حال قدومك إلى هنا.

سلّمهما الرسالة ففتحها تومي وقرأ: "عزيزي السيد بلانت، هناك سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأن السم المستخدَم هو «الريسين»، وهو مادة بروتينية نباتية ذات سمية قوية جداً. أرجو أن تُبقي هذا الأمر سراً في الوقت الحالي".

قال تومي: الريسين؟ هل تعرفين عنه أي شيء يا توبنس؟ لقد كنت عميقة الاطلاع في مثل هذه الأمور.

قالت توبنس متأملة: الريسين؟ أظن أنه يستخرج من زيت الخروع.

قال تومي: أنا لم أستسغ زيت الخروع أبداً من قبل، وقد صرت الآن أكرهه أكثر من قبل.

- الزيت لا بأس به؛ فنحن نحصل على الريسين من بذور نبتة زيت الخروع. أعتقد أنني رأيت بعض نباتات زيت الخروع في الحديقة صباح اليوم، وهي نباتات كبيرة ذات أوراق لامعة.

- أتقصدين أن شخصاً ما قد استخلص هذه المادة داخل المنزل؟ أيمكن أن تقوم هانا بذلك؟

هزّت توبنس رأسها بالنفي وقالت: لا يبدو هذا محتملاً؛ فلا أظن أن معرفتها تكفي لذلك.

وفجأة صاح تومي وقال: ذلك الكتاب! أما زال موجوداً في جيبي؟ نعم.

أخرجه من جيبه وقلّب صفحاته بحماسة ثم قال: لقد ظننت ذلك. ها هي الصفحة التي كان الكتاب مفتوحاً عندها صباح اليوم، أترين يا توبنس؟ الريسين!

أخذت توبنس الكتاب منه فقال تومي: هل تفهمين منه شيئاً؟ أنا لا أفهم.

قالت توبنس: إنه واضح بالنسبة لي.

مشت وهي تقرأ من الكتاب وإحدى يديها على ذراع تومي،

ثم أغلقت الكتاب بقوة، فقد كانا يقتربان من البيت مرة أخرى.

قالت: تومي، هل تترك لي هذا الأمر؟ لمرة واحدة.

أومأ تومي موافقاً وقال: فلتكوني أنت ربان السفينة، يجب أن نكشف هذا السر.

قالت توبنس وهما يدخلان البيت: قبل كل شيء يجب أن أسأل الآنسة لوغان سؤالاً آخر.

صعدت الدرج وتبعها تومي، فطرقت باب غرفة السيدة العجوز ثم دخلت.

قالت الآنسة لوغان: أهذا أنت يا عزيزتي؟ أتعلمين أنك أصغر وأجمل من أن تعملي في مجال التحري؟ هل اكتشفتما أي شيء؟

قالت توبنس: نعم، أنا اكتشفت.

نظرت الآنسة لوغان إليها متسائلة، فأكملت توبنس تقول: لا أعرف علاقة الجمال بالموضوع، أما من ناحية الصغر فقد تصادف أن عملت في صغري في أحد المستشفيات في أثناء الحرب، ولذلك فأنا أعرف بعض الأشياء عن العلاج بالأمصال. وقد تصادف أن عرفت أيضاً أنه عندما يتم حقن شخص بجرعات صغيرة من الريسين فإن هذا يعطيه مناعة ضد السم، وهذه الحقيقة هي التي مهدت الطريق لتأسيس علم الأمصال. كنت تعرفين هذا يا آنسة لوغان لأنك كنت تساعدين والدك في عمله؛ لقد عرفتِ كل شيء عن الريسين وكيفية استخلاصه من البذور، وكنت تحقنين نفسك به منذ مدة طويلة ثم تركت نفسك تتسممين مع البقية. وقد اخترت

يوماً يكون دينيس رادكليف فيه خارج البيت، فلم تكن هناك فائدة من تسميمه في نفس الوقت لأنه قد يموت قبل لويز هارغريفز. أما إن ماتت هي أولاً فإنه سوف يرث أموالها، وعندما يموت هو تنتقل الأموال إليك بصفتك قريبته. تذكرين أنك قلت لنا هذا الصباح إن والده ابن عم لك.

حدقت السيدة العجوز إلى توبنس بعينين مرعوبتين. وفجأة اندفع شخص هائج من الغرفة المجاورة، كانت هانا التي تمسك بيدها مشعلاً متقداً وتلوّح به بشكل هستيري. صاحت: لقد ظهرت الحقيقة؛ هذه هي الشريرة. رأيتُها تقرأ الكتاب وتبتسم مع نفسها فعرفت، ثم وجدت الكتاب والصفحة لكني لم أفهم منها شيئاً. كانت تكره سيدتي، كانت دوماً غيورة حسودة. لقد كرهت الآنسة لويز حبيبتي. ولكن الأشرار سيهلكون وتأكلهم النيران.

ثم قفزت إلى السرير وهي تلوح بالمشعل، فصرخت السيدة العجوز عالياً: أخرجوها من هنا، أخرجوها! هذا صحيح... ولكن أخرجوها.

انقضّت توبنس على هانا، لكن المرأة نجحت في إحراق أغطية السرير قبل أن تتمكن توبنس من انتزاع المشعل منها وإطفائه. ورغم ذلك كان تومي قد اندفع فمزق الأغطية المتدلية من السرير ونجح في إخماد النار المشتعلة بإلقاء بساط عليها، ثم أسرع لمساعدة توبنس وقام الاثنان بتهدئة هانا في الوقت الذي جاء فيه الدكتور بيرتون مسرعاً.

كانت بضع كلمات كافية لوضعه في صورة واضحة بالنسبة

الموقف، فهرع إلى جانب السرير ورفع يد الآنسة لوغان، ثم أطلق صيحة حادة وقال: كانت صدمة النار كبيرة عليها... لقد ماتت! ربما كان هذا أفضل حل في مثل هذه الظروف.

سكت قليلاً ثم أضاف قائلاً: كان الريسين موجوداً في كأس الشراب أيضاً.

* * *

قال تومي بعد أن سلّما هانا لعناية الطبيب وأصبحا وحدهما: هذا أفضل ما يمكن أن يحدث. لقد كنت رائعة يا توبنس.

- لكن هذه القضية لم تشبه قضايا المحقق هانود.

- كان الأمر أخطر من أن نتعامل معه كتمثيل دور! ما زلت لا أتحمل التفكير بتلك الفتاة المسكينة، لذلك لن أفكر فيها. لكن وكما قلتُ من قبل فقد كنتِ رائعة، وأنت صاحبة الفضل. دعيني أستخدم تلك الحكمة المعروفة القائلة: «إنها لميزة كبرى أن يكون المرء ذكياً ولا يبدو الذكاء عليه».

قالت توبنس: يا لك من وغد!

* * *

الفصل الثاني عشر

دليل غياب لا يمكن دحضه

كان تومي وتوبنس مشغولَين في فرز الرسائل. صاحت توبنس ثم سلّمت تومي رسالة وقالت باهتمام: زبون جديد!

- آه، ما الذي تفهمه من هذه الرسالة يا توبنس؟ لا شيء سوى الحقيقة الواضحة بأن السيد مونتغمري جونز ليس ممن يجيدون تهجئة الكلمات؛ مما يثبت أنه قد تلقى تعليمه في أرقى المدارس وأغلاها!

- مونتغمري جونز؟ ما الذي أعرفه عن مونتغمري جونز؟ آه، نعم؛ تذكرت الآن. أظن أن جانيت سانت فينسنت قد ذكرته لي. أمه هي الليدي إيلين مونتغمري، وهي امرأة متدينة إلى حد التزمت، وقد تزوجت رجلاً واسع الثراء اسمه جونز.

قال تومي: متى يريد السيد مونتغمري هذا رؤيتنا؟ آه، الساعة الحادية عشرة والنصف.

في الساعة الحادية عشرة والنصف بالضبط دخل شاب طويل

القامة ذو ملامح ودودة لطيفة المكتب الخارجي وخاطب ألبرت قائلاً: هل يمكنني مقابلة السيد بلانت لو سمحت؟

قال ألبرت: ألديك موعدٌ يا سيدي؟

- لا أعرف بالضبط. نعم، أظن ذلك، أقصد أنني قد كتبت له رسالة.

- ما اسمك يا سيدي؟

- مونتغمري جونز.

- سأبلغ السيد بلانت بوصولك.

عاد بعد نصف دقيقة وقال: أرجو أن تنتظر بضع دقائق من فضلك؛ إن السيد بلانت مشغول في الوقت الحالي في مكالمة مهمة جداً.

- نعم، بالتأكيد.

حين رأى تومي أنه قد أعطى زبونه الانطباع المناسب ضرب الجرس على طاولته فقام ألبرت بإدخال السيد مونتغمري جونز إليه. نهض تومي لتحيته وصافحه بحرارة ثم أشار إليه بالجلوس على أحد الكراسي، ثم قال بقوة: حسناً، بماذا نستطيع أن نخدمك؟

نظر السيد مونتغمري جونز بتردد إلى الجالسة معهما في المكتب فبادره تومي قائلاً: إنها سكرتيرتي الموثوقة الآنسة روبنسون، تستطيع أن تتكلم أمامها بحرية تامة. أحسبها مسألة عائلية حساسة؟

- ليس ذلك تماماً.

- أرجو أن لا تكون أنت شخصياً قد وقعت في أية مشكلة؟

- آه، لا.

- حسناً، أرجو أن توضح لي الحقائق بصراحة.

ولكن بدا أن هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع السيد مونتغمري جونز عمله، إذ قال متردداً: إن ما سأطلبه منك أمر بالغ الغرابة. أنا... لا أدري كيف أبدأ.

- نحن لا نتعامل في قضايا الطلاق أبداً.

- آه، لا؛ لا أقصد هذا. إنها مجرد... إنها مزحة سخيفة لعينة، هذا كل ما في الأمر.

- هل قام شخص بعمل مقلب ذي طبيعة غامضة معك؟

لكن السيد مونتغمري جونز هزّ رأسه نافياً مرة أخرى.

قال تومي وهو يخفف من لهفته: حسناً، خذ ما تريده من وقت ودعنا نسمع القصة منك أنت.

ساد الصمت، ثم قال السيد جونز أخيراً: كان ذلك على العشاء، وقد جلست بجانب فتاة.

قال تومي مشجعاً: نعم؟

- كانت... آه، لا أستطيع وصفها، لكنها كانت من أكثر الفتيات اللاتي رأيتُهنّ جمالاً. إنها أسترالية قدمت إلى هذه البلاد مع

فتاة أخرى تقاسمها شقة في شارع كلارجس... لا أستطيع أن أصف لك التأثير الذي تركته تلك الفتاة في نفسي.

قالت توبنس: نستطيع أن نتصور ذلك تماماً يا سيد جونز.

بدا لها أن انتزاع متاعب هذا السيد من صدره يتطلب لمسة أنثوية متعاطفة تختلف عن أساليب السيد بلانت العملية. قالت توبنس مشجّعة: نستطيع أن نفهم.

قال السيد جونز: حسناً، كان الأمر صدمة شديدة على نفسي؛ أن تستطيع فتاة أن تأسرني بهذه الطريقة! لم يكن الزواج من الأمور التي أفكر فيها، ثم جاء جلوسي إلى جانب هذه الفتاة دونما توقع، وكأنها خرجت من تحت الأرض، و...

أكملت توبنس عبارته بصوت مرتفع: وتغيّر العالم كله.

تململ تومي في جلسته كمن نفد صبره، فقد ملّ من سرد السيد مونتغمري جونز لحكايته العاطفية الطويلة!

قال السيد جونز: لقد عبّرتِ عن مشاعري أفضل تعبير؛ هذا هو ما شعرت به تماماً... إلاّ أنني أظن أنها لم تعرني كبير اهتمام. لست بالذكي جداً، رغم أنكما قد لا تظنان ذلك.

قالت توبنس: آه، لا تكن متواضعاً إلى هذا الحد.

رد عليها السيد جونز مبتسماً: أدرك أنني لست بالرجل المتميز، ليس بالنسبة إلى فتاة رائعة كهذه، وهذا ما يجعلني أشعر بأن عليّ أن أنفذ هذه الفكرة. إنها فرصتي الوحيدة، فهي فتاة رقيقة المشاعر بحيث لا أظنها تتراجع في كلمتها أبداً.

قالت توبنس بلطف: جيد، نتمنى لك حظاً موفقاً. لكن لا أفهم بالضبط ما الذي تريد منّا عمله.

- آه، يا إلهي! ألم أوضح لكم؟

قال تومي: نعم، أنت لم توضح أي شيء.

- حسناً، جرى الأمر كالتالي: كنّا نتكلم عن القصص البوليسية. إن أونا (وهذا هو اسمها) شغوفة بتلك القصص مثلي. وقد تحدثنا عن قصة معينة كانت كل عقدتها تتوقف على الدفع بالغيبة عن مكان الجريمة، ثم بدأنا نتحدث عن حالات الدفع بالغيبة وعن إمكانية تزويرها. ثم قلت... لا، هي التي قالت... لا أدري مَن منّا الذي قالها...

قالت توبنس: لا يهم أي منكما الذي قالها.

- قلت إن تزييف دليل على وجود المتهم في مكان آخر عند وقوع الجريمة يُعَدُّ عملاً صعباً، لكنها خالفتني الرأي وقالت إن هذا لا يحتاج إلاّ إلى بعض الذكاء. وقد تحمسنا لذلك الموضوع وانفعلنا إزاءه، وفي نهاية الأمر قالت: سوف أقدم لك عرضاً سخياً. بماذا تراهن على أن باستطاعتي تقديم دفع بالغيبة لا يمكن دحضه؟ قلت لها: إنني أراهن على أي شيء تريد، واتفقنا على ذلك عندها. كانت واثقة تماماً من قدرتها وقالت: إن نجاحي مرجح كما أراه. قلت لها: لا تكوني واثقة جداً من هذه المسألة، افترضي أنك خسرت ثم طلبتُ منك أي شيء أريده؟ فضحكت وقالت إنها سليلة أسرة مقامرة وإن باستطاعتي طلب أي شيء منها.

وعندما سكت السيد جونز ونظر إلى توبنس مستنجداً قالت: حسناً؟

- ألا ترين؟ إن الكرة في ملعبي؛ إنها الفرصة الوحيدة التي أملكها لحمل فتاة كهذه على القبول بي زوجاً. لا يمكنك تخيل مدى استعدادها للرهان والمجازفة؛ في الصيف الماضي خرجت في قارب وراهنها شخص على أنها لا تستطيع أن تقفز من القارب وتسبح بكامل ملابسها حتى تصل إلى الشاطئ لكنها فعلت ذلك!

قال تومي: إنه عرض غريب، لست واثقاً تماماً من أنني فهمته بعد.

- إنها مسألة في غاية البساطة. لا بد أنك تعمل بمثل هذه الموضوعات طوال الوقت؛ التحقيق في الحالات الزائفة للدفع بالغيبة، أي بادعاء المجرمين أنهم كانوا في غير موقع الجريمة... ولا شك أنك تبحث في الأخطاء التي ارتكبوها لدحض ادعاءاتهم.

قال تومي: آه، نعم، بالطبع. إننا نقوم بالكثير من هذه الأعمال.

- لا بد أن يقوم أحدٌ بذلك نيابةً عني؛ فأنا لا أصلح لهذا العمل شخصياً. ما عليك إلاّ أن تمسك بها وتكشفها ثم يكون كل شيء على ما يرام. أظن أن هذا يبدو لك عملاً لا طائل منه، ولكنه يعني لي الكثير، كما أنني مستعد لأن أدفع أي تكاليف تطلبها.

قالت توبنس: لا بأس في ذلك؛ أنا واثقة من أن السيد بلانت سيقوم بحل هذه القضية لك.

قال تومي: بالتأكيد، بالتأكيد. إنها قضية فيها الكثير من الجِدّة والمتعة. نعم، الكثير من الجدة والتغيير.

تنهد السيد جونز بارتياح وأخرج من جيبه مجموعة أوراق فاختار واحدة منها ثم قال: ها هي؛ تقول: إنني مرسلة إليك بدليل على أنني كنت في مكانين مختلفين في وقت واحد، فحسب إحدى الروايتين قمتُ بتناول العشاء في مطعم تيمبس في حي سوهو وحدي، ثم ذهبت إلى مسرح ديوك ثم تناولت وجبة متأخرة مع صديق يدعى السيد لي مارشنت في فندق سافوي... لكنني أيضاً كنت أقيم في فندق كاسل في توركيه ولم أعد إلى لندن إلاّ في صباح اليوم التالي. وعليك أن تكتشف أي الروايتين هي الصحيحة وكيف نجحتُ في تلفيق الرواية الأخرى.

ثم قال السيد جونز: أنت ترى الآن ما هو المطلوب منك.

قال تومي: مشكلة صغيرة مثيرة، بسيطة تماماً.

- ها هي صورة أونا؛ سوف تحتاج إليها.

سأله تومي: وما هو اسم الفتاة بالكامل؟

- الآنسة أونا دريك، وعنوانها هو ١٨٠ شارع كلارجس.

- شكراً لك. حسناً، سننظر في هذه المسألة يا سيد جونز، وأرجو أن نحصل لك على أخبار طيبة في القريب العاجل.

قال السيد جونز وهو ينهض مصافحاً تومي: إنني ممتنّ لك إلى أبعد حد، لقد أزحت عن كاهلي عبئاً كبيراً.

* * *

بعد أن شيّع تومي زبونه إلى الخارج عاد إلى مكتبه. كانت توبنس عند الخزانة التي تحتوي على أمهات الكتب البوليسية، وقالت: المفتش فرنش!

- ماذا؟

- المفتش فرنش بالطبع. كان دوماً مختصاً بقضايا الدفع بالغيبة! أعرف تماماً الإجراء الذي ينبغي اتباعه؛ علينا أن نمر على كل الحقائق ونختبرها. ستبدو الدلائل في البداية مقنعة لا غبار عليها، ولكن عندما نتفحصها من قرب سنتمكن من العثور على الخلل فيها.

وافقها تومي: لا بد أن هذا الأمر سهل. أقصد أن معرفتك بأن إحدى الروايتين مزيفة تجعلك واثقة من أن الرواية الأخرى صحيحة... هذا ما يقلقني.

- لا أرى في هذا ما يدعو إلى القلق.

قال تومي: إنني قلق على الفتاة، فهي قد تُجبَر على الزواج بذلك الشاب سواء أكانت تريده أم لا.

قالت توبنس: لا تكن أحمق يا عزيزي. إن النساء لسن أبداً بالمقامرات المجازفات كما يبدو عليهن، وما لم تكن هذه الفتاة على استعداد تام للزواج بذلك الشاب اللطيف (رغم رأسه الفارغ) لما كانت ستوقع نفسها في مثل هذا الرهان. ولكن صدقني يا تومي، ستكون حماستها للزواج به واحترامها له إذا ربح الرهان أكبر مما لو اضطرت لتسهيل الحل له بطريقة أخرى.

قال زوجها: أنت تظنين حقاً أنك عالمة بكل الأمور.

- نعم، أظن ذلك.

قال تومي وهو يقرب الأوراق إليه: والآن لنتفحص ما لدينا من حقائق. أولاً: الصورة. إنها فتاة جميلة، والصورة واضحة ويسهل التعرف على صاحبتها.

قالت توبنس: يجب أن نحضر صور فتيات غيرها.

- لماذا؟

- إنه يفعلون ذلك دائماً. تعرض على النادل أربعة أو خمسة من هذه الصور فيختار الصورة الصحيحة من بينها.

- أحقاً؟ أعني هل يختار الصورة المطلوبة؟

- هذا ما يحدث في الروايات.

- من المؤسف أن الحياة الحقيقية مختلفة عن الخيال القصصي. ماذا لدينا الآن هنا؟ نعم، هذه البيانات المتعلقة بزعمها أنها كانت في لندن. تعشّت في مطعم تيمبس في الساعة السابعة والنصف، ثم ذهبت إلى مسرح ديوك وشاهدت مسرحية «أزهار الديلفينيوم الزرقاء»، ومرفق بذلك النصف الآخر من تذكرة المسرح. ثم تناولت وجبة متأخرة في فندق سافوي مع السيد لي مارشنت. أظن أننا نستطيع مقابلة السيد لي مارشنت هذا؟

قالت توبنس: لكن هذا لن ينفعنا بشيء؛ لأنه إن كان يساعدها في هذا الأمر فمن الطبيعي أن لا يفضح أمرها.

- حسناً، ها هي وثائق زعمها الآخر أنها كانت في توركيه. انطلقت في الساعة الثانية عشرة من بادنغتون، وتناولت الغداء في مطعم القطار (مرفق فاتورة الطعام)، ثم باتت ليلة واحدة في فندق كاسل (مرفق فاتورة الفندق أيضاً).

قالت توبنس: أعتقد أنها كلها أدلة ضعيفة؛ فأي شخص يستطيع شراء تذكرة مسرح دون الحاجة لذهابه إلى المسرح. ربما ذهبت الفتاة إلى توركيه فقط، أما رواية لندن فمجرد تلفيق.

- إن كان كذلك فإنها مهمة سهلة. أعتقد أن من الأفضل الذهاب لمقابلة السيد لي مارشنت.

* * *

ظهر أن السيد لي مارشنت شاب مرح، ولم تظهر عليه الدهشة كثيراً لرؤيتهما. سأل: لا شك أن أونا تقوم بلعبة ما، أليس كذلك؟ لا يعرف الإنسان ما تريده هذه الفتاة.

قال تومي: علمت -يا سيد لي مارشنت- أن الآنسة دريك تعشّت معك في فندق سافوي مساء يوم الثلاثاء الماضي؟

- هذا صحيح. أذكر أنه كان يوم ثلاثاء لأن أونا شدّدت عليه وقتها، بل إنها جعلتني أدوّنه في دفتر ملاحظاتي.

ثم أخرج دفتره وفتح على الصفحة المطلوبة وقد كتب عليها بخط الرصاص: «تناولت العشاء مع أونا، سافوي، الثلاثاء يوم التاسع عشر من الشهر».

- هل تعرف أين كانت الآنسة دريك في مساء ذلك اليوم قبل أن تأتي إليك؟

- كانت قد ذهبت لحضور أحد العروض المسرحية للباليه واسمه «الزنابق الوردية» أو اسماً من هذا النوع... مسرحية تافهة جداً كما أخبرتني.

- هل أنت واثق تماماً من أن الآنسة دريك كانت معك في المساء؟

حدّق السيد لي مارشنت إليه وقال: بالطبع، ألم أقل لك ذلك؟

قالت تونس: ربما تكون قد طلبَت منك أن تخبرنا بذلك.

- الواقع أنها قالت شيئاً بدا في غاية الغرابة. قالت: "أنت تعتقد أنك تجلس هنا تتعشى معي يا جيمي، لكن الحقيقة أنني أتناول العشاء الآن في ديفونشير على بعد مئتي ميل من هنا"! إن هذا كلام غريب جداً، أليس كذلك؟ يشبه روايات التناسخ السخيفة. والغريب في الأمر أن أحد أصدقائي ويدعى ديكي رايس اعتقد أنه شاهدها هناك.

- من هو السيد رايس هذا؟

- صديق لي. كان يقيم مع عمته في توركيه، وهي امرأة عجوز توشك على الموت دائماً، لكنها لا تموت! ذهب ديكي إلى هناك ليقوم بدور ابن الأخ الصالح، وقد قال لي: "رأيت تلك الفتاة الأسترالية في أحد الأيام هناك... تلك التي تدعى أونا... لا أعرف

بقية اسمها، وأردت أن أذهب وأتكلم معها لكن عمتي طلبت مني دفع كرسيها المتحرك لكي تذهب وتتحدث مع سيدة عجوز". قلت له: "متى كان ذلك؟" فقال: "يوم الثلاثاء عصراً، ساعة شرب الشاي تقريباً". وقد قلت له بالطبع إنه ارتكب خطأ، ولكن الأمر كان غريباً، أليس كذلك؟ أقصد قول أونا إنها كانت في ديفونشير في ذلك المساء؟

قال تومي: نعم، الأمر غريب جداً. أخبرني يا سيد لي مارشنت: هل تناول أحدٌ من معارفك العشاء قريباً منك في فندق السافوي؟

- نعم، عائلة تدعى أوغلاندر، وكانوا يجلسون على الطاولة المجاورة.

- وهل يعرف هؤلاء الآنسة دريك؟

- نعم، يعرفونها، ولكنهم ليسوا بالأصدقاء الحميمين.

* * *

قال تومي عندما خرجا إلى الشارع: إما أن هذا الرجل كذّاب بارع أو أنه يقول الحقيقة.

قالت تونس: نعم، لقد غيرت رأيي. أشعر الآن أن أونا دريك كانت تتناول العشاء في فندق السافوي تلك الليلة.

- سنذهب الآن إلى مطعم تمبس، فبعض الطعام لشرطيين سريين جائعيْن مفيد جداً. دعينا أولاً نأخذ بعض صور لفتيات.

كان ذلك أصعب مما كان متوقعاً، فقد كان دخولهما إلى أستوديوهات التصوير وطلبهما بعض الصور المختارة يواجَه برفض بارد.

صاحت توبنس: لماذا تكون كل الأشياء التي تبدو بسيطة سهلة في القصص في غاية الصعوبة في الواقع؟ لقد بدا المصورون مرتابين جداً من طلبنا. ماذا تراهم ظنوا السبب في طلبنا لهذه الصور؟ من الأفضل أن نذهب ونغير على شقة جين!

أثبتت صديقة توبنس حُسنَ ضيافة وسمحت لتوبنس بأن تبحث في أحد الأدراج وتختار أربع صور لصديقات لها سابقات ممن أصبحن في طي النسيان، ثم انطلقا إلى مطعم تيمبس ومعهما صور الفتيات حيث كانت بانتظارهما صعوبات جديدة ونفقات أكثر. كان على تومي الإمساك بكل نادل على حِدة ودفع إكرامية، ومن ثَم عرض الصور عليه. لم تكن النتيجة مُرضية؛ فقد قالوا إن ثلاثاً من صاحبات تلك الصور على الأقل تناولن العشاء هناك يوم الثلاثاء الماضي!

عاد الزوجان إلى المكتب حيث انكبّت توبنس على دليل القطارات، ثم قالت: الانطلاق من محطة بادنغتون في الساعة الثانية عشرة، الوصول إلى توركيه في الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة. هذا هو القطار، وقد رآها صديق السيد لي مارشنت هناك عصراً.

قال تومي: تذكري أننا لم نتأكد من شهادته بعد. إذا كان الأمر كما قلت في البداية وكان لي مارشنت صديقاً لأونا دريك فربما اخترع هذه القصة.

- سوف نبحث عن السيد رايس. لديّ إحساس بأن السيد لي مارشنت كان يقول الحقيقة. إن ما أحاول الوصول إليه الآن هو التالي: أونا دريك تغادر لندن في قطار الثانية عشرة وتحجز غرفة في أحد الفنادق وتضع فيها حقيبتها، ثم تأخذ قطاراً آخر وترجع فيه إلى المدينة فتصل في الوقت المناسب ثم تذهب إلى السافوي. يوجد قطار ينطلق من هناك في الرابعة وأربعين دقيقة ويصل إلى محطة بادنغتون في التاسعة وعشر دقائق.

قال تومي: وبعدها؟

- وبعدها يكون الأمر أكثر صعوبة. ثمة قطار في منتصف الليل ينطلق من بادنغتون إلى هناك مرة أخرى، ولكن لا يمكن أن تكون قد ركبت ذلك القطار لأن وقت وصولها سيكون مبكراً جداً.

اقترح تومي: سيارة سريعة؟

- يمكن. إنها مسافة مئتي ميل فقط.

- أعرف أن الأستراليين يقودون السيارات بسرعة طائشة وجنونية.

- أظن أن ذلك يمكن أن يحدث؛ ستصل إلى هناك في حدود الساعة السابعة.

- هل تريدين أن تقولي إنها انسلّت إلى غرفتها في فندق كاسل دون أن يراها أحد؟ أو أنها وصلت إلى هناك وأخبرتهم أنها قضت الليلة كلها في خارج الفندق ثم تقول: "من فضلكم أعطوني الفاتورة"؟

قالت توبنس: إننا مغفلان يا تومي! لم تكن بها أية حاجة لأن تعود إلى توركيه؛ لم يكن عليها إلاّ أن تطلب من صديقة لها الذهاب إلى الفندق هناك وجمع أمتعتها ودفع الفاتورة عنها، وفي هذه الحالة تأخذ فاتورة وعليها التاريخ الصحيح.

- أعتقد أننا قد توصلنا إلى فرضيات معقولة جداً، والشيء الذي ينبغي علينا عمله بعد ذلك هو اللحاق بقطار الثانية عشرة المتجه غداً إلى توركيه حتى نتحقق من استنتاجاتنا الذكية.

* * *

ركب تومي وتوبنس في عربة الدرجة الأولى في قطار صباح اليوم التالي متسلحَين بمجموعة من الصور، وحجزا مقعدَين لتناول الغداء في مطعم القطار.

قال تومي: قد لا يكون طاقم الخدمة هو نفسه الذي كان في ذلك اليوم، ولو كان الطاقم نفسه فسوف نكون محظوظين جداً. ربما اضطررنا إلى السفر إلى توركيه لعدة أيام ذهاباً وإياباً حتى نحظى بالطاقم نفسه.

قالت توبنس: إن موضوع الدفع بالغيبة هذا متعب جداً. في الروايات يمر كل شيء وينتهي في فقرتين أو ثلاث فقرات، حيث يقوم المفتش فلان بركوب القطار المتجه إلى توركيه ويسأل طاقم الخدمة في عربة الطعام، وهكذا تنتهي القصة!

لكن كان الزوجان الشابان محظوظَين هذه المرة؛ فقد أجاب خادم العربة الذي أحضر لهما فاتورة الغداء قائلاً إنه هو الذي كان

يعمل في نفس هذه العربة يوم الثلاثاء الماضي، فأخرجت توبنس الصور.

قال تومي: أريد أن أعرف إن كانت واحدة من هؤلاء السيدات قد تناولت الغداء في هذا القطار يوم الثلاثاء الماضي؟

وبسرعة عجيبة لا تكون إلا في أفضل الروايات البوليسية أشار الرجل وعلى الفور إلى صورة أونا دريك. قال: نعم يا سيدي، أتذكّر هذه السيدة وأتذكّر أن ذلك كان يوم الثلاثاء، لأن السيدة نفسها لفتت انتباهي إلى هذه الحقيقة عندما قالت إنه أفضل أيام الأسبوع حظاً بالنسبة إليها.

وعندما عاد الزوجان إلى مقصورتهما قالت توبنس: الوضع جيد حتى الآن، ومن المحتمل أن تكون قد حجزت لنفسها غرفة في الفندق. سيكون إثبات سفرها إلى لندن مرة أخرى أكثر صعوبة ولكن قد يتذكر أحد عمال المحطة ذلك.

لكنهما لم يحصلا على أي شيء من عمال المحطة، فقد ذهب تومي للاستفسار من محل التذاكر في الرصيف المقابل إضافة إلى سؤال الحمالين هناك، وبعد أن وزع هِباته على هؤلاء الحمالين كمقدمة لسؤالهم أشار اثنان منهم وبشكل غير مؤكد إلى أن صاحبة إحدى الصور الأخرى قد سافرت إلى المدينة بعد ظهر ذلك اليوم في قطار الرابعة وأربعين دقيقة، لكنهما لم يشيرا إلى صورة أونا دريك ولم يتعرفا عليها.

قالت توبنس وهما يغادران المحطة: لكن هذا لا يثبت شيئاً. ربما سافرت في ذلك القطار ولم يلحظها أحد.

- وربما رحلت من المحطة الأخرى، محطة توري.

- هذا محتمل جداً، ستتحقق من ذلك بعد ذهابنا إلى الفندق.

كان فندق كاسل كبيراً مطلاً على البحر، وبعد أن حجزا غرفة لليلة واحدة ووقّعا على السجل قال تومي بتودد: أظن أن إحدى صديقاتنا نزلت عندكم في هذا الفندق يوم الثلاثاء الماضي؟ اسمها الآنسة أونا دريك.

ابتسمت له الفتاة من وراء المكتب وقالت: آه، نعم، أتذكّرها جيداً. أظن أنها فتاة أسترالية.

بإشارة من تومي أخرجت توبنس صورتها وقالت: هذه صورة رائعة لها، أليس كذلك؟

- آه، رائعة جداً بالفعل، صورة ممتازة حقاً.

سألها تومي: هل أقامت هنا فترة طويلة؟

- ليلة واحدة فقط، ثم عادت في القطار السريع إلى لندن صباح اليوم التالي. إنها رحلة طويلة لمن أراد البقاء لليلة واحدة فقط، لكن أعتقد أن الأستراليات لا يكترثن بموضوع السفر.

قال تومي: إنها فتاة مغامرة جداً. أظنها قالت إنها خرجت إلى العشاء مع بعض الأصدقاء وذهبت في سيارتهم بعدها فسقطت السيارة في حفرة ولم تستطع العودة إلى الفندق حتى صباح اليوم التالي، أليس كذلك؟

قالت الفتاة: بل لقد تناولت الآنسة دريك عشاءها هنا في الفندق.

- حقاً؟ هل أنت متأكدة من هذا؟ أقصد... كيف علمت؟

- لقد رأيتها.

- سألتك لأنني علمت أنها كانت تتعشى مع بعض الأصدقاء في توركيه.

- لا يا سيدي، لقد تعشت هنا.

ضحكت الفتاة واحمرّ وجهها قليلاً ثم أضافت: أذكر أنها كانت ترتدي ثوباً جميلاً رائعاً، ثوباً من الشيفون المزيَّن بالورود.

عندما ذهبا إلى غرفتهما قال تومي: توبنس، إن هذا يبدد آمالنا.

- نعم إنه يبددها قليلاً. ولكن قد تكون تلك المرأة مخطئة بالطبع، سوف نسأل النادل على العشاء. لا يمكن أن يأتي إلى هنا الكثير من الناس في مثل هذا الوقت من العام.

كانت توبنس هي التي ابتدأت الهجوم هذه المرة. سألت النادل وهي تبتسم: هل يمكنك أن تخبرني عن صديقة لي كانت هنا يوم الثلاثاء الماضي؟ إنها تدعى الآنسة دريك وكانت ترتدي ثوباً مزيناً بالورود على ما أعتقد.

ثم أخرجت صورة وقالت: هذه هي صورتها.

النهاية؛ سيكون عقلنا الباطن مشغولاً جداً خلال الساعات القادمة.

ثم ذهبا إلى النوم بهذه الملاحظة المفعمة بالأمل.

* * *

في صباح اليوم التالي قال تومي: حسناً، هل عمل عقلك الباطن؟

- لقد جاءتني فكرة.

- حقاً؟ أية فكرة هذه؟

- إنها فكرة غريبة ولا تشبه أي شيء قرأته في الروايات البوليسية، والواقع أنك أنت الذي أدخلتها إلى رأسي.

قال تومي جازماً: إذن لا بد أن تكون فكرة جيدة! هيا يا توبنس، أخبريني بها.

- سيتوجب عليّ إرسال برقية حتى أتحقق منها. لا، لن أخبرك بها. إنها فكرة اعتباطية... رمية من غير رام، لكنها الشيء الوحيد الذي يطابق الحقائق.

- حسناً، يجب أن أذهب إلى المكتب؛ فلا ينبغي لي أن أترك المكتب يمتلئ بالزبائن القلقين الذين ينتظرونني عبثاً. إنني أترك هذه القضية بين يدي مساعدتي الواعدة.

أومأت توبنس مبتهجة.

* * *

لم تذهب توبنس إلى المكتب طوال النهار، وعندما عاد تومي ذلك المساء في الخامسة والنصف تقريباً وجد توبنس في انتظاره متهللة فرحة.

قالت: لقد فعلتها يا تومي؛ حللتُ اللغز. نستطيع الآن تغريم السيد مونتغمري جونز كل هذه النقود التي دفعناها بقشيشاً ورسائل إضافة إلى طلب أجر عال منه، ويستطيع هو أن يذهب ويأخذ فتاته.

- وما هو الحل؟

- إنه بسيط للغاية... توأم.

- ماذا تقصدين بالتوأم؟

- التوأم يعني التوأم... إنه الحل الوحيد بالطبع. أعتقد أنك أنت الذي وضع هذه الفكرة في رأسي ليلة أمس عندما تحدثت عن الحموات والتوائم. لقد أبرقت إلى أستراليا وحصلت على المعلومات التي أردتها؛ توجد لأونا أخت توأم اسمها فيرا، وقد وصلت إلى إنكلترا يوم الإثنين الماضي، وهذا ما جعلها تقبل هذا الرهان بكل هذا الاستعداد. اعتقدَت أنها ستكون مزحة ثقيلة تنطلي على مونتغمري جونز المسكين. أختها هذه هي التي ذهبت إلى توركيه بينما ظلت هي في لندن.

سألها تومي: هل تعتقدين بأنها ستأسى لخسارتها كثيراً؟

- لا، لا أعتقد ذلك، لقد قلتُ لك رأيي بهذا الخصوص من قبل. وسوف نعزو الفضل كله لمونتغمري جونز؛ فقد آمنتُ

عن أوغلاندر هذا وزوجته، كما يجب أن تقوم ببعض التحقيقات في شقة الآنسة دريك في شارع كلارجس.

* * *

في صباح اليوم التالي دفعا فاتورتهما وغادرا الفندق خائبين.

كان البحث عن أوغلاندر وزوجته سهلاً جداً بمساعدة من دليل الهاتف. قامت توبنس بالمبادرة هذه المرة وانتحلت شخصية مندوبة صحيفة مصورة جديدة، وقد زارت السيدة أوغلاندر طالبة بعض التفاصيل عن حفلة العشاء الأنيقة التي حضرتها مع زوجها مساء الثلاثاء الماضي في السافوي. وكانت السيدة أوغلاندر على استعداد تام لتزويدها بتلك المعلومات، وعندما أرادت المغادرة أضافت توبنس بلا مبالاة: تذكرت، ألم تكن الآنسة دريك تجلس على طاولة بجانبكم؟ هل صحيح أنها مخطوبة لدوق بيرث؟ أنت تعرفينها بالطبع.

قالت السيدة أوغلاندر: أعرفها معرفة بسيطة. نعم، كانت تجلس على الطاولة المجاورة لنا مع السيد لي مارشنت، وبناتي يعرفنها أفضل مني.

كانت الزيارة التالية لتوبنس إلى الشقة في شارع كلارجس، وهناك رحبت بها الآنسة مارجوري ليستر، وهي صديقة الآنسة دريك التي تشاركها الشقة.

سألتها الآنسة ليستر بصراحة: أرجو أن تخبريني ما هذا الأمر؟ إن أونا تقوم بلعبة كبيرة ولا أعرف ما هي. طبعاً نامت هنا ليلة الثلاثاء.

- هل رأيتها عندما دخلت الشقة؟

- لا، كنت قد نمت. كان معها مفتاحها بالطبع، وأظن أنها دخلت الشقة في الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً.

- متى رأيتها؟

- صباح اليوم التالي في التاسعة تقريباً... أو ربما كانت قريباً من العاشرة.

وعندما كانت توبنس تغادر الشقة كادت تصطدم بفتاة طويلة القامة نحيلة كانت داخلة. قالت الفتاة: أرجو المعذرة يا آنسة.

سألتها توبنس: هل تعملين هنا؟

- نعم يا آنسة، إنني آتي إلى هنا يومياً.

- متى تصلين إلى هنا؟

- في التاسعة صباحاً.

وضعت توبنس قطعة نقدية في يد الفتاة وقالت: هل كانت الآنسة دريك هنا صباح الثلاثاء الماضي عندما دخلت الشقة؟

- نعم يا آنسة، كانت موجودة بالتأكيد. كانت تغطّ في نوم عميق ولم تستيقظ من نومها عندما أدخلت لها الشاي إلا بصعوبة.

- شكراً لك.

قالتها توبنس ونزلت الدرج جزعةً.

* * *

كانت قد رتبت الالتقاء مع تومي لتناول الغداء في مطعم صغير في حي سوهو، وهناك شرعا في مقارنة الملاحظات.

قال تومي: لقد رأيت ذلك الرجل رايس، ومن الصحيح تماماً أنه رأى أونا دريك في توركيه من بعيد.

قالت توبنس: حسناً، لقد تحققنا من هذه الأدلة بلا شك. أعطني ورقة وقلماً يا تومي، دعنا ندوّن هذه البيانات بدقة كما يفعل جميع رجال التحري.

الساعة ١,٣٠ بعد الظهر: شوهدت أونا دريك في عربة الطعام في القطار.

الساعة ٤ عصراً: وصلت إلى فندق كاسل.

الساعة ٥ بعد العصر: رآها السيد رايس.

الساعة ٨ مساء: شوهدت تتناول عشاءها في الفندق.

الساعة ١١,٣٠ ليلاً: شوهدت في السافوي مع السيد لي مارشنت.

الساعة ٧,٣٠ صباحاً: دخلت عليها خادمة الغرفة في فندق كاسل.

الساعة ٩ صباحاً: رأتها خادمة الشقة التي تسكن فيها.

تبادلا النظرات، ثم قال تومي: يبدو لي أن رجال تحري بلانت قد هُزموا.

– آه، يجب أن لا نستسلم! لا بد أن شخصاً ما يكذب.

– الغريب في الأمر أنني لا أشعر أن أحداً يكذب؛ يبدو أنهم جميعاً صادقون تماماً ومستقيمون.

– ومع ذلك لا بد من وجود خلل ما... إننا نعرف أن هناك خللاً.

– أنا أميل إلى نظرية التناسخ!

قالت توبنس: الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو أن تنام وأنت تفكر في الأمر، فعقلك الباطن يعمل في أثناء النوم.

– إن أعطاك عقلك الباطن إجابة جيدة على هذا اللغز صباح الغد فإنني سأرفع قبعتي احتراماً له.

بقيا صامتَين لوقت طويل. كانت توبنس تراجع بين آن وآخر الورقةَ التي كتبت عليها الأوقات، وكتبت على قطعة من الورق بعض الأشياء، وتمتمت مع نفسها كلاماً، وراجعت حائرة دليل حركة القطارات... وفي نهاية الأمر نهض الاثنان إلى النوم دون أي بصيص من الأمل لحل هذه المشكلة.

قال تومي: يا له من عمل مثبط للهمة!

– فعلاً، إنها ليلة من أكثر الليالي التي قضيتها تعاسة.

– ليتنا ذهبنا لمشاهدة استعراض كوميدي! إن قليلاً من النكات عن الحموات والتوائم كان من شأنها أن تفيد نفسياتنا كثيراً.

– على أي حال سترى أن هذا التركيز سوف يؤدي إلى نتيجة في

النهاية؛ سيكون عقلنا الباطن مشغولاً جداً خلال الساعات القادمة.

ثم ذهبا إلى النوم بهذه الملاحظة المفعمة بالأمل.

* * *

في صباح اليوم التالي قال تومي: حسناً، هل عمل عقلك الباطن؟

- لقد جاءتني فكرة.

- حقاً؟ أية فكرة هذه؟

- إنها فكرة غريبة ولا تشبه أي شيء قرأته في الروايات البوليسية، والواقع أنك أنت الذي أدخلتها إلى رأسي.

قال تومي جازماً: إذن لا بد أن تكون فكرة جيدة! هيا يا توبنس، أخبريني بها.

- سيتوجب عليّ إرسال برقية حتى أتحقق منها. لا، لن أخبرك بها. إنها فكرة اعتباطية... رمية من غير رام، لكنها الشيء الوحيد الذي يطابق الحقائق.

- حسناً، يجب أن أذهب إلى المكتب؛ فلا ينبغي لي أن أترك المكتب يمتلئ بالزبائن القلقين الذين ينتظرونني عبثاً. إنني أترك هذه القضية بين يدي مساعدتي الواعدة.

أومأت توبنس مبتهجة.

* * *

لم تذهب توبنس إلى المكتب طوال النهار، وعندما عاد تومي ذلك المساء في الخامسة والنصف تقريباً وجد توبنس في انتظاره متهللة فرحة.

قالت: لقد فعلتها يا تومي؛ حللتُ اللغز. نستطيع الآن تغريم السيد مونتغمري جونز كل هذه النقود التي دفعناها بقشيشاً ورسائل إضافة إلى طلب أجر عال منه، ويستطيع هو أن يذهب ويأخذ فتاته.

- وما هو الحل؟

- إنه بسيط للغاية... توأم.

- ماذا تقصدين بالتوأم؟

- التوأم يعني التوأم... إنه الحل الوحيد بالطبع. أعتقد أنك أنت الذي وضع هذه الفكرة في رأسي ليلة أمس عندما تحدثت عن الحموات والتوائم. لقد أبرقت إلى أستراليا وحصلت على المعلومات التي أردتها؛ توجد لأونا أخت توأم اسمها فيرا، وقد وصلت إلى إنكلترا يوم الإثنين الماضي، وهذا ما جعلها تقبل هذا الرهان بكل هذا الاستعداد. اعتقدَت أنها ستكون مزحة ثقيلة تنطلي على مونتغمري جونز المسكين. أختها هذه هي التي ذهبت إلى توركيه بينما ظلت هي في لندن.

سألها تومي: هل تعتقدين بأنها ستأسى لخسارتها كثيراً؟

- لا، لا أعتقد ذلك، لقد قلتُ لك رأيي بهذا الخصوص من قبل. وسوف نعزو الفضل كله لمونتغمري جونز؛ فقد آمنتُ

دوماً بأن احترام قدرات الزوج وتقديره يجب أن يكونا أساس الحياة الزوجية الناجحة.

- أنا سعيد لأنني استطعت الإيحاء لك بهذه المشاعر يا توبنس.

- إنه ليس حلاً مرضياً في الواقع؛ إنه ليس من طراز تلك الألغاز الذكية التي كان من شأن المفتش فرنش أن يكتشفها.

- هراء! أعتقد أن طريقة عرضي للصور على النادل في المطعم هي طريقة المفتش فرنش تماماً.

- ولكنه لم يضطر لدفع نصف الإكراميات التي يبدو أننا دفعناها.

- لا يهم؛ نستطيع استعادتها كلها بإضافتها إلى الرسوم التي سنتقاضاها من السيد جونز. سيكون في منتهى السعادة ممّا يجعله يدفع أكبر فاتورة دون النظر إليها.

- عليه أن يدفع. ألم يكن مكتب بلانت للتحريات الدولية ناجحاً جداً؟ آه، أعتقد أننا أذكياء ذكاء غير عادي يا تومي... هذا يخيفني أحياناً.

- لتكن قضيتنا التالية من طراز قضايا المفتش روجر شيرنغهام، ولتلعبي أنت دور روجر شيرنغهام يا توبنس.

- سيتوجب عليّ الحديث كثيراً إذن.

- أنت تفعلين هذا بطبيعة الحال! والآن أقترحُ عليك

تنفيذ برنامجي الذي ذكرتُه في الليلة الماضية والخروج لحضور أمسية فكاهية، حيث نستمع إلى كثير من النكات عن الحموات والتوائم!

* * *

الفصل الثالث عشر

ابنة الكاهن

قالت توبنس وهي تتجول مكتئبة في المكتب: أتمنى لو نستطيع مساعدة ابنة كاهن.

سألها تومي: لماذا؟

هل نسيت أنني أنا نفسي كنت ابنة كاهن ذات يوم، وأتذكر كيف تشعر الفتاة في مثل هذه الحال. فمن هذا المنشأ تأتي تلك النزعة إلى احترام الآخرين والاهتمام بهم، تلك...

- ها أنت تستعدين لتقمص دور المحقق روجر شيرنغهام. إذا سمحت لي أن أنتقدك فإنني أقول إنك تكثرين من الكلام كما يفعل، وإن كان كلامك أقل بلاغة.

- بالعكس؛ إن في حديثي دهاء أنثوياً وكَيداً لا يمكن أن يتوفر لأي رجل قَط، كما أنني أمتلك قوى لا تمتلكها مثيلاتي... أتراني أعني مثيلاتي حقاً؟ لطالما تفتقر الكلمات إلى المعنى اليقيني المحدد؛ غالباً ما يظنها المرء مناسبة صحيحة ولكنها تعني عكس ما يريده.

قال تومي بلطف: حسناً، أكملي.

- سأكمل، فقد سكتُّ لألتقط أنفاسي فقط. إن أمنيتي اليوم وأنا أتحسس قواي هذه أن أساعد ابنة كاهن. سترى -يا تومي- أن أول شخص يطلب مساعدة مكتب التحريات الدولية اليوم سيكون ابنة كاهن.

- أراهنك على أنها لن تكون كذلك.

- قبلتُ الرهان. اسكت، هناك شخص قادم! إلى آلات الطباعة.

بدأ مكتب السيد بلانت يهدر بأصوات الآلات الطابعة، ثم فتح ألبرت الباب وقال: الآنسة مونيكا داين.

دخلت فتاة نحيفة ذات شعر بني وثياب مهلهلة بعض الشيء، ووقفت قرب الباب مترددة. تقدم تومي نحوها وقال: صباح الخير آنسة داين. ألا تجلسين وتخبرينا عما نستطيع عمله لك؟ وبالمناسبة، هذه سكرتيرتي الآنسة شيرنغهام.

قالت توبنس: يسعدني التعرف عليك آنسة داين. أظن أن أباك كان في الكنيسة؟

- نعم، ولكن كيف عرفت؟

- آه، لدينا طرقنا الخاصة. أرجو أن لا تؤاخذيني على المشاركة في الحديث؛ فالسيد بلانت يحب أن يسمعني أتكلم، فهو يعتقد أن كلامي يوحي له دائماً بأفكار.

حدقت الفتاة إليها. لم تكن بالفتاة الجميلة ولكنها كانت تملك حُسْناً حزيناً؛ كان شعرها كثيفاً ناعماً وعيناها شديدتَي الزرقة جميلتين رغم أن الظلال القاتمة حولهما تنبئ بالمتاعب والقلق.

قال تومي: هلاّ أخبرتني بقصتك يا آنسة داين؟

التفتت الفتاة إليه بامتنان وقالت: إنها قصة طويلة ومعقدة. اسمي مونيكا داين، وقد كان والدي قسيساً في كنيسة ليتل هامبسلي في سافوك، ثم مات قبل ثلاث سنوات وتركني مع أمي في حالة فقر شديد. وقد ذهبت لأعمل مربية أطفال، ولكن أمي أصبحت مقعدة تماماً فتوجَبَ عليّ أن أعود إلى بلدتي للاعتناء بها. كنا فقيرتَين إلى حد اليأس، وذات يوم تلقينا رسالة من أحد المحامين يخبرنا فيها بأن إحدى عمات والدي قد ماتت وتركت لي كل شيء. كنت أسمع عن عمتي هذه كثيراً، وكانت قد تشاجرت مع والدي قبل سنوات عديدة، وكنت أعرف أنها غنية جداً ولذلك بدا أن مشكلاتنا توشك أن تنتهي. لكن الأمور لم تَجرِ كما كنا نأمل؛ فقد ورثتُ البيت الذي عاشت فيه، ولكن بعد أن دفعنا بعض الهبات الصغيرة التي نصّت عليها الوصية لم يبقَ أيّ مال. لعلها فقدت أموالها في أثناء الحرب أو ربما كانت تعيش بأموالها تلك دون استثمار، ومع ذلك كان لدينا البيت وجاءتنا فرصة على الفور لبيعه مقابل سعر جيد، لكني رفضت العرض، وربما كان ذلك حماقة من جانبي. كنا نقيم في منزل صغير لكن أجرته عالية، فاعتقدت أنه من الأفضل أن نعيش في ذلك البيت الذي يُدعى «البيت الأحمر». ظننت أنه يمكن أن أسكن ووالدتي في غرفة مريحة منه في حين نقوم بتأجير بقية البيت كغرف مفروشة لتغطية نفقاتنا، وقد تمسكت بهذا الموقف على الرغم من أنني

تلقيت عرضاً أكثر إغراء من الرجل الذي كان يريد شراءه. فانتقلنا إلى العيش فيه ونشرت إعلاناً لتأجير غرفه لمن يرغب من النزلاء. سار كل شيء جيداً لبعض الوقت، فقد استجاب لإعلاناتنا الكثيرون وظلت خادمة عمتي تعيش معنا وكنا نقوم معاً بأعمال البيت. ثم بدأت تلك الأشياء التي لم نحسب لها حساباً في الظهور.

- أية أشياء؟

- أشياء غريبة. بدا البيت مسحوراً؛ كانت اللوحات والصور تتساقط والأواني الفخارية تتكسر، وذات صباح نزلنا فوجدنا أن كل الأثاث قد قُلب رأساً على عقب! ظننا في البداية أن شخصاً ما كان يلعب معنا مزحة سمجة، لكننا اضطررنا إلى التخلي عن هذا التفسير بعد ذلك. أحياناً عندما كنا نجلس حول المائدة لتناول العشاء كنا نسمع أصوات أشياء تتحطم في الطابق العلوي، فنصعد فلا نجد أحداً هناك، لكننا كنا نجد قطعة من الأثاث وقد ألقيت على الأرض بعنف.

صاحت توبنس باهتمام بالغ: عفريت مؤذ!

- نعم، هذا ما قاله الدكتور أونيل... بالرغم من أنني لا أفهم هذه الأمور.

قالت توبنس التي لا تعرف في الحقيقة الكثير عن هذا الموضوع أيضاً: إنه نوع من الروح الشريرة تمارس اللهو والعبث!

- على أية حال كان تأثير ذلك علينا كارثة؛ فقد أصيب نزلاؤنا بالذعر وغادروا بسرعة. جاءنا نزلاء جدد لكنهم أيضاً تركوا

البيت بسرعة، فصرت يائسة، وزاد من مشكلتنا أنّ دخلنا الخاص الصغير قد انقطع فجأة لأن الشركة التي كنا نستثمر فيها ما تبقّى لدينا أفلست.

قالت توبنس متعاطفة: أيتها المسكينة، لقد قاسيت الكثير! هل تريدين من السيد بلانت أن يحقق في موضوع هذه الأشباح؟

- ليس هذا تماماً. قبل ثلاثة أيام زارنا رجل اسمه الدكتور أونيل، أخبرنا أنه عضو في جمعية الأبحاث الطبيعية وأنه سمع عن الظواهر الغريبة التي كانت تحدث في بيتنا فأثار ذلك اهتمامه، وهكذا أعرب عن استعداده لشراء البيت منا حتى يجري سلسلة من التجارب فيه.

- حسناً؟

- في البداية غلبتني الفرحة بالطبع؛ فقد بدا العرض مَخرجاً من متاعبنا كلها. ولكن...

- نعم؟

- قد تعتقدون أنني أتوهم، وربما كنت أتوهم فعلاً. ولكن... آه، أنا واثقة من أنني لم أخطئ؛ كان هو الرجل نفسه!

- أي رجل؟

- نفس الرجل الذي أراد أن يشتري البيت من قبل. آه، إنني متأكدة من صحة كلامي.

- ولكن لماذا لا يكون رجلاً غيره؟

- كان الرجلان مختلفَين تماماً في الاسم وفي كل شيء؛ فالأول كان شاباً أنيقاً أسمر البشرة في نحو الثلاثين من عمره، أما الدكتور أونيل فهو في الخمسين من عمره تقريباً وله لحية بيضاء ويضع نظارة وهو محدودب الظهر. لكنه عندما تكلم رأيت ضرساً ذهبياً على أحد جانبَي أسنانه لا يظهر إلا عندما يضحك، وكان للرجل الآخر ضرس ذهبي في المكان ذاته تماماً. ثم نظرت إلى أذنيه، وكنت قد لاحظت أذنَي الرجل الآخر لأن شكلهما كان غريباً وليست له شحمة أذن تقريباً، وكان الدكتور أونيل يشبهه تماماً في هذه الصفة. لا يمكن أن يكون هذان التشابهان مصادفة، أليس كذلك؟ فكرت في هذا وفكرت، وفي نهاية الأمر كتبت له رسالة وأخبرته بأنني سأبلغه بقراري خلال أسبوع. كنت قد قرأت إعلان السيد بلانت في إحدى الصحف قبل مدة طويلة، والواقع أنها كانت صحيفة قديمة مفروشة في أحد أدراج المطبخ، فقطعت ذلك الإعلان وجئت إلى المدينة.

قالت توبنس وهي تومئ برأسها بقوة وحماسة: أنت على حق، فهذا الأمر يحتاج إلى بحث وتدقيق.

قال تومي: إنها قضية مثيرة جداً يا آنسة، وسوف يسعدنا أن نبحث فيها، أليس كذلك يا آنسة شيرنغهام؟

قالت توبنس: نعم، وسوف نكتشف لك الحقيقة أيضاً.

أكمل تومي يقول: فهمت -يا آنسة داين- أن ساكني البيت هم أنت ووالدتك وخادمة، فهل يمكن أن تعطيني أية معلومات عن الخادمة؟

- اسمها كروكيت. وقد عملَت عند عمتي لمدة تقرب من ثماني سنوات أو عشر. إنها امرأة كهلة وأسلوبها ليس محبباً جداً، ولكنها خادمة جيدة، وهي تميل إلى إعطاء نفسها أهمية لأن أختها تزوجت رجلاً في مركز اجتماعي مرموق. ويوجد لكروكيت ابن أخ تقول لنا عنه دائماً إنه الرجل المحترم حقاً.

همهم تومي ولم يدرِ كيف يواصل حديثه. كانت توبنس تنظر إلى مونيكا نظرات متفحصة، وفجأة قالت بجزم: أعتقد أن أفضل ما يمكن للآنسة داين عمله هو أن تخرج وتتناول غداءها معي، فالساعة الآن الواحدة. وأستطيع أن أحصلَ منها على التفصيلات كلها في أثناء الغداء.

قال تومي: بالتأكيد يا آنسة شيرنغهام، فكرة رائعة.

وعندما جلستا إلى طاولة صغيرة في مطعم قريب قالت توبنس: لو سمحت، أريد أن أعرف: هل هناك أي سبب خاص لرغبتك في كشف الحقيقة؟

احمرّ وجه مونيكا وقالت: حسناً، تعلمين...

قالت توبنس مشجّعة: هيا، تكلمي.

- حسناً، يوجد رجلان يريدان... يريدان الزواج بي.

- أظن أنها القصة المعتادة؟ واحد غني وواحد فقير، وأنت تميلين إلى الفقير.

قالت الفتاة: لا أدري كيف تعرفين كل هذه الأشياء.

أوضحت توبنس تقول: أصبح هذا أشبه بقوانين الطبيعة، وهو يحدث مع كل شخص. لقد حدث معي!

- حتى لو بعت المنزل فإنه لن يكون مبلغاً كافياً نعيش به. إن جيرالد شخص عزيز لكنه فقير جداً، بالرغم من أنه مهندس ذكي جداً، وإذا ما حصل على رأس مال صغير فإن شركته ستقبله شريكاً فيها. أما الآخر، السيد بارتريدج، فهو رجل طيب جداً وغني، وإذا ما تزوجته فسيكون ذلك نهاية لجميع متاعبنا ومشكلاتنا. ولكن، لكن...

قالت توبنس متعاطفة: أعرف؛ ليس الزواج به كالزواج بالآخر. تستطيعين إقناع نفسك كم هو طيب ويستحق أن يكون زوجاً لك، ثم تضيفين صفاته الأخرى وكأنها مبلغ إضافي فتصابين بالفتور تجاهه.

أومأت مونيكا بالإيجاب، فقالت توبنس: حسناً، أظن أن من الأفضل لنا أن نذهب إلى المنطقة وندرس الوضع على الطبيعة. ما هو العنوان؟

ذكرت الفتاة العنوان فكتبته توبنس في دفترها الصغير، قالت مونيكا: لكنني لم أسألكم عن الشروط.

ثم سكتت وقد احمر وجهها قليلاً، فقالت توبنس بهدوء: إن المبلغ مرتبط تماماً بالنتائج. إذا كان سر البيت الأحمر مربحاً (وهو ما يبدو محتملاً من هذا التلهف على شرائه) فإننا نتوقع حصولنا على نسبة صغيرة، وإلاّ فلن نتقاضى شيئاً.

قالت الفتاة بامتنان: أشكرك كثيراً.

- لا تقلقي الآن، كل شيء سيكون على ما يرام. هيا نستمتع بالغداء.

* * *

قال تومي وهو يطلّ من نافذة أحد البيوت في القرية: حسناً، ها نحن في قرية تود... أليس هذا هو اسم هذه القرية؟

قالت توبنس: دعنا نستعرض القضية.

قال تومي: بالطبع. قبل كل شيء أنا أشكّ في الأم المقعدة.

- لماذا؟

- يا عزيزتي، إذا سلمنا بأن موضوع الروح الشريرة هذا عمل مدبّر اختُرع لإقناع الفتاة ببيع البيت فلا بد أن شخصاً هو الذي كان يلقي بقطع الأثاث هنا وهناك. الفتاة تقول إن الجميع كان حول مائدة العشاء، ولكن إذا كانت الأم مقعدة تماماً فإنها ستكون في غرفتها في الطابق العلوي مثلاً.

- لو كانت مقعدة فإنها لن تستطيع حمل الأثاث وإلقاءه.

- آه، ولكنها لن تكون مقعدة حقاً في هذه الحالة؛ ربما كانت تتظاهر بذلك.

- لماذا؟

اعترف تومي: في هذه النقطة أُسقِطَ في يدي! لكنني كنت

أعتمد في الواقع المبدأ الشهير القائل بوجوب الشك في أبعد الناس عن الشكوك.

قالت توبنس بحدة: أنت تهزأ دائماً من كل شيء. لا بد من وجود شيء يجعل هؤلاء الرجال مهتمّين بشراء البيت، وإن لم تكن مهتماً بكشف حقيقة هذا الأمر فأنا مهتمة. لقد أحببت تلك الفتاة، فهي فتاة طيبة.

أومأ تومي بجدية وقال: أتفق معك تماماً، لكنني لا أستطيع مقاومة إغراء مكايدتك يا توبنس. لا بد أن في البيت أمراً غريباً بالطبع، ومهما كان هذا الأمر فإن العثور عليه صعب، ولولا ذلك لكانت عملية سرقة بسيطة كافيةً لإرضاء مَن يتهافتون عليه. إن الرغبة في شراء البيت تعني أحد أمرين: إما أن المشتري يريد هدمه أو بناء طوابق إضافية، وإما أن هناك منجم فحم تحت الحديقة الخلفية للمنزل.

- لا أريده أن يكون منجم فحم. إن وجود كنز مفقود أكثر إثارة.

- في هذه الحالة أرى أن عليّ القيام بزيارة لمدير البنك في القرية لأوضح له أنني مقيم هنا لقضاء عطلة عيد الميلاد وأنني ربما اشتريت البيت الأحمر، وأناقش معه مسألة فتح حساب في البنك.

- ولكن لماذا؟

- انتظري وسترين.

* * *

عاد تومي بعد نصف ساعة. قال وعيناه تطرفان: إننا نتقدم يا توبنس؛ لقد سار لقاؤنا وفق الخطة المقررة، وقد سألته -عرَضاً- إن كان عملاء البنك من المزارعين الصغار يودعون في البنك ذهباً، وهو أمر يحصل في هذه الأيام بعدما كانوا يخزّنونه عندهم في أثناء الحرب. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن الوساوس الغريبة للسيدات العجائز واخترعت له قصة عن عمة لي... وعلى الفور ذكر واحدة من عميلات البنك ألحّت على سحب كل شيء لها في البنك وطلبت أن يكون المبلغ المسحوب بالذهب إن أمكن، وقد أصرت أيضاً على أخذ سنداتها لتُبقي كل ذلك في حراستها الشخصية. أبديت دهشتي من ذلك التصرف الأحمق فذكر لي -عرَضاً- أنها كانت المالكة السابقة للبيت الأحمر. هل فهمت يا توبنس؟ لقد سحبت كل هذه الأموال وخبأتها في مكان ما. أتذكرين عندما ذكرت مونيكا داين أنها ذُهلت عندما وجدت أن المبلغ الذي تركته عمتها كان مبلغاً صغيراً؟ نعم، لقد خبأته في البيت الأحمر وهناك شخص يعرف هذا الأمر، وأستطيع أيضاً أن أخمّن جيداً من يكون هذا الشخص.

- من هو؟

- ماذا عن كروكيت المخلصة؟ لا بد أنها تعرف كل شيء عن غرائب سيدتها.

- وذاك الدكتور أونيل صاحب الضرس الذهبي؟

- إنه ابن أخيها المحترم بالطبع، هذا كل ما في الأمر! ولكن في أي مكان خبأت المال؟ أنت تعرفين أكثر مني عن السيدات العجائز، أين يمكن أن يخبئن الأشياء؟

- ستجدها ملفوفة في الجوارب والملابس الداخلية!

- لا يمكن أن تكون قد فعلت هذا لأنهم كانوا سيعثرون عليها عند تفتيش أغراضها. إن ما يقلقني هو أن عجوزاً كهذه لا تستطيع حفر الأرض أو الحديقة... ومع ذلك فإن الثروة في مكان ما في البيت الأحمر! إن كروكيت لم تعثر عليه لكنها تعرف أنها موجودة هناك، وعندما يصبح البيت لهما ستستطيع هي وابن أخيها الغالي أن تقلبه رأساً على عقب إلى أن يعثرا على ضالتهما. علينا أن نسبقهما إلى ذلك. هيا يا توبنس، سنذهب إلى البيت الأحمر.

* * *

استقبلتهما مونيكا داين وقدمتهما لأمها ولكروكيت على أنهما يريدان شراء البيت، وذلك لتبرير اصطحابهما في جولة في البيت وفي الأرض التابعة له. لم يخبر تومي مونيكا بالنتائج التي توصل إليها لكنه سألها العديد من الأسئلة الدقيقة. فيما يخصّ الثياب والأمتعة الشخصية للمرأة المتوفاة أخبرته مونيكا بأنها أعطت بعضاً منها لكروكيت والبعض الآخر أرسلته إلى بعض العائلات الفقيرة، وقالت إنها فتّشت كل الثياب والأمتعة تفتيشاً دقيقاً قبل توزيعها.

- هل تركت عمتك أية أوراق؟

- كان المكتب مليئاً بالأوراق وبعض منها كان موجوداً في أحد الأدراج في غرفة نومها، لكن أيا منها لم يكن ذا أهمية.

- هل تخلصت منها؟

- لا؛ إن أمي تكره أن ترمي أية أوراق قديمة، وقد كان بينها بعض الوصفات القديمة لطرق تحضير بعض الأطعمة وأرادت أمي الاحتفاظ بتلك الوصفات لمراجعتها ذات يوم.

قال تومي باستحسان: جيد.

ثم سألها وهو يشير إلى رجل عجوز كان يعمل عند أحد أحواض الزهور في الحديقة: هل كان هذا الرجل العجوز بستانياً هنا في زمن عمتك؟

- نعم، وقد اعتاد المجيء إلى هنا ثلاثة أيام في الأسبوع. إنه يعيش في القرية، وهو رجل عجوز مسكين لا يقوم الآن بأي عمل مفيد. إننا نحضره مرة في الأسبوع للمحافظة على الحديقة، ولا نستطيع تحمل نفقات أكثر من هذه.

غمز تومي توبنس مشيراً أنّ عليها أن تُبقي مونيكا معها وذهب هو إلى حيث كان البستاني يعمل. تحدث مع العجوز بضع كلمات مشجّعة وسأله إن كان يعمل هنا في حياة السيدة الراحلة، ثم قال عرَضاً: لقد دفنتَ لها صندوقاً ذات يوم، أليس كذلك؟

- لم يحصل شيء من هذا يا سيدي. ولماذا عساها تدفن صندوقاً؟

هز تومي رأسه آسفاً، ثم عاد أدراجه إلى البيت عابساً. كان يأمل أن يتوصل إلى مفتاح ما لحل اللغز عند تفحصه لأوراق السيدة العجوز، وإلا فإن المشكلة ستظل مستعصية. كان البيت نفسه من طراز قديم لكنه ليس قديماً إلى حد احتوائه على غرفة سرية أو

ممر سري! وقبل مغادرتهما أحضرت مونيكا لهما صندوقاً كرتونياً كبيراً مربوطاً بخيط وقالت: لقد جمعت كل الأوراق وهي في هذا الصندوق. رأيت أن بإمكانكما أخذها معكما، وبذلك يكون لديكما الكثير من الوقت لفحصها. ولكني واثقة من أنكما لن تجدا بينها شيئاً يلقي الضوء على الأحداث الغامضة التي تجري في هذا البيت.

قوطعت كلماتها بصوت شيء تحطم فوق رؤوسهم بقوة، فركض تومي إلى الطابق العلوي بسرعة حيث رأى إبريقاً وحوضاً من فخار مكسورَين في إحدى الغرف الأمامية، ولم يكن في الغرفة أحد.

قال ضاحكاً: ها قد عاد الشبح إلى حِيَلِه من جديد!

ثم نزل إلى الطابق الأرضي متأملاً وقال: هل يمكنني رؤية الخادمة كروكيت لدقيقة واحدة فقط يا آنسة داين؟

- بالتأكيد؛ سأطلب منها أن تأتي إليك.

ذهبت مونيكا إلى المطبخ ثم عادت ومعها الخادمة الكهلة التي فتحت لهما الباب قبل ذلك. قال تومي: إننا نفكر في شراء هذا البيت، وقد تساءلت زوجتي إن كنت تريدين البقاء عندنا في هذه الحالة؟

لم يظهر على وجه كروكيت أي انفعال من أي نوع، وقالت: شكراً لك يا سيدي. أحب أن أفكر في هذا الأمر إن أمكن.

التفت تومي إلى مونيكا وقال: أنا مسرور بهذا المنزل يا آنسة.

لقد علمتُ بوجود مشترٍ آخر ينافسنا، وأعرف المبلغ الذي عرضه لشراء البيت ولذلك فإنني أزيد -بطيب خاطر- مئة جنيه على المبلغ المعروض، وهو عرض جيد أقدمه لك.

تمتمت مونيكا بكلمات لا تعد بشيء، وغادر السيد بيرسفورد وزوجته المنزل.

قال تومي وهما يسيران باتجاه البوابة الخارجية للمنزل: كنت على حق؛ إن لكروكيت علاقة بالأمر. هل لاحظتِ كيف كانت أنفاسها مقطوعة؟ كان ذلك من الركض وهي تنزل الدرج الخلفي مسرعة بعد أن كسرت الإبريق والحوض، ومن المحتمل كثيراً أنها كانت تُدخل ابن أخيها في بعض الأحيان إلى المنزل سراً ليقوم بدور الأرواح الشريرة بينما تكون مع العائلة مُظهرة براءتها. سترين كيف أن الدكتور أونيل سيقدم عرضاً جديداً قبل انتهاء اليوم.

كان حدسه صحيحاً؛ فبعد العشاء تسلم تومي رسالة من مونيكا تقول فيها: "لقد اتصل بي الدكتور أونيل لتوّه، وقد رفع عرضه السابق بمقدار مئة وخمسين جنيهاً".

قال تومي متأملاً: لا بد أن ابن أخيها هذا رجل ثري، وتأكدي -يا توبنس- أن الغنيمة التي يجري خلفها تستحق هذا المبلغ دون شك.

- آه، ليتنا نجدها!

- إذن لنبدأ كدحنا.

شرعا يفرزان الأوراق الموجودة في الصندوق الكبير، وكان

عملاً متعباً حيث كانت كلها مختلطة دون نظام أو ترتيب، وكانا يقارنان الأوراق كلما مر وقت قصير.

- ما هي آخر التطورات عندك يا توبنس؟

- فاتورتان قديمتان، وثلاث رسائل غير مهمة، ووصفة لحفظ البطاطا طازجة وأخرى لعمل كعكة الجبن بالليمون. وماذا عندك؟

- فاتورة واحدة، وقصيدة شعرية عن الربيع، وقصاصتان من إحدى الصحف: «لماذا تشتري النساء اللؤلؤ؟ استثمار حكيم»، والأخرى: «رجل له أربع زوجات: قصة غريبة».

قالت توبنس: إنه عمل متعب.

ثم عادا إلى العمل من جديد، وفي النهاية فرغ الصندوقُ من الأوراق.

تبادلا النظرات، وقال تومي وهو يرفع ورقة ملاحظات صغيرة: لقد وضعت هذه جانباً لأنني أراها غريبة، لكني لا أظن أن لها أية علاقة بما نبحث عنه.

- دعنا نراها. آه، إنها واحدة من تلك اللعبات الغريبة. ماذا كانوا يسمّونها؟ لعبة تشكيل الكلمات من الأحرف.

ثم قرأت: «نوع من الخضار أوّله طير»... هذا غريب.

- لكنني لا أرى فيها ما يدعو إلى الاستغراب؛ فقد اعتاد الجميع على جمع هذه الأشياء قبل خمسين سنة تقريباً. كانوا يلقونها للتسامر في أمسيات الشتاء عندما يتحلقون حول النار.

- لم أقصد الأحجية؛ إن الذي رأيته غريباً فيها هو الكلمات المكتوبة أسفلها.

قرأتها توبنس: «إنجيل لوقا: ١١، ٩»... إنها آية من الكتاب المقدس.

- نعم، ألا ترين أنه أمر غريب؟ كيف يمكن لعجوز متدينة أن تكتب رقم آية تحت أحجية؟

- إنه أمر غريب بالفعل.

- أظن أنك تحملين نسخة من الكتاب المقدس بوصفك ابنة رجل دين؟

- الواقع أنه معي.

أسرعت توبنس إلى حقيبتها فأخرجت منها كتاباً أحمر صغيراً وعادت إلى الطاولة. قلبت صفحاته بسرعة ثم قالت: ها هي: لوقا، الإصحاح الحادي عشر، الآية التاسعة... آه، انظر يا تومي!

نظر تومي إلى حيث كانت توبنس تشير بإصبعها على الآية موضوع الحديث: «ابحث وستعرف».

صاحت توبنس: ها هي؛ لقد عرفنا! حُلَّ الأحجية وعندها ستعرف مكان الكنز.

- حسناً، لنبحث في الأحجية كما تسمينها: «نوع من الخضار أوله طير»... ترى ما هو؟

قالت توبنس بلطف: المسألة بسيطة جداً، دعني أفكر.

أذعن تومي طائعاً، فاستندت توبنس على أحد الكراسي وبدأت تفكر في الأحجية.

قال تومي بعد مضي نصف ساعة: إنها بسيطة جداً!

- لا تشمت بي! إننا لسنا الجيل الذي يُحسن حل هذه الأشياء.

- إنني أفكر في العودة إلى المدينة غداً وزيارة عجوز تستطيع حل هذه الأحجية بسهولة.

- حسناً، لنحاول مرة أخرى.

- لا توجد أنواع كثيرة من الخضروات التي تبدأ حروفها بنوع من الطيور.

- لقد عرفتها... أقصد الكلمة؛ إنها البطاطا! أولها بط، وهو من الطيور.

- أنت على حق يا توبنس؛ هذا ذكاء عظيم منك، لكن أخشى أن نكون قد أضعنا وقتاً طويلاً بلا فائدة فالبطاطا لا علاقة لها بالكنز المفقود. آه، انتظري قليلاً؛ ما الذي قرأته قبل قليل عندما كنا نبحث بين الأوراق؟ أظن أنه كان شيئاً عن وصفة لحفظ البطاطا طازجة. ترى هل في هذا الأمر شيء؟

قلب أوراق الصندوق بسرعة ثم قال: ها هي: «حفظ البطاطا طازجة: ضع البطاطا الجديدة في علبة وادفنها في الحديقة، وحتى لو جاء الشتاء فسوف يكون طعمها كأنها طازجة».

صاحت توبنس: لقد عرفنا؛ إنها هي! الكنز في الحديقة، في علبة مدفونة هناك.

- لكني سألت البستاني وقال إنه لم يدفن في الحديقة شيئاً.

- نعم، أعرف، لكن الناس لا يجيبونك على ما تقوله، بل يجيبونك على ما يعتقدون أنك تعنيه. كان يعرف أنه لم يدفن شيئاً غريباً غير عادي. سنذهب غداً ونسأله أين دفن البطاطا.

* * *

كان صباح اليوم التالي هو اليوم الذي يسبق عيد الميلاد. عرفا كوخ البستاني العجوز بطريق السؤال والاستفسار، ودخلت توبنس في الموضوع بعد بضع دقائق من الحديث العادي. قالت: أتمنى لو كان بوسع المرء أن يأكل بطاطا طازجة في يوم عيد الميلاد. إنها ستكون لذيذة مع الديك الرومي، أليس كذلك؟ هل يدفنها الناس هنا في علب؟ سمعت أن هذا يبقيها طازجة.

قال الرجل العجوز: آه، إنهم يفعلون ذلك. كانت الآنسة داين العجوز صاحبة البيت الأحمر تدفن دائماً ثلاث علب من البطاطا في كل صيف، وكانت تنسى في الغالب أن تحفر مرة أخرى لتستخرجها.

- أظنها كانت تدفنها في حوض الزهور القريب من البيت، أليس كذلك؟

- بل عند الحائط القريب من شجرة التنّوب.

غادرا بيت الرجل العجوز بعد أن حصلا على المعلومات التي كانا يريدانها وأهدياه خمسة شلنات بمناسبة عيد الميلاد.

قال تومي: والآن إلى مونيكا.

- تومي، ليس لديك أي إحساس بالإثارة الدرامية... اترك الأمر لي، فلديّ خطة جميلة. هل تظن أنك تستطيع اقتراض مجرفة أو استعارتها أو سرقتها؟

بطريقة أو بأخرى أحضر تومي مجرفة، وفي وقت متأخر من تلك الليلة تسلل هو وتوبنس إلى حديقة البيت الأحمر واستدلاّ بسهولة على المكان الذي أشار البستاني العجوز إليه، ثم بدأ تومي بالعمل. وسرعان ما ارتطمت المجرفة بجسم معدني مُصدِرة رنيناً، وبعد بضع ثوان أخرج علبة كبيرة. كانت مغلقة بشريط لاصق قوي ومحكمة الإغلاق، لكن توبنس نجحت في فتحها بسكين تومي، لكنها ما لبثت أن أصدرت أنيناً إذ وجدت العلبة مليئة بالبطاطا! أفرغت العلبة من البطاطا فلم تجد فيها أي شيء آخر.

قالت: استمرّ في الحفر يا تومي.

مضى وقت طويل قبل أن يسمعا صوت الرنين من جديد. فتحت توبنس العلبة الثانية بالسكين، وسألها تومي بلهفة: حسناً؟

- بطاطا مرة أخرى!

- تباً!

شرع في الحفر من جديد، وقالت توبنس مواسية: ثالثة ثابتة.

قال تومي عابساً حزيناً: أعتقد أن الأمر وهمٌ كله.

لكنه واصل عمله في الحفر، وفي نهاية الأمر ظهرت علبة ثالثة. قالت توبنس: بطاطا أيضاً...

سكتت قليلاً ثم هتفت: آه، تومي، لقد وجدنا الكنز! البطاطا فوقه فقط، انظر.

أخرجت كيساً مخملياً قديماً وكبيراً، فصاح تومي: هيا إلى الفندق فالجو بارد جداً. لكن لا بد أن أعيد الأرض إلى ما كانت عليه، فخذي الكيس معك واحذري أن تفتحيه قبل أن آتي يا توبنس.

- سأكون منصفة وأنتظرك. أووه، إنني أتجمد!

ثم ذهبت مسرعة. وعندما وصلت إلى الفندق لم تنتظر طويلاً، فقد عاد تومي وراءها مباشرة متعباً من الحفر والركض. قال: حسناً، ها قد حالف التوفيق تحرياتنا! افتحي الغنيمة يا سيدة بيرسفورد.

وجدا في داخل الحقيبة رزمة ملفوفة بقماش حريري وحقيبة جلدية ثقيلة من الشامواه. فتحا الحقيبة الجلدية أولاً، وكانت مليئة بالقطع النقدية الذهبية. عدّها تومي ثم قال: مئتا جنيه من الذهب! أظن أن هذا أقصى عدد من القطع الذهبية يمكن أن يصرفه البنك. افتحي الرزمة.

فتحت توبنس الرزمة. كانت مليئة بالأوراق النقدية الملفوفة بعناية، وعدّها تومي وتوبنس بروية فبلغت عشرين ألف جنيه تماماً.

قال تومي ذاهلاً: آه، أليس من حظ مونيكا أننا غنيان وأمينان؟ ما هو ذلك الشيء الملفوف بالورقة؟

فتحت توبنس الورقة وأخرجت منها عقداً رائعاً من اللآلئ التي تم اختيارها لتناسب بعضها بعضاً بشكل غريب.

قال تومي: لا أعرف كثيراً عن هذه الأشياء، لكني متأكد تماماً من أن هذه اللآلئ تقدَّر قيمتها بخمسة آلاف جنيه إضافية على الأقل. انظري إلى حجمها. الآن فهمت لماذا احتفظت السيدة العجوز بتلك القصاصة التي تقول إن اللؤلؤ استثمار جيد... لا بد أنها حولت كل سنداتها إلى حلي وأوراق نقدية.

- آه، أليس هذا رائعاً يا تومي؟ مونيكا الغالية! تستطيع الآن أن تتزوج فتاها اللطيف وتعيش سعيدة إلى الأبد، مثلي.

- هذا جميل منك يا توبنس. إذن فأنت سعيدة معي؟

- الواقع أنني سعيدة. لكني لم أقصد قول ذلك، بل خرجت من لساني هكذا، ربما بسبب الإثارة وكوننا في ليلة عيد الميلاد.

- إن كنت تحبينني حقاً فهل يمكن أن تجيبيني على سؤال واحد؟

- أنا لا أحب هذه الحيل. ولكن... حسناً، لا بأس.

- كيف عرفتِ أن مونيكا ابنة كاهن؟

قالت توبنس مسرورة: كان ذلك مجرد حيلة وخداع. لقد فتحت رسالتها التي تطلب فيها موعداً، وقد كان هناك قس مسؤول

عن والدي ذات يوم اسمه السيد داين، وكانت له ابنة صغيرة تُدعى مونيكا تصغرني بأربع سنوات أو خمس. ولذلك أعملت ذهني وخمنت.

- يا لك من امرأة! آه، الساعة تدق الآن معلنة منتصف الليل... عيد ميلاد سعيد يا توبنس.

- عيد ميلاد سعيد يا تومي. وسيكون أيضاً عيدَ ميلاد سعيداً لمونيكا، وهذا كله بفضلنا. كم أنا سعيدة!

* * *

الفصل الرابع عشر

حذاء السفير

قالت توبنس وهي تلوّح بفطيرة مدهونة بالزبدة: هاك يا عزيزي، خذ هذه.

نظر تومي إليها لبعض الوقت، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال: «يجب أن نحذر»!

- هذا صحيح، لقد صدقتَ في حدسك. اليوم سأكون أنا في دور الدكتور فورتشن الشهير، وأنت ستكون مدير الشرطة بيل.

- ولماذا تكونين ريجينالد فورتشن؟

- لأنني أشعر أنني مثل الزبدة الحارة.

- هذا هو الجانب اللطيف في الأمر، ولكن له جانباً آخر؛ إذ سيتوجب عليك تفحص الوجوه المهشّمة المخيفة والكثير الكثير من جثث الموتى.

جواباً على ذلك ألقت توبنس إليه برسالة، فلما نظر تومي إليها

رفع حاجبيه دهشة وقال: راندولف ويلموت، السفير الأميركي! ترى ماذا يريد؟

- سنعرف هذا غداً في الحادية عشرة صباحاً.

في الموعد المحدد تماماً دخل السفير الأميركي في بريطانيا السيد راندولف ويلموت مكتب السيد بلانت، فتنحنح ثم شرع في الحديث بأسلوب متأنٍ ومميز: لقد جئت إليك يا سيد بلانت... وبالمناسبة، أنا أتكلم مع السيد بلانت شخصياً، أليس كذلك؟

قال تومي: بالتأكيد؛ أنا بلانت رئيس الشركة.

- أنا أحب التعامل مع رؤساء الأقسام والدوائر لأن هذا يفي بالغرض أكثر كيفما نظرت إليه. ما كنت أريد قوله -يا سيد بلانت- هو أن هذا العمل يغيظني، لكن ليس فيه ما يمكن إزعاج الشرطة بشأنه. إنه أمر لا يضرني بشيء، وربما كان كله بسبب خطأ بسيط، لكنني لا أعرف كيف وقع الخطأ! لا أظن بوجود جرم جنائي فيه لكني أحب توضيح هذا الأمر وكشفه، فإن عدم معرفتي سبب هذا العمل وخلفيته يثير جنوني.

- حسناً؟

أكمل السيد ويلموت حديثه. كان بطيئاً ويدخل في كثير من التفصيلات، وفي نهاية الأمر نجح تومي في تلخيص الأمر؛ قال: تماماً. الوضع كالتالي: وصلتَ على السفينة «نومادِيك» قبل أسبوع، وبطريقة ما اختلطت حقيبتك اليدوية مع حقيبة أخرى تعود للسيد رالف ويستر هام حيث إن الحروف الأولى لاسميكما متشابهة. وهكذا

أخذت أنت حقيبة السيد ويستر هام وأخذ هو حقيبتك، ثم اكتشف السيد ويستر هام الخطأ على الفور فبعث بحقيبتك إلى السفارة وأخذ حقيبته. هل كلامي صحيح حتى الآن؟

- هذا ما حدث بالضبط. لا بد أن الحقيبتين كانتا متشابهتين، وبوجود الحرفين الأولين ذاتهما على نفس الحقيبتين لم يكن من الصعب فهم احتمال وقوع مثل هذا الخطأ. أنا شخصياً لم أعرف أن هذا ما حدث إلا بعد أن أبلغني خادمي بالخطأ موضحاً أن السيد ويستر هام (وهو سيناتور ورجل أكنّ له خالص الإعجاب والتقدير) قد أرسل في طلب حقيبته وأعاد حقيبتي.

- إذن لا أرى...

- لكنك سترى، هذه بداية القصة فقط. تصادف بالأمس أن التقيت بالسيناتور ويستر هام وذكرت له المسألة على سبيل الدعابة، ولشدة دهشتي لم يكن يعرف شيئاً عمّا كنت أتحدث عنه! وعندما شرحت له الأمر أنكر الحكاية من أولها إلى آخرها وقال إنه لم يأخذ حقيبتي من السفينة خطأً... بل إنه لم يكن يحمل معه مثل هذه الحقيبة أبداً.

- يا له من أمر غريب!

- نعم، إنه أمر غريب يا سيد بلانت. يبدو عدم وجود سبب أو منطق في هذا! إن كان أحد يريد سرقة حقيبتي فإنه يستطيع ذلك بسهولة دون أن يلجأ إلى كل هذا العمل الملتوي، وعلى أية حال فهي لم تسرق بل عادت إليّ. ومن ناحية أخرى لو كانت قد أُخذت بطريق الخطأ فلماذا يُستخدَم اسم السيناتور ويستر هام؟ إنه عمل

ـسرني. لكنني أريد كشف هذا الأمر بدافع من الفضول فقط، وأرجو أن لا تكون القضية أتفه من أن تتولاها؟

- أبداً. إنها مشكلة مثيرة جداً، قابلة -كما تقول- لكثير من التفسيرات البسيطة لكنها محيّرة في ظاهرها. بالطبع فإن أول شيء ـبحث عنه هو سبب الاستبدال... إن كان ذلك استبدالاً. هل قلت ـك لم تفقد أي شيء من حقيبتك عندما عادت إليك؟

- خادمي يقول إن أي شيء لم يُسرَق منها، ولا بد أنه ـعرف.

- هل لي أن أسألك عما كان بداخلها؟

- أحذية في معظمها.

قال تومي وقد ثبطت عزيمته: أحذية!

- نعم. أمر غريب، أليس كذلك؟

- أرجو أن تعذرني إن سألتك إن كنت تحمل داخل بطانة هذه الأحذية أو تحت كعوبها أية أوراق سرية أو أي شيء من هذا النوع؟

استغرب السفير السؤال وقال مازحاً: لم تصل الدبلوماسية السرية إلى هذا المستوى كما آمل!

قال تومي مبتسماً ومعتذراً: في الروايات فقط! لكن يجب أن نفسر حقيقة هذا الأمر بطريقة ما. مَن الذي جاء بالحقيبة... أقصد الحقيبة الأخرى؟

- يُفترض أن يكون أحد خدم ويسترهام. كان رجلاً عادياً هادئاً حسب ما قيل لي، ولم يرَ خادمي فيه أي شيء غير طبيعي.

- هل تعرف إن كانت الحقيبة قد فُتحت أم لا؟

- لا أستطيع الجزم بذلك. أظن أنها لم تفتح، ولكن من الأفضل أن توجه مثل هذه الأسئلة إلى الخادم. إنه يستطيع إخبارك عن هذا الأمر أكثر مني.

- أرى أن هذا هو الإجراء الأمثل يا سيد ويلموت.

كتب السفير بضع كلمات على بطاقة بخط سريع وسلّمها إلى تومي وهو يقول: من الأفضل أن تذهب إلى السفارة وتقوم بتحرياتك هناك، أم هل تفضّل أن أرسل الرجل إلى هنا؟ اسمه ريتشاردز.

- لا، أشكرك يا سيد ويلموت؛ أفضّل الذهاب إلى السفارة.

نهض السفير وهو ينظر إلى ساعته وقال: سوف أتأخر عن موعد، وداعاً يا سيد بلانت. إنني أترك هذه المسألة بين يديك.

ثم أسرع خارجاً. نظر تومي إلى توبنس التي كانت تكتب ع الدفتر بوقار متظاهرة بأنها الآنسة روبنسون القديرة. سألها: ما رأ بهذا؟ هل ترين أي سبب أو منطق في هذا العمل؟

رددت توبنس مبتهجة: لا أرى شيئاً من ذلك.

- حسناً، على أية حال فهذه مجرد بداية! إنها تظهر و شيء عميق جداً وراء هذا العمل.

- هل ترى ذلك؟

- إنها فرضية مقبولة بوجه عام.

- صحيح، إن السيد ويلموت المحترم ليس بالرجل اللمّاح لكنه واثق. هذه القضية سخيفة... أحذية! لماذا الأحذية؟

- حسناً، ولِمَ لا؟

- لأنها لا تلائم الوضع! الأمر كله خطأ. مَن ذا يريد أخذ حذاء شخص آخر؟ إنه عمل جنوني.

- ربما كانوا يريدون حقيبة أخرى.

- هذا ممكن، ولكن إن كانوا يبحثون عن أوراق فإن الأكثر احتمالاً هو وجودها في حقيبة دبلوماسية. إن الأوراق هي الشيء الوحيد الذي يخطر ببال المرء عندما يفكر بالسفراء.

قال تومي متأملاً: إن الحذاء يوحي بآثار الأقدام... هل تعتقدين أنهم كانوا يريدون وضع آثار لقدمَي ويلموت في مكان ما؟

فكرت توبنس بالاقتراح ثم هزت رأسها وقالت: يبدو هذا تبعَداً جداً. لا، أظن أن علينا أن نضع في حسباننا أن الأحذية لا قة لها بالمسألة.

قال تومي متنهداً: حسناً، الخطوة التالية هي مقابلة صاحبنا اردز، فقد يكون قادراً على إلقاء بعض الضوء على اللغز.

* * *

دخل تومي السفارة بعد أن أظهر بطاقة السفير، وسرعان ما قدم الخادم نفسه للتحقيق. كان شاباً شاحب اللون رزيناً ذا صوت هادئ. قال: أنا ريتشاردز يا سيدي، خادم السيد ويلموت. فهمت منه أنك تريد رؤيتي؟

- نعم يا ريتشاردز. لقد زارني السيد ويلموت صباح اليوم واقترح أن آتي إلى هنا لسؤالك بعض الأسئلة، إنها بخصوص الحقيبة.

- أعرف أن السيد ويلموت قد انزعج من هذا الأمر يا سيدي، لكني لا أكاد أرى سبباً لذلك حيث لم يقع أي ضرر. وأنا واثق من أنني فهمت من الرجل الذي جاء لأخذ الحقيبة الأخرى بأنها كانت تخص السيناتور ويسترهام، لكني قد أكون مخطئاً بالطبع.

- كيف كان ذلك الرجل؟

- كان كهلاً ذا شعر أشيب وكان محترماً جداً، وفهمت منه أنه كان الخادم الخاص للسيناتور ويسترهام، وقد ترك حقيبة السيد ويلموت وأخذ معه الحقيبة الأخرى.

- هل فُتحت الحقيبة؟

- أي حقيبة منهما يا سيدي؟

- حقيبة السيد ويلموت، هل تظن أن تلك الحقيبة قد فُتحت؟

- لا أظن ذلك يا سيدي؛ بل كانت كما حزمتها على السفينة.

أظن أن الرجل... أياً كان... قد اكتفى بفتحها، وعندما عرف أنها ليست له أغلقها من جديد.

- ألم يُفقد منها أي شيء؟ حتى لو كان شيئاً صغيراً؟

- لا أظن ذلك يا سيدي، بل إنني واثق تماماً.

- والآن ماذا عن الحقيبة الأخرى؟ هل فتحتها؟

- الواقع يا سيدي أنني كنت على وشك فتحها في اللحظة ذاتها التي وصل فيها خادم السيناتور ويسترهام؛ كنت قد بدأت بتفكيك الأحزمة عنها.

- ألم تفتحها أبداً؟

- لقد حللنا الأربطة معاً يا سيدي لدى وصوله حتى نتأكد من عدم وجود خطأ هذه المرة. وقال خادم السيناتور إنها حقيبة سيده بلا شك، ثم ربطها مرة أخرى وأخذها معه.

- ماذا كان في داخلها؟ أحذية أيضاً؟

- لا يا سيدي، أظن أن معظمها أغراض حمام. لقد رأيت فيها علباً من النوع الذي يحتوي أملاح الاستحمام.

تخلى تومي عن متابعة ذلك المنحى من الأسئلة وقال: هل رأيت أي شخص يعبث بأي شيء في قمرة سيدك على السفينة؟

- لا يا سيدي

- ألم يحدث أي شيء يثير الشبهة أبداً؟

ثم فكر مع نفسه: إنني لأعجب ماذا عنيت بذلك... أي شيء يثير الشبهة؟ إنها مجرد كلمات!

لكن الرجل الواقف أمامه تردد ثم قال: الآن وأنا أتذكر الأمر...

قال تومي بحماسة: نعم، ماذا؟

- لا أظن أن للأمر علاقة بموضوعنا، ولكن كانت هناك فتاة شابة.

- نعم؟ قلت إنها فتاة شابة. وماذا كانت تفعل؟

- أصيبت بالإغماء يا سيدي. كانت فتاة جميلة اسمها الآنسة إيلين أوهارا، وكانت بادية الأناقة سوداء الشعر ليست بالطويلة وفيها ما يوحي بأنها أجنبية.

قال تومي بحماسة أكبر: نعم؟

- كما قلت أصيبت بحالة غريبة... خارج قمرة السيد ويلموت تماماً. طلبت مني أن أذهب وأحضر لها الطبيب، فساعدتها في الجلوس على الأريكة ثم ذهبت لإحضار الطبيب. وقد أنفقت وقتاً طويلاً حتى وجدته، وعندما أحضرته كانت الفتاة قد تعافت تقريباً وعادت إلى طبيعتها.

- آه!

- هل تظن يا سيدي...؟

- من الصعب أن يحدد المرء ظنونه. هل كانت الآنسة أوهارا هذه مسافرة وحدها؟

- نعم. أظن ذلك يا سيدي.

- وهل رأيتها منذ فارقتم السفينة؟

- لا يا سيدي.

قال تومي بعد شيء من التفكير: حسناً، أظن أن هذا يكفي. شكراً لك يا ريتشاردز.

- شكراً لك يا سيدي.

* * *

عندما عاد تومي إلى مكتبه أعاد سرد حديثه مع ريتشاردز على توبنس التي أصغت باهتمام شديد، ثم سألها: ما رأيك بهذا يا توبنس؟

نحن معشر الأطباء (لا تنسَ أنني أمثل دور الدكتور فورتشن) نكون متشككين دائماً في أمر الإغماء المفاجئ هذا؛ فهو ادعاء مناسب جداً!

- هذا أمر يسعُنا أن نشتغل به على أي حال. أتدرين ما سأفعله يا توبنس؟ سأنشر إعلاناً عن الفتاة.

- ماذا؟!

- نعم. سأطلب أية معلومات تتعلق بالآنسة زيلين أوهارا التي نعرف أنها سافرت على متن السفينة كذا في تاريخ كذا... إما أنها ستجيب على هذا الإعلان بنفسها إن كانت شخصية حقيقية أو

أن أحداً غيرها سيأتي ليدلي لنا بمعلومات عنها. إنه الأمل الوحيد للعثور على مفتاح للغز حتى الآن.

- تذكّر أنك ستجعلها تحترس وتحذر.

- لا بد أن نجازف بشيء ما.

قالت توبنس عابسة: ما زلت لا أستطيع رؤية أي معنى لهذا الأمر. إذا أمسكت عصابة من المحتالين بحقيبة السفير لساعة أو ساعتين ثم أعادتها إليه فماذا يمكن أن يفيدهم هذا العمل... إلا إذا كانت فيها أوراق يريدون أخذ نُسَخ عنها؟ والسيد ويلموت يقسم على عدم وجود شيء من هذا.

حدق تومي إليها متأملاً ثم قال أخيراً: لقد عبّرتِ عن الأمر بأسلوب جيد؛ لقد أعطيتني فكرة!

* * *

بعد يومين من ذلك خرجت توبنس لتناول الغداء، وكان تومي وحيداً في مكتب السيد ثيودور بلانت البسيط يقرأ آخر قصة بوليسية مثيرة عندما فُتح باب المكتب وأطل منه ألبرت قائلاً: سيدة شابة تريد رؤيتك يا سيدي، الآنسة سيسلي مارش. قالت إنها جاءت استجابة لأحد الإعلانات.

صاح تومي وهو يلقي بروايته في أحد الأدراج: أدخلها على الفور.

بعد دقيقة واحدة كان ألبرت يُدخل شابة شقراء جميلة إلى

مكتب تومي، وبينما كان تومي ينظر إليها حدث شيء مذهل؛ فقد دُفع الباب الذي خرج ألبرت منه لتوّه ووقف في مدخله رجل ضخم داكن البشرة يبدو إسبانياً في مظهره ويرتدي ربطة عنق حمراء فاقعة، وكانت ملامح وجهه مشوّهة بفعل الغضب والهيجان وفي يده مسدس يلمع.

قال بلغة إنكليزية سليمة: إذن فهذا هو مكتب السيد الفضولي بلانت؟ ارفعوا أيديكم فوراً أو سأطلق النار.

كان صوته حاقداً وبدا تهديده جدياً، فرفع تومي يديه طائعاً والتصقت الفتاة بالجدار وهي في حالة ذعر شديد.

قال الرجل: هذه الفتاة ستأتي معي. نعم، ستأتين يا عزيزتي. أنت لم تريني من قبل لكن هذا لا يهم، لا يمكن أن أدع طفلة سخيفة مثلك تفسد عليّ خططي. يبدو أنني أتذكر أنك كنت واحدة من ركاب السفينة نوماديك، ولا بد أنك كنت تتلصّصين على أشياء لا تعنيك، لكنني لا أنوي تركك تبوحين للسيد بلانت بأية أسرار! إن السيد بلانت رجل ذكي جداً بإعلاناته الخيالية تلك، ولكن من عادتي متابعة الإعلانات في الصحف وهذا ما جعلني أدرك حيلته الصغيرة.

قال تومي: أنت تثير اهتمامي، ألا تواصل حديثك؟

– إن ثقتك المصطنعة هذه لن تساعدك يا سيد بلانت. تخلَّ عن هذا التحقيق وسوف نتركك وشأنك، وإلا... كان الله في عونك! إن الذين يتدخلون في أعمالنا يموتون بسرعة!

لم يجبه تومي، بل كان يحدق إلى ما وراء الرجل الدخيل

وكأنه رأى شبحاً. والواقع أنه كان يشاهد شيئاً جعله يخاف أكثر من خوفه من الشبح؛ فحتى تلك اللحظة لم يفكر أبداً في ألبرت كعنصر في هذه اللعبة. كان قد سلّم -جدَلاً- بأن ألبرت قد تمت معالجة أمره بواسطة هذا الدخيل الغامض ولا بد أنه كان ممدداً على أرضية المكتب الخارجي فاقداً وعيه. لكن ها هو الآن يرى أن ألبرت قد نجا بأعجوبة من هذا الغريب، لكنه بدلاً من أن يهرب خارج المكتب ليحضر شرطياً على الطريقة الإنكليزية السليمة اختار ألبرت أن يتصرف بمفرده. فتح الباب من وراء الدخيل دون صوت ووقف عند المدخل حاملاً لفة من الحبال، وخرجت من تومي صرخة احتجاج خافتة لكن بعد فوات الأوان؛ فقد ألقى ألبرت (وقد ألهبته الحماسة) بأنشوطة حبل حول رأس الدخيل وسحبه ليقع إلى الوراء.

حصل ما كان محتّماً، فقد انطلقت رصاصة هادرة من المسدس وأحسّ بها تومي وهي تمر من جانب أذنه لتستقر في الحائط وراءه. وصاح ألبرت وقد احمرّ وجهه من نشوة الانتصار: لقد أمسكت به يا سيدي، اصطدته. كنت أتدرب على الصيد بالحبل في أوقات فراغي. هل تساعدني؟ إنه عنيف جداً.

أسرع تومي لمساعدة خادمه الوفي، وقد قرر في نفسه أن لا يكون لألبرت وقت فراغ بعد ذلك!

صاح: أيها الأحمق الغبي! لماذا لم تذهب لاستدعاء شرطي؟ لقد كان على وشك تفجير رأسي بسبب لعبتك الغبية هذه. آه، لم أكن في أي وقت مضى أقرب إلى الموت مني اليوم!

قال ألبرت: لقد اصطدته في اللحظة الحرجة. إن ما يقوم به

رعاة البقر من صيد للخيول البرية بالحبال عمل رائع يا سيدي.

- نعم، لكننا لسنا رعاة بقر هنا؛ إننا نعيش في مدينة متحضرة جداً.

ثم أضاف مخاطباً عدوّه المنبطح أرضاً: والآن يا سيدي العزيز، ماذا سنفعل بك؟

لم يكن جواب الرجل سوى سيل من الشتائم بلغة أجنبية، فقال تومي: إنني لا أفهم كلمة مما تقول، لكني أرى أنها ليست المفردات التي يجب أن تتفوه بها أمام سيدة! أرجو أن تعذريه يا آنسة... لقد نسيت اسمك في خِضَمّ هذه الجلبة؟

قالت الفتاة وهي ما تزال شاحبة ترتجف: مارش.

لكنها تقدمت ووقفت إلى جانب تومي تنظر إلى الرجل الغريب الجاثي على الأرض، ثم قالت: ماذا ستفعل به؟

قال ألبرت: يمكنني إحضار الشرطي الآن.

لكن تومي رفع بصره فشاهد على وجه الفتاة تعبيراً يفيد بعدم تحبيذها للفكرة، فسارع إلى القول: سنتركه يذهب هذه المرة، لكنني أريد أن أستمتع برفسه على درج المبنى... لمجرد تعليمه كيفية التعامل بتهذيب مع سيدة محترمة.

أرخى عنه الحبال وأوقفه على قدميه ثم دفعه إلى المكتب الخارجي بقوة. سُمعت أصوات صراخ ثم صوت ارتطام، ثم عاد تومي محمرّ الوجه مبتسماً.

قالت الفتاة وهي تحدق إليه: هل... هل آذيته؟

قال تومي: أرجو ذلك. ولكن هؤلاء الغجر من عادتهم الصراخ والعويل قبل أن يؤذيهم أحد، ولذلك لا أستطيع الجزم بهذا الأمر. هل نعود إلى مكتبي يا آنسة مارش لنستأنف حديثنا الذي انقطع؟ لا أظن أن أحداً سيقاطعنا مرة أخرى.

قال ألبرت: سأكون مستعداً بحبلي يا سيدي.

أمره تومي قائلاً: ضعه جانباً يا ألبرت.

ثم تبع الفتاة إلى المكتب الداخلي وجلس وراء مكتبه بينما جلست على كرسي مقابله. قالت الفتاة: لا أدري من أين أبدأ، فكما سمعتَ من ذلك الرجل كنت مسافرة على متن السفينة «نوماديك»، والسيدة التي أعلنتَ بخصوصها (الآنسة أوهارا) كانت على متن السفينة هي الأخرى.

قال تومي: تماماً، إننا نعرف هذا من قبل. لكن أظن أنك تعرفين شيئاً عن أفعالها على ظهر السفينة، وإلا لما أسرع ذلك الرجل العملاق إلى التدخل.

- سأخبرك بكل شيء. كان السفير الأميركي على متن السفينة، وذات يوم وعندما كنت أمر من جانب قمرته رأيت هذه المرأة في الداخل، وكانت تقوم بشيء غريب جداً ولذلك توقفت لأراقبها. كانت تحمل في يدها حذاء رجل...

صاح تومي منفعلاً: حذاء! آسف يا آنسة مارش، واصلي.

- كانت تقطع بطانة الحذاء بمقص صغير، وبدا وكأنها قد دفعت بشيء إلى داخل البطانة في نفس اللحظة التي جاء فيها الطبيب ورجل آخر إلى الممر، فألقت بنفسها على الأريكة وبدأت تتأوه. انتظرت وعلمت مما كان يدور بين الرجل والطبيب أنها كانت تتظاهر بأنها مصابة بالدوار، وقد قلت إنها كانت «تتظاهر» لأنني عندما رأيتها أول مرة كان واضحاً أنها لا تعاني من شيء من هذا القبيل.

أومأ تومي برأسه ثم قال: حسناً؟

- أكره أن أخبرك عن الجزء التالي من القصة، فقد كنت فضولية! كما أنني كنت أقرأ الروايات السخيفة، فتساءلت إن كانت قد وضعت قنبلة أو إبرة مسمومة أو شيئاً من هذا النوع في حذاء السيد ويلموت. أعرف أنه تفكير سخيف... لكنه هو ما فكرت فيه فعلاً. على أي حال مررت بعد ذلك من جانب القمرة وهي فارغة فتسللت إلى الداخل وتفحصت الحذاء وأخرجت من البطانة قطعة من ورق، وعندما كنت أضعها في يدي سمعت وقع أقدام المضيف فأسرعت خارجة حتى لا يراني في الداخل. كانت الورقة المطوية ما تزال في يدي، وعندما دخلت إلى كابينتي تفحصتها فلم أجد فيها سوى بعض الأشعار.

- أشعار؟!

- هذا ما ظننته في ذلك الوقت على الأقل. ولم أشعر أن من الضروري إعادتها إلى مكانها، فاحتفظت بها دون تفكير بأهميتها حتى الأمس عندما عملت منها قارباً من ورق ليلهو به ابن أختي الصغير في حمامه. وعندما ابتلت الورقة بالماء رأيت تصميماً غريباً

مرسوماً عليها، فأخرجتها من الماء بسرعة وسوّيتها. لقد كشف الماء الرسالة المخفية؛ كانت نوعاً من الرسم المنسوخ وبدت مثل مدخل ميناء. وبعد ذلك مباشرة قرأت إعلانك.

قفز تومي عن كرسيه وقال: لكن هذا مهم جداً. لقد فهمت الآن كل شيء؛ يمكن أن يكون هذا الرسم مخططاً لدفاعات ميناء مهم، وقد أخفته هذه المرأة لأنها خشيت من وجود شخص يتعقبها، وحيث إنها لم تجرؤ على إخفائه بين أغراضها فقد اخترعت هذا المكان لإخفائه فيه. وبعد ذلك حصلت على الحقيبة التي في داخلها الحذاء لتكتشف أن الورقة قد اختفت! أخبريني يا آنسة مارش، هل أحضرت هذه الورقة معك؟

هزت الفتاة رأسها بالنفي وقالت: إنها في مكان عملي. أنا أدير صالون تجميل في شارع بوند، فأنا -في الحقيقة- وكيلة لمستحضرات سايكلامين في نيويورك، وهذا هو سبب سفري إلى هناك. وقد حسبت أن الورقة قد تكون مهمة ولذلك وضعتها في الخزنة وأغلقت عليها قبل أن أخرج. ألا يجب أن تُعلم الشرطة بشأنها؟

- بلى.

- إذن هل نذهب إلى هناك الآن ونخرجها ثم نأخذها مباشرة إلى شرطة اسكتلنديارد؟

قال تومي وهو يتظاهر بالأهمية: أنا مشغول جداً بعد ظهر هذا اليوم، فقد أرسل أسقف لندن في طلبي لأساعده في حل مشكلة تواجهه.

قالت الآنسة مارش وهي تنهض عن مقعدها: في هذه الحالة سأذهب وحدي.

رفع تومي يده معترضاً وقال: لا، لا؛ الأسقف يستطيع أن ينتظرني، سوف أترك له رسالة صغيرة مع ألبرت. أنا مقتنع -يا آنسة مارش- بأنك ستكونين في خطر مستمر حتى تسلّمي تلك الورقة إلى الشرطة.

قالت الفتاة بارتياب: هل تظن ذلك؟

- ليس ظناً، بل هو اليقين.

أخذ من أمامه دفتراً فكتب عليه بعض الكلمات، ثم أخذ قبعته وعصاه وأخبر الفتاة بأنه جاهز لمرافقتها. وفي المكتب الخارجي سلّمَ الورقة لألبرت متصنعاً الأهمية وقال: لقد استُدعيت إلى قضية مهمة جداً. أرجو أن تشرح ذلك لنيافة الأسقف، وهذه ملاحظاتي للآنسة روبنسون.

قال ألبرت متظاهراً: وماذا عن جواهر الدوقة؟

أشار تومي بيده غاضباً وقال: يمكن لهذه أن تنتظر أيضاً.

ثم أسرعا خارجين من المكتب. وفي وسط الدرج تقابلا مع توبنس التي كانت صاعدة إلى المكتب، فمرّ تومي من جانبها وقال بسرعة: تأخرتِ ثانية يا آنسة روبنسون، لقد استُدعيتُ إلى قضية مهمة.

وقفت توبنس على الدرج جامدة وحدقت إليهما وهما ذاهبان، ثم أكملت طريقها إلى المكتب وهي مدهوشة.

عندما وصلا إلى الشارع جاءتهما سيارة أجرة، وعندما أوشك تومي على طلب السيارة غيّر رأيه. سألها بجدية: هل تستطيعين السير يا آنسة مارش؟

- نعم، لماذا؟ أليس من الأفضل أن نركب سيارة أجرة؟ سيكون هذا أسرع.

- ربما لم تلحظي. لقد رفض سائق تلك السيارة الوقوف لأحد الركاب هناك في أسفل الشارع، لقد كان ينتظرنا. إن أعداءك يراقبونك! إن كنت تشعرين بأنك قادرة على المشي فمن الأفضل لنا أن نذهب إلى شارع بوند سيراً على الأقدام، فهم لن يتمكنوا من الاعتداء علينا في مثل هذه الشوارع المزدحمة.

قالت الفتاة مرتابة: حسناً.

ثم سارا باتجاه الغرب. كانت الشوارع مزدحمة كما قال تومي وكان التقدم بطيئاً، وظلّ تومي يراقب مَن حوله مراقبة حادة، وكان بين فَينة وأخرى يسحب الفتاة إلى أحد الجوانب بإيماءة سريعة، رغم أنها لم تكن ترى ما يثير الارتياب.

وفجأة نظر إليها فتوقف بشيء من وخز ضميره وقال: تبدين شاحبةً جداً ومتعبة. إنها من أثر صدمة ذلك الرجل. هيّا تدخل هنا ونتناول كوباً من القهوة.

بقيا وقتاً طويلاً وهما يشربان قهوتهما، ثم انطلقا في خطوات سريعة. قال تومي وهو ينظر وراءه: أظن أننا ضللناهم.

كانت مؤسسة سايكلامين المتحدة مؤسسة صغيرة في شارع

بوند تزين واجهتها ستائر وردية وبعض علب مساحيق الوجه والصابون. دخلت سيسلي مارش وتبعها تومي، وكان المكان في الداخل ضيقاً. كان على اليسار واجهة زجاجية عليها بعض مستحضرات التجميل، وخلفها وقفت امرأة متوسطة العمر ذات شعر رمادي، وقد استجابت لدخول سيسلي مارش بإيماءة خفيفة قبل أن تواصل حديثها مع سيدة من الزبائن.

كانت تلك الزبونة امرأة سمراء صغيرة الجسم، وكانت تدير ظهرها لهما فلم يتمكنا من رؤية وجهها. كانت تتكلم بلهجة إنكليزية بطيئة غير متقنة، وعلى جهة اليمين أريكة وكرسيان مع بعض المجلات على طاولة، وهناك جلس رجلان بدا وكأنهما ينتظران زوجتيهما بملل.

عبرت سيسلي مارش أحد الأبواب في المؤخرة وتركته مفتوحاً ليدخل منه تومي وراءها، وعندما دخل تومي صاحت الزبونة: آه، إنه هو! ثم اندفعت وراءهما ووضعت قدمها في الداخل لتمنع إغلاق الباب، وفي اللحظة نفسها نهض الرجلان الجالسان فتبعها أحدهما نحو الباب بينما تقدم الآخر نحو البائعة ووضع يده على فمها ليمنع صرخة أوشكت أن تطلقها.

وفي غضون ذلك سارت الأمور بسرعة خلف الباب المتأرجح، فعندما دخل تومي أُلقيت على وجهه قطعة من قماش وعبرت أنفَه رائحةٌ قوية مغثية، ثم أُبعدت هذه القطعة عن وجهه بسرعة وعلا صراخ امرأة.

طرفت عينا تومي قليلاً وسعل عندما فوجئ بالمشهد أمامه؛

كان على يمينه ذلك الرجل الغريب الغامض الذي اقتحم مكتبه قبل ساعات قليلة فيما كان أحد الرجلين اللذين كانا في الصالة يقيده، ورأى أمامه سيسلي مارش تصارع لتحرير نفسها ولكن عبثاً، بينما كانت الزبونة المجهولة تمسك بها بقوة. وعندما التفتت هذه الزبونة برأسها وسقط الخمار الذي كانت تضعه على الأرض ظهرت ملامح وجه توبنس المعروفة!

قال تومي وهو يتقدم: حسناً فعلتِ يا توبنس. دعيني أساعدك، لو كنت مكانك يا آنسة أوهارا لما قاومت، أم تحبين أن أناديك بالآنسة مارش؟

قالت توبنس: هذا هو المفتش غريس يا تومي. لقد اتصلت بشرطة اسكتلنديارد حالما قرأت الرسالة التي تركتَها لي فجاء المفتش غريس ورجل آخر معه وقابلاني خارج هذا المحل.

قال المفتش وهو يشير إلى سجينه: أنا مسرور جداً للإمساك بهذا الرجل فهو مطلوب منذ بعض الوقت، ولكن لم يكن لدينا أي سبب يدعونا إلى الاشتباه بهذا المكان من قبل... كنّا نظنه صالون تجميل حقيقياً.

أوضح تومي بلطف: لقد فكرت في الأمر ملياً؛ لماذا يريد شخصٌ حقيبةَ السفير لمدة ساعة واحدة أو نحو ذلك؟ ثم نظرتُ إلى المسألة من الزاوية المعاكسة، لنفترض أن الحقيبة وُضعت وسط أمتعة السفير لمدة ساعة واحدة أو نحو ذلك. إن لهذا العمل مغزى أكبر بكثير؛ فالحقائب الدبلوماسية لا تخضع للتفتيش الجمركي. من الواضح أنها قضية تهريب، ولكن تهريب ماذا؟ أشياء ليست كبيرة

الحجم بل صغيرة بحيث تتسع لها تلك الحقيبة بسهولة، وهكذا فكّرت بالمخدرات على الفور. ثم جرت تلك المسرحية الكوميدية في مكتبي! كانا قد شاهدا إعلاني فأرادا أن يضلّلاني، وإذا ما فشلا في ذلك فربما فكّرا في التخلص مني تماماً. ولكن تصادف وأن رأيت تعبير خيبة الأمل في عينَي الفتاة عندما كان ألبرت يوثق الرجل بحباله. لم يكن هذا مناسباً لدورها المفترض، فقد كان المقصود من هجوم الرجل الغريب هذا هو جعلي أثق فيها. ومن ثم قمت بدور الشرطي السري الساذج بكل ما أستطيع! تظاهرت بتصديق قصتها المستحيلة وسمحت لها بأن توقعني في هذا الشرك، مع حرصي الشديد على أن أترك ورائي تعليمات كاملة للتعامل مع الموقف. وقد أخّرتُ وصولنا إلى المحل بمبررات مختلقة حتى أعطيكم وقتاً كافياً للتحرك.

كانت سيسلي مارش تنظر إليه وقد تجمّدت عيناها، ثم قالت: أنت مجنون! ماذا تظن أنك ستجد هنا؟

- تذكرين أن ريتشاردز رأى علبة أملاح استحمام، ماذا تقول -أيها المفتش- لو بدأنا بأملاح الاستحمام هذه؟

- فكرة معقولة جداً يا سيدي.

رفع واحدة من العلب الوردية الجميلة وأفرغها على الطاولة، فضحكت الفتاة.

قال تومي: أملاح استحمام حقيقية، أليس كذلك؟ لا شيء غيرها.

قالت توبنس: جرب تفتيش الخزنة.

كانت في الحائط عند إحدى الزوايا خزنة صغيرة، وكان المفتاح في القفل. فتحها تومي وصرخ صرخة سرور، إذ كانت خلف باب الخزنة فتحة كبيرة في الجدار وكانت هذه الفتحة مكدّسة بنفس علب أملاح الاستحمام الجميلة هذه. كانت توجد منها صفوف وصفوف، فأخرج تومي واحدة منها ورفع الغطاء. كان أعلاها يظهر وجود ملح استحمام وردي اللون، ولكن كان تحتها مسحوق أبيض ناعم.

صاح المفتش ذاهلاً: لقد نجحت يا سيدي في كشف الأمر. أنا واثق من أن هذه العلب مليئة بالكوكائين النقي! كنّا نعرف بوجود مركز توزيع في هذه المنطقة في غربي لندن لكننا لم نستطع العثور على مفتاح يدلنا عليه. إنه عمل رائع يا سيدي.

قال تومي يخاطب توبنس عندما خرجا إلى الشارع معاً: إنه نصر رائع لمكتب بلانت للتحريات. سوف تُعدّ رسالة رسمية للسفير تبلغه فيها بأننا تعاملنا مع المسألة وكانت النتيجة مرضية. والآن يا عزيزتي، ما رأيك في فنجان من الشاي والكثير من القطائر المدهونة بالزبدة؟

* * *

الفصل الخامس عشر

الرجل الذي كان الرقم «١٦»

كان تومي وتوبنس جالسَين مع الرئيس في غرفته الخاصة، وبدا مديحه لهما حاراً وصادقاً وهو يقول: لقد نجحتما نجاحاً يثير الإعجاب؛ فبفضلكما استطعنا الإمساك بما لا يقلّ عن خمسة أشخاص، ومن هؤلاء حصلنا على معلومات قيّمة جداً. وفي غضون ذلك علمت من مصدر موثوق بأن القيادة في موسكو قد تنبّهت إلى فشل عملائها في الحصول على معلومات، وأحسب أنهم قد بدؤوا يشكّون -بالرغم من احتياطاتنا- بأن ما نسمّيه «مركز التوزيع» (أي مكتب السيد ثيودور بلانت أو مكتب التحريات الدولية) ليس كما يبدو وأنه يثير الشبهة.

قال تومي: أحسب أنهم كانوا سيكتشفون هذه الحقيقة في وقت من الأوقات يا سيدي.

- كما تقول... كان هذا متوقعاً. لكنني قلق قليلاً على السيدة بيرسفورد.

- أستطيع الاعتناء بها يا سيدي.

قالها تومي في نفس الوقت الذي قالت فيه توبنس: أنا أستطيع العناية بنفسي.

قال السيد كارتر: لقد كانت الثقة المفرطة بالنفس من صفاتكما دائماً. لا أدري إن كانت مناعتكما ترجع كلها إلى ذكائكما الشديد أم أن فيها شيئاً من الحظ، لكن الحظ يتغير كما تعلمان. لن أجادل في هذه النقطة على أي حال، فمن خلال معرفتي الواسعة بالسيدة بيرسفورد لا أرى من المفيد الطلب منها أن تبقى بعيدة عن الأضواء خلال الأسبوع القادم أو الأسبوعين القادمين.

هزت توبنس رأسها بقوة رافضة هذا العرض.

- إذن فكل ما أستطيع عمله هو إعطاؤكما كل المعلومات المتوفرة عندي. لدينا سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأن موسكو قد أرسلت إلى هذا البلد عميلاً خاصاً. لا نعرف الاسم الذي سيدخل البلاد به ولا نعرف متى سيصل، لكننا نعرف عنه بعض الأشياء. إنه رجل سبّبَ لنا متاعب كثيرة في الحرب، فهو موجود في كل مكان في وقت واحد، ويظهر دوماً في المكان الذي لا تتوقعه أبداً. وهو روسي بالمولد وضليع باللغات، ولذلك يستطيع انتحال أكثر من ستّ جنسيات بما فيها جنسيتنا، كما أنه أستاذ بارز في فن التنكر. إنه رجل ذكي جداً وهو الذي اخترع شيفرة الرقم ١٦. لا أعرف متى سيظهر أو كيف، لكني متأكد تماماً من أنه سيظهر. نحن على يقين من أنه لم يكن يعرف السيد ثيودور بلانت الحقيقي معرفة شخصية، وأظن أنه سيأتي إلى مكتبك بحجة قضية يريد منك أن تتولاها وسوف يختبرك بكلمات السر. الكلمة الأولى هي

ذكر الرقم ١٦ كما تعرف، حيث ترد عليه بجملة تحتوي على نفس الرقم. والثانية التي علمناها لتوّنا هي سؤال منه لك إن كنت قد عبرت القنال، وجوابك على هذا هو: «كنت في برلين يوم الثالث عشر من الشهر الماضي»، وهذا كل شيء حسب علمنا. أرى أن تجيبه إجابة مضبوطة حتى تستطيع كسب ثقته، مثّل دورك قدر المستطاع، ولكن حتى لو بدا أنه قد خُدِعَ بك تماماً فابقَ محترساً منه. إن صديقنا ذكي ماكر ويستطيع القيام بلعبة مزدوجة مثلك وأكثر، ولكن في جميع الحالات أرجو أن تحوز على ثقته. ومن الآن فصاعداً سأقوم بإجراءات احترازية خاصة؛ لقد وضعنا جهاز تنصت في مكتبك في الليلة الماضية حتى يستطيع أحد رجالي في غرفة أسفل منك أن يسمع كل ما يدور في مكتبك، وبهذه الطريقة سيتم تبليغي على الفور بأي شيء يحدث، وهكذا نستطيع اتخاذ الإجراءات الضرورية لحمايتك وحماية زوجتك بينما تمسك بالرجل الذي نبحث عنه.

وبعد تلقي المزيد من التعليمات ومناقشة أساليب العمل غادر تومي وزوجته إلى مكتب التحريات الدولية على وجه السرعة.

قال تومي وهو ينظر إلى ساعته: الوقت متأخر، إنها الثانية عشرة. لقد جلسنا مع الرئيس وقتاً طويلاً. أرجو أن لا تكون قد فاتتنا أية قضية هامة.

قالت توبنس: إن ما قمنا به ليس بالأمر السيّئ على أي حال. كنت بالأمس أفكر في النتائج؛ لقد حللنا ألغاز أربع جرائم غامضة وألقينا القبض على عصابة لتزييف العملة وعصابة مهربين...

قاطعها تومي: الواقع أنهما عصابتان. نعم، إنني مسرور بهذا الإنجاز، فلكلمة «عصابة» وقع يوحي بالاحتراف.

أكملت توبنس وهي تعدّ على أصابعها: سرقة جواهر واحدة، ونجونا من موت محقق مرتين، قضية فقدان سيدة تُغيّر مظهرها، مساعدة فتاة شابة، اكتشاف وتفنيد دفع بالغيبة، ثم للأسف... قضية واحدة ظهرنا فيها كالمغفلين. وإجمالاً كان عملنا رائعاً؛ أظن أننا أذكياء جداً.

- هذا ما ترينه، لقد آمنتِ دوماً بذلك. لديّ إحساس داخلي الآن بأننا كنا محظوظَين في بعض القضايا.

- بل يرجع هذا كله إلى ذكائنا.

- أما أنا فكنت محظوظاً جداً في واحدة على الأقل، عندما قام ألبرت بإلقاء حبله على عنق الرجل! لكنك تتكلمين وكأن كل شيء قد انتهى يا توبنس.

- إنه كذلك.

ثم خفضت صوتها وقالت: هذه قضيتنا الأخيرة، فبعد إمساكنا بهذا الجاسوس البارز سنتقاعد (شأننا في ذلك شأن رجال التحري العظام) ونبدأ بتربية النحل أو زراعة الكوسا... هذا ما يحدث دائماً.

- هل سئمتِ من هذا العمل؟

- نعم، أظن ذلك. وعلى الرغم من أننا ناجحان جداً الآن... إلا أن الحظ يتغيّر.

سألها تومي فرحاً: من الذي تحدث عن الحظ الآن؟

في تلك اللحظة كانا قد وصلا إلى مدخل المبنى الذي يوجد فيه مكتب التحريات الدولية، ولذلك لم ترد توبنس عليه. كان ألبرت يقوم بواجبه في المكتب الخارجي وكان يقضي وقت فراغه في محاولة موازنة المسطرة فوق أنفه.

دخل السيد بلانت العظيم إلى مكتبه الخاص بعد أن وبّخ ألبرت على فعله بتقطيبة من جبينه. خلع معطفه وقبعته ثم فتح الخزانة التي كانت تحتوي على الروايات البوليسية العظيمة، ثم قال: إن الخيار يضيق. ما هي الشخصية التي ستكون قُدوتي اليوم؟

ردت توبنس عليه بنبرة غريبة جعلته يلتفت إليها بحدة: تومي، ما هو تاريخ اليوم؟

- إننا في الحادي عشر من الشهر. لماذا؟

- انظر إلى التقويم.

كان على الجدار تقويم من النوع الذي تُنزَع منه ورقة كل يوم، وكانت الورقة تشير إلى يوم الأحد السادس عشر.

- إنه عمل غريب. لا بد أن ألبرت قد نزع الكثير من الأوراق! إنه مهمل.

قالت توبنس: لا أحسبه فعل ذلك، ولكن سنسأله.

عندما استُدعي ألبرت وسُئِل بدا ذاهلاً جداً وأقسم أنه لم ينزع إلاّ ورقتين فقط هما ورقتا السبت والأحد، وقد دعم كلامه هذا

عندما وجد تومي الورقتين في المدفأة، بينما كانت الأوراق الأخرى ملقاة في سلة المهملات بشكل مرتب.

قال تومي: مجرم **منظَّم ومنهجي!** من كان هنا اليوم يا ألبرت؟ هل هو زبون؟

- واحد فقط يا سيدي.

- ومن هو؟

- إنها امرأة، ممرضة مستشفى. كانت مهتمة برؤيتك وقالت إنها ستنتظر عودتك، فأجلستها في مكتب الكتَبة لأن الجو دافئ فيه.

- ومن هناك تستطيع الدخول إلى هنا دون أن تراها بالطبع! منذ متى ذهبت؟

- قبل نصف ساعة تقريباً يا سيدي، وقالت إنها ستعود بعد ظهر اليوم. إنها امرأة لطيفة تبدو كأم حنون.

- أم حنون؟ آه! اخرج يا ألبرت.

خرج ألبرت وقد جُرحت مشاعره، وقال تومي: هذه بداية غريبة تبدو بلا معنى! إنه عمل يجعلنا نحترس. أرجو أن لا نجد قنبلة مخبأة في المدفأة أو أي شيء من هذا القبيل.

طمأن نفسه بشأن هذه النقطة، ثم جلس وراء المكتب وخاطب توبنس قائلاً: يا عزيزتي! إننا نواجه الآن مسألة في غاية الخطورة، فأنت تذكرين الرجل الذي كان معروفاً بالرقم «٤»، ذلك الذي

سحقته في الجبال بالمتفجرات الشديدة كما أسحق قشرة البيضة... لكن يبدو أنه لم يمت. آه، إنهم لا يموتون أبداً، أقصد هؤلاء المجرمين العُتاة! ها قد عاد مرة أخرى، لكنه صار أربعة مربّعة هذه المرة، صار رقم «١٦»! هل تفهمين يا صديقتي؟

قالت توبنس: طبعاً، طبعاً، أنت تمثل اليوم دور هيركيول بوارو العظيم.

- بالضبط. من غير شارب، ولكن عندي الكثير من الخلايا الرمادية.

- لديّ إحساس بأن هذه المغامرة بالذات سوف تسمى «انتصار هيستنغز».

- لا تتفاءلي بانتصارك في هذه القضية؛ لقد كان هيستنغز دائماً الصديق المغفل لبوارو. هناك قواعد لهذه الأمور. على فكرة يا صديقتي، ألا يمكنك أن تفرقي شعرك في الوسط تماماً بدلاً من أحد الجانبين؟ إن شكل رأسك الحالي غير متناسق ويبعث على الأسى.

رنّ الجرس على مكتب تومي رنيناً حاداً، فضرب على الجرس من جهته فجاء ألبرت يحمل بطاقة. قرأ تومي بصوت منخفض: الأمير فلاديروفسكي.

ثم نظر إلى توبنس وقال: عجباً. هل... أدخله يا ألبرت.

كان الرجل الذي دخل متوسط الطول بهيّ الطلعة ذا لحية شقراء ويبدو في الخامسة والثلاثين من عمره. سأل بلهجة إنكليزية

متقنة: السيد بلانت؟ لقد نصحوني كثيراً بالمجيء إليك. هل يمكنك أن تتولى قضية لصالحي؟

- إذا أعطيتني التفاصيل.

- بالتأكيد. إنها تخص ابنة صديق لي... فتاة في السادسة عشرة من عمرها. نحن حريصون على عدم حدوث فضيحة.

قال تومي: يا سيدي العزيز، إننا ندير هذا العمل منذ ستة عشر عاماً، وما هذا إلا بسبب حرصنا الشديد على ذلك المبدأ بعينه.

تخيّلَ أنه لمح وميضاً مفاجئاً في عين الرجل الآخر، لكن ذلك الوميض (إن صحّ تخيله) مضى بالسرعة التي ظهر فيها.

- أعتقدُ أن لديك فروعاً في الجانب الآخر من القنال؟

رد عليه تومي بتأنٍّ كبير: آه، نعم. في الواقع لقد كنت في برلين يوم الثالث عشر من الشهر الماضي.

قال الغريب: في هذه الحالة ليس من الضروري الاستمرار في هذه القصة الخيالية الصغيرة؛ يمكنني التغاضي عن قصة ابنة صديقي هذه. أنت تعرف من أنا... وعلى أي حال أرى أنك قد تلقيت إنذاراً بقدومي.

أومأ باتجاه التقويم المعلق على الجدار، فقال تومي: صحيح.

- يا أصدقائي، لقد جئت إلى هنا للتحقيق في بعض الأمور. ما الذي كان يحدث؟

قالت توبنس بعد أن عجزت عن الجلوس صامتة: خيانة.

حوّل الروسي انتباهه إليها ورفع حاجبيه بدهشة. قال: آه، هل الأمر كذلك؟ هذا ما ظننته. هل كان الخائن هو سيرجيوس؟

ردت عليه توبنس بدون ارتباك: نظن ذلك.

- هذا لا يفاجئني. ولكن أنتما، هل يشتبهون بكما؟

قال تومي: لا أظن ذلك؛ فنحن نقوم بكثير من الأعمال الحقيقية كما ترى.

أومأ الروسي برأسه وقال: إنه عمل حكيم. ومع ذلك أظن أنه من الأفضل أن لا آتي إلى هنا ثانية. أنا مقيم في فندق بليتز في الوقت الحالي، سآخذ ماريس... أظن أن هذه هي ماريس، أليس كذلك؟

أومأت توبنس بالإيجاب.

- ما اسمها المعروف هنا؟

- الآنسة روبنسون.

- حسناً، ستعودين معي يا آنسة روبنسون إلى فندق بليتز وتتناولين معي الغداء هناك، وسوف نتقابل جميعنا في القيادة في الساعة الثالثة. هل هذا واضح؟

قال الجملة الأخيرة وهو ينظر إلى تومي، فرد تومي وهو يتساءل في نفسه عن مكان مقر القيادة: واضح تماماً.

لكنه خمّنَ أن هذا هو مقر القيادة الذي كان السيد كارتر متلهفاً على اكتشافه.

نهضت توبنس وارتدت معطفها الأسود الطويل وقالت إنها جاهزة لمرافقة الأمير. خرجا معاً وظل تومي فريسة للعواطف المتصارعة: افترض أن خللاً قد وقع في جهاز التنصت؟ افترض أن الممرضة الغامضة عرفت بطريقة أو بأخرى بأمر وجوده فقامت بتخريبه!

أمسك بسماعة الهاتف واتصل برقم معين، حدث بعض التأخير قبل الرد ثم رد عليه صوت يعرفه جيداً: جيد، تعال إلى فندق بليتز على الفور.

بعد خمس دقائق كان تومي يقابل السيد كارتر في قاعة بالْم كورت في الفندق المذكور. كان السيد كارتر مطمئناً وجازماً وهو يقول: لقد قمت بعملك على أحسن وجه. إن الأمير والسيدة الصغيرة يتناولان الغداء في المطعم، وقد وضعت اثنين من رجالي هناك بصفة نادلين. وسواء أشكّ في الأمر أم لم يشك (مع أنني متأكد تماماً من أنه لا يشكّ) فقد أصبح طوع أيدينا. هناك رجلان يقفان في الطابق العلوي لمراقبة غرفته، والمزيد من الرجال في الخارج على أهبة الاستعداد للذهاب إلى حيث يذهبان. لا تقلق على زوجتك فسوف تكون تحت المراقبة طوال الوقت، فأنا لست مستعداً لأية مجازفات.

بين فينة وأخرى كان يأتي رجل من رجال المخابرات ليخبرهما بآخر التطورات. في المرة الأولى كان الرجل نادلاً جاء ليسجل طلبهما حيث طلبا فنجانين من الشاي، أما في المرة الثانية فكان شاباً أنيقاً ذا وجه لا يوحي بشيء.

قال السيد كارتر: إنهما خارجان. سنختبئ وراء هذا العمود

حتى لا يريانا إذا ما جلسا هنا، لكني أظن أنه سيأخذها معه إلى غرفته. آه، نعم، هذا ما ظننته.

من مخبئهما وراء العمود شاهد تومي الرجلَ الروسي وتوبنس يعبران الصالة ثم يدخلان المصعد. ومرت الدقائق فبدأ تومي بالتململ، ثم سأل: هل تظن يا سيدي... أقصد وهما وحيدان في تلك الغرفة...

- يوجد واحد من رجالي في الداخل وراء الأريكة، لا تقلق يا رجل.

جاء نادل من الصالة وتقدم نحو السيد كارتر قائلاً: تلقيت إشارة بأنهما صاعدان، لكنهما لم يصلا. هل الأمر طبيعي؟

التف السيد كارتر بسرعة وهتف: ماذا؟ لقد رأيتهما بنفسي وهما يدخلان المصعد. قبل...

ثم نظر إلى الساعة وقال: قبل أربع دقائق ونصف فقط. وإلى الآن لم يظهرا!

أسرع نحو المصعد الذي كان قد نزل لتوّه مرة أخرى وتكلم مع عامل المصعد: لقد أخذتَ رجلاً بلحية شقراء وسيدة شابة قبل بضع دقائق إلى الطابق الثاني.

- ليس الطابق الثاني يا سيدي، لقد طلب الرجل أن آخذه إلى الطابق الثالث.

قفز الرئيس وهو يشير إلى تومي بأن يرافقه، وقال لعامل المصعد: خذنا إلى الطابق الثالث من فضلك.

تمتم بصوت منخفض: لا أفهم ما يجري. ولكن اهدأ، فكل مخرج من مخارج الفندق تحت المراقبة، كما أن لديّ رجلاً يراقب الطابق الثالث... والواقع أن هناك رجلاً في كل طابق. ما كنت لأجازف.

فُتح باب المصعد عند الطابق الثالث فخرجا منه بسرعة باتجاه الممر، وفي منتصفه جاء رجل يلبس لباس نادل لمقابلتهما وقال: الأمر جيد أيها الرئيس، إنهما في الغرفة رقم ٣١٨.

تنفس كارتر الصعداء ثم قال: لا بأس بهذا، ألا يوجد أي مخرج آخر؟

- إنه جناح، ولكن هذين البابين هما الوحيدان اللذان يطلان على الممر، وحتى يخرجا من أي باب منهما يجب أن يمرّا من جانبنا حتى يصلا إلى الدرج أو إلى المصعد.

- إذن لا خوف. اتصل بالاستقبال لتعرف من هو الشخص الذي يُفترض أن يكون قد حجز هذا الجناح.

عاد النادل بعد وقت قصير وقال: السيدة كورتلاندت فان شنايدر من ديترويت.

بدأ السيد كارتر يتأمل: ترى هل السيدة فان شنايدر هذه متآمرة معه أم أنها...

ترك الجملة دون أن يكملها. ثم سأل الرجل فجأة: هل سمعتَ أي صوت من الداخل؟

- لم أسمع شيئاً، لكن الأبواب تُغلق بإحكام وليس هناك أمل في سماع الكثير.

حزم السيد كارتر أمره فجأة وقال: إنني غير مرتاح لهذا الأمر؛ سوف ندخل. هل لديك المفتاح الرئيسي؟

- بالطبع يا سيدي.

- استدعِ إيفانز وكليدسلي.

جاء الرجلان، وتقدموا جميعاً نحو بابِ الجناح الذي فُتح دون إحداث أي صوت بعد أن أدخل الرجل الأول مفتاحه. وجدوا أنفسهم في صالة صغيرة، على اليمين كان يوجد باب الحمام مفتوحاً وأمامهم كانت غرفة الجلوس، وإلى يسارهم كان يوجد باب مغلق ومن ورائه صوت خافت مكبوت يمكن سماعه.

فتح السيد كارتر الباب ودخل. كانت غرفة نوم بسرير كبير مغطى بغطاء وردي، وعليه امرأة متوسطة العمر مقيدة اليدين والقدمين وفمها مغلق بكمامة وتكاد عيناها تخرجان من محجرَيهما ألماً وغضباً، وكانت المرأة ترتدي ثياباً أنيقة.

بأمر سريع من السيد كارتر انتشر الرجال الآخرون في الجناح. لم يدخل الغرفة مع الرئيس إلا تومي، وبينما انحنى كارتر فوق السرير في محاولة جاهدة لفك قيود المرأة جالت عيناه في أنحاء الغرفة متحيراً، فقد كانت الغرفة فارغة فيما عدا عدد كبير من الأمتعة والحقائب الأميركية. لم تكن هناك أية إشارة إلى وجود الروسي أو توبنس!

وبعد دقيقة جاء أحد الرجال مسرعاً وأبلغ بأن الغرف الأخرى فارغة هي الأخرى. ذهب تومي نحو النافذة ولكنه سرعان ما تراجع وهزّ رأسه كمن يستبعد فكرة ما؛ فلم تكن هناك شرفة، لا شيء وراء النافذة غير الشارع أسفل منها.

سأل كارتر بحزم: هل أنت متأكد من أنهما دخلا هذه الغرفة؟

- بالتأكيد، بالإضافة إلى...

وأشار الرجل إلى المرأة المقيّدة على السرير. شقّ كارتر المنديل الذي كان يغطي فمها بمدية صغيرة، وبدا واضحاً على الفور أن معاناة السيدة لم تمنعها من استخدام لسانها، وعندما استنزفت طاقتها في التعبير عن سخطها تكلم السيد كارتر بهدوء: هل تذكرين لي ما حدث بالضبط، منذ البداية؟

- لا بد من مقاضاة الفندق بسبب هذا العمل... إنه إهانة كبيرة. كنت أبحث عن زجاجة عطري عندما قفز عليّ رجل من الخلف وكسر زجاجة صغيرة تحت أنفي، ففقدت وعيي قبل أن آخذ نفساً واحداً. وعندما استعدت وعيي وجدت نفسي ممددة هنا ومقيدة اليدين والرجلين. الله وحده يعلم ماذا حدث لجواهري... أظن أنه سرقها.

قال السيد كارتر بجفاء: أظن أن جواهرك في أمان.

ثم استدار والتقط شيئاً عن الأرض وقال: هل كنت تقفين في نفس مكاني هذا عندما انقضّ الرجل عليك؟

- نعم.

كان الذي التقطه السيد كارتر عن الأرض قطعة صغيرة من زجاج رقيق. شمّها وأعطاها لتومي قائلاً: كلوريد الإيثيل، مخدِّر فوري ولكنه يُفقد الوعي لبضع دقائق فقط. لابد أنه كان موجوداً في الغرفة عندما استعدتِ وعيك يا سيدتي؟

- أليس هذا ما قلته لك قبل قليل؟ آه! لقد فقدت صوابي عندما رأيته يهرب دون أن أستطيع الحركة أو فعل أي شيء.

قال السيد كارتر بحدة: هرب؟ من أي مكان؟

- من ذلك الباب.

أشارت إلى باب في الجدار المقابل، ثم أضافت: كانت معه فتاة، لكنها بدت مترنّحة وكأنها أخذت جرعة من نفس المخدر.

نظر كارتر إلى تابعه نظرة تساؤل فقال: إنه يؤدي إلى الجناح المجاور يا سيدي، ولكن يُفترض أن تكون هذه الأبواب مقفلة بالمزلاج من الجانبين.

تفحص السيد كارتر الباب بحرص شديد، ثم عدل وقفته والتفت إلى السرير وقال بهدوء: سيدة فان شنايدر، أما زلت تصرين على أن الرجل خرج من هذا الباب؟

- بالتأكيد. ولماذا لا يكون ذلك؟

- لأن الباب مقفل بالمزلاج من هذه الناحية.

قالها السيد كارتر بجفاء وهو يحرك مقبض المزلاج، فارتسمت على وجه السيدة فان شنايدر علامات الذهول.

قال السيد كارتر: لا يمكن أن يكون قد خرج من هذا الباب إلاّ إذا افترضنا مجيء أحد ليقفل الباب وراءه!

ثم التفت إلى إيفانز الذي كان قد دخل الغرفة لتوّه وقال: هل أنت متأكد من أنهما غير موجودَين في هذا الجناح؟ هل توجد أية أبواب أخرى توصل بين الجناحين؟

- لا يا سيدي، وأنا متأكد من هذا تماماً.

قلّب كارتر نظره في أنحاء الغرفة. فتح خزانة الملابس الحائطية ونظر تحت السرير ثم نظر إلى المدخنة وبحث خلف جميع الستائر، وأخيراً وبعد أن خطرت له فكرة فجأة (ودون أن يأبه لاعتراضات السيدة فان شنايدر الشديدة) فتح صندوق الثياب الكبير وقلّب محتوياته بسرعة.

وفجأة صاح تومي الذي كان يتفحص الباب الموصل بين الجناحين: تعال هنا يا سيدي، انظر إلى هذا! لقد ذهبا من هذا الطريق فعلاً.

كان المزلاج قد بُرِدَ بالمبرد بطريقة ذكية جداً بحيث يصعب كشفه. وأوضح تومي يقول: الباب لن يُفتح لأنه مقفل من الناحية الأخرى.

بعد قليل كان الجميع خارج الجناح في الممر، ثم فتح النادل باب الجناح المجاور بمفتاحه العمومي. لم يكن ذلك الجناح مستأجَراً، وعندما وصلوا إلى الباب الموصل إلى الجناح المجاور رأوا أن ما جرى للباب من هذه الناحية هو نفس ما جرى له من

الناحية الأخرى؛ لقد كان المزلاج رقيقاً ومبروداً وكان الباب مقفلاً بالمفتاح وليس فيه المفتاح! ولكن لم يكن هناك أي أثر لتوبنس أو للرجل الروسي في أي مكان من الجناح، ولم يكن هناك أي باب آخر فيما عدا الباب المُفضي إلى الممر.

احتج النادل قائلاً: لكني كنت سأراهما وهما خارجان... كنت سأراهما حتماً. أنا متأكد من أنهما لم يخرجا.

صاح تومي: تباً! لا يمكن أن يتبخرا هكذا!

عاد كارتر إلى هدوئه وبدأ دماغه بالعمل؛ قال: اتصل بالاستقبال لتعرف من الذي أقام في هذا الجناح آخر مرة ومتى.

كان إيفانز قد جاء معهم وترك كليدسلي في حراسة الجناح الآخر، وهنا استجاب لطلب سيده. وسرعان ما رفع رأسه بعد أن تحدث مع الاستقبال بالهاتف وقال: فتى فرنسي مُقعَد اسمه السيد بول دي فاريز، وكانت معه ممرضة. وقد غادرا الفندق صباح اليوم.

صاح رجل المخابرات الآخر (النادل) صيحة ذهول، وصار وجهه شاحباً وهو يقول متلعثماً: الولد المريض والممرضة. لقد... لقد مرّا من أمامي في الممر. لم أفكر أبداً... لقد رأيتهم عدة مرات من قبل.

صاح السيد كارتر: هل أنت واثق من أنهما نفسهما؟ هل أنت متأكد أيها الرجل؟ هل نظرت إليهما جيداً؟

هز الرجل رأسه وقال: لم أكد انظر إليهما فقد كنت انتظر وأبحث عن الآخرَين، الرجل صاحب اللحية الشقراء والفتاة.

قال السيد كارتر متأففاً: كانا يعتمدان على ذلك بالطبع.

وفجأة صاح تومي وجثا على الأرض وسحب شيئاً من تحت الأريكة. كانت حزمة صغيرة سوداء ملفوفة، وفتحها تومي فسقطت منها بعض الأشياء. كانت اللفة هي معطف توبنس الأسود الطويل الذي كانت ترتديه ذلك اليوم، وكان في الداخل قبعتها بالإضافة إلى لحية شقراء طويلة.

قال بمرارة: الأمر واضح الآن. لقد أوقعوا بها... أوقعوا بتوبنس. لقد خدعَنا ذلك الشيطان الروسي. كانت الممرضة والغلام شريكَين؛ لقد أقاما هنا يوماً أو يومين حتى يعتاد العاملون في الفندق على وجودهما، ولا بد أن الرجل قد أدرك ساعة الغداء بأنه واقع في فخ فشرع في تنفيذ خطته. وربما اعتمد على أن الغرفة المجاورة فارغة حيث كانت فارغة عندما عالج أمر المزلاجين، وعلى أية حال فقد نجح في إسكات المرأة في هذه الغرفة، وتوبنس أيضاً التي أحضرها إلى هنا ووضع عليها ثياب الصبي، وغيّر مظهره ثم خرجا هكذا بكل وقاحة! لا بد أن الملابس كانت جاهزة ومخبأة، لكني لا أفهم كيف استطاع إجبار توبنس على مسايرته.

قال السيد كارتر: يمكنني فهم ذلك.

التقط قطعة فولاذية صغيرة لامعة عن السجاد وقال: إنها قطعة من إبرة حقنة؛ لقد خُدِّرَت.

صاح تومي متألماً: يا إلهي! وقد نجا بفعلته.

أسرع كارتر يقول: تذكّر بأننا نراقب كل مخرج.

- تراقبون رجلاً وفتاة وليس ممرضة وغلاماً مريضاً... لا بد أنهما غادرا الفندق الآن.

وقد أثبت التحقيق صحة هذه الفرضية؛ فقد خرجت الممرضة ومريضها في سيارة أجرة قبل خمس دقائق تقريباً.

قال السيد كارتر: اسمعني يا تومي، تمالك نفسك بالله عليك! أنت تعرف أنني لن أترك حجراً إلا وسأقلبه بحثاً عن تلك الفتاة. سأعود إلى مكتبي على الفور وفي أقلّ من خمس دقائق سأكون قد شغّلت كل مصادر الإدارة، وسوف نقبض عليهم دون شك.

- أحقاً يا سيدي؟ إنه شيطان ذكي ذلك الروسي، انظر إلى هذه الخدعة الماكرة التي قام بها. أعرف أنك ستبذل جهدك، ولكن أرجو من الله أن لا يكون الوقت متأخراً. لقد خدعونا.

* * *

غادر تومي الفندق ومشى في الشارع وهو لا يكاد يدري إلى أي وجهة هو ذاهب؛ لقد أحس بالشلل التام. أين يبحث؟ ماذا يعمل؟

ذهب إلى حديقة غرين بارك وألقى بنفسه على مقعد هناك. لم يلحظ جلوس شخص آخر بجانبه على الطرف الآخر من المقعد، لكنه جفل عندما سمع صوتاً معروفاً يقول: اسمح لي يا سيدي، هل لي أن أتجرأ...؟

رفع تومي بصره وقال وبصوت فاتر: مرحباً يا ألبرت.

- أنا أعرف كل شيء عن الموضوع يا سيدي. لا تحزن هكذا.

- لا أحزن...

ضحك تومي ضحكة قصيرة ثم قال: كلمة يسهل قولها، أليس كذلك؟

- آه، ولكن فكر يا سيدي. وكالة بلانت للتحريات الدولية! إنها لا تُقهَر أبداً. وأرجو أن تعذرني لقولي إنني سمعت ما كنتَ تتحدث به مع سيدتي صباح اليوم؛ أقصد بشأن السيد بوارو وخلاياه الرمادية الصغيرة. لماذا -إذن- لا تستخدم خلايا دماغك الرمادية الصغيرة لتعرف ما العمل؟

- إن استخدام خلايا دماغك الرمادية الصغيرة في الروايات أسهل من الحقيقة يا ولدي.

- لا أعتقد أن أحداً قادرٌ على التغلب على سيدتي؛ فأنت تعرف كيف هي يا سيدي، مثل تلك العظام المطاطية التي تحضرها ليلهو بها الكلب الصغير... مكفولة ضد الكسر والعطب.

- إنك تفرحني يا ألبرت.

- إذن ماذا عن استخدام خلايا دماغك الرمادية الصغيرة يا سيدي؟

- أنت فتى لَحوح يا ألبرت. إن لعب الأدوار قد خدَمنا جيداً حتى الآن. حسناً، سنجرب ثانية. هيا نرتب الحقائق الموجودة لدينا بشكل مرتب منهجي كما كان هيركيول بوارو سيفعل: في الساعة

الثانية وعشر دقائق بالضبط دخل طريدنا المصعد، وبعد خمس دقائق تكلمنا مع عامل المصعد، وبعد أن سمعنا ما قاله صعدنا نحن أيضاً إلى الطابق الثالث. الساعة الثانية وتسع عشرة دقيقة تقريباً دخلنا جناح السيدة فان شنايدر... والآن ما هي الحقيقة المميزة التي تلفت انتباهنا؟

سكت تومي وألبرت دون أن تلفت انتباهَهما أيةُ حقيقة.

سأله ألبرت: كان في الغرفة شيء كصندوق ثياب؟

قال تومي: يا صديقي! أنت لا تفهم نفسية امرأة أميركية تعود لتوها من باريس. أظن أنه كان يوجد في الغرفة سبعة عشر صندوقاً للثياب على الأقل!

- إن ما أعنيه هو أن الصندوق شيء قريب وفي متناول اليد إن كانت لديك جثة تريد التخلص منها... ولكني لا أقصد أبداً أنها ميتة.

- لقد بحثنا في الصندوقَين اللذين كانا من الضخامة بحيث يمكن أن يخفيا جثة. ما هي الحقيقة التالية في الترتيب الزمني؟

- لقد فاتكم شيء. عندما مرّت سيدتي والرجل الذي ينتحل شخصية الممرضة من أمام النادل في الممر.

- لا بد أن ذلك كان قبل أن تصعد في المصعد تماماً؛ لا بد أنهما أفلتا من لقائنا وجهاً لوجه بأعجوبة. لقد كان عملاً سريعاً جداً. إنني...

ثم سكت، فسأله ألبرت: ما الأمر يا سيدي؟

- اصمت يا صديقي، لديّ فكرة صغيرة... فكرة مذهلة هائلة مما يأتي لهيركيول بوارو في العادة! ولكن إن كانت كذلك فأرجو من الله أن أتصرف في الوقت المناسب.

ثم خرج من الحديقة راكضاً وألبرت في أعقابه وهو يسأله لاهثاً: ما الأمر يا سيدي؟ إنني لا أفهم.

- لا عليك يا ألبرت، ليس مفروضاً أن تفهم، فهيستنغز لم يكن يفهم أبداً! إذا لم تكن خلاياك الرمادية الصغيرة في نفس مستوى خلاياي فما هي التسلية التي سأحصل عليها من هذه اللعبة؟ إنني أتكلم كلاماً تافهاً لكني مجبَر على ذلك. أنت فتى طيب يا ألبرت وتعرف قيمة تويبنس... إنها تعدل عشرة مني ومنك.

* * *

وهكذا عاد تومي إلى الفندق مسرعاً لاهثاً. ورأى إيفانز في ردهة الفندق فسحبه جانباً وأسرّ إليه بكلمات سريعة، ثم دخل الرجلان المصعد ومعهما ألبرت.

قال تومي: الطابق الثالث.

توقفوا عند باب الغرفة ٣١٨، وكان إيفانز يحمل معه مفتاحاً رئيسياً فاستخدمه، وبلا أي كلمة تحذير اتجهوا إلى غرفة نوم السيدة فان شنايدر مباشرة. كانت السيدة ما تزال مستلقية على السرير لكنها كانت قد غيّرت ملابسها، وقد ارتعبت عندما رأتهم.

قال تومي بمرح: اعذريني لأنني لم أطرق الباب، لكني أريد زوجتي. هل تمانعين لو أننا رفعنا هذا السرير؟

صاحت السيدة فان شنايدر: أظن أنك مجنون لا محالة.

نظر تومي إليها وهو يميل برأسه على أحد جانبيه وقال: عمل تمثيلي جيد، لكنه لن ينفع. لقد نظرنا تحت السرير ولكن ليس في داخله! أتذكّر أنني اختبأت في ذلك المكان عندما كنت صغيراً، في خط أفقي مع السرير تحت الفرشة. كما أن صندوق الثياب الجميل ذاك يمكنه احتواء الجثة فيما بعد... لكننا كنا أسرع منك بقليل. كان لديك الوقت لتخدير توبنس ووضعها تحت الفرشة ثم يتم تقييد يديك بمساعدة شريكك في الغرفة المجاور. وأعترفُ بأننا صدّقنا قصتك في تلك اللحظة، ولكن عندما يفكر فيها المرء ملياً تفكيراً منهجياً ومرتباً يعرف أن من المستحيل تخدير فتاة وإلباسها ثياب ولد وتقييد امرأة أخرى وتكميم فمها ثم قيام المرء أخيراً بتغيير شكله... وهذا كله في خمس دقائق فقط! إنه مستحيل من الناحية العملية. كان يُراد جعل الممرضة والولد طعماً، وكان علينا أن نتبع الخيط ونأسف على السيدة فان شنايدر التي وقعت ضحية! أرجو أن ترفع السيدة عن السرير يا إيفانز. هل تحمل مسدسك معك؟ جيد.

ابتعدت السيدة فان شنايدر عن سريرها بالقوة وهي تحتجّ وتعارض، فأزاح تومي الأغطية ثم الفرشة، وهناك كانت توبنس ممددة في خط أفقي وقد أغمضت عينيها وشحب وجهها. أحسّ تومي في بداية الأمر بالذعر الشديد، ثم شاهد حركة أنفاسها البطيئة. كانت مخدّرة ولم تكن ميتة.

التفت إلى ألبرت وإيفانز وقال بأسلوب مؤثر: والآن يا سادة، المفاجأة الأخيرة.

وبحركة سريعة غير متوقعة أمسك بشعر السيدة فان شنايدر وجذبه فخرجت الباروكة في يده.

قال تومي: كما ظننت، الرجل رقم «١٦»!

* * *

ربما كان من اللباقة إسدال ستارة على الأحداث التي تبعت ذلك بنصف ساعة؛ فقد فتحت توبنس عينيها فوجدت أمامها تومي ومعه طبيب، ثم غادر الطبيب المكان بعد أن تأكد من أن توبنس على ما يرام، فقال تومي بانفعال: يا صديقي هيستنغر، كيف أعبّر لك عن فرحتي لأنك ما زلت على قيد الحياة؟

- هل أمسكنا بالرقم ١٦؟

- لقد سحقته مرة ثانية كقشرة البيضة... أقصد أنه أصبح في قبضة كارتر الآن. إنها الخلايا الرمادية! بالمناسبة، سوف أرفع راتب ألبرت.

- أخبرني بكل شيء.

روى لها تومي القصة بحماسة، لكنه حذف بعض التفصيلات. فسألته توبنس بصوت خافت: ألم تشعر بشيء من الانفعال بشأن ما أصابني؟

- ليس على نحو مميز ؛ فيجب أن يكون المرء هادئاً في مثل هذه الأمور.

- كذّاب! إنك ما تزال تبدو منهكاً مكتئباً.

- حسناً، ربما كنت قلقاً بعض الشيء يا عزيزتي. أريد أن أقول إننا سنتخلى عن هذا العمل الآن، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

تنهد تومي بارتياح وقال: توقعت أن تصبحي متفهّمة بعد صدمة كهذه.

- ليست الصدمة، فأنت تعرف أنني لا تهمني الصدمات. لكن سيكون لديّ شيء أفضل من ذلك لأقوم به، شيء أكثر إثارة، شيء لم أفعله من قبل أبداً.

نظر تومي إليها بحماسة وقال: سأمنعك من هذا يا توبنس!

- لن تستطيع... إنه قانون الطبيعة.

- ما الذي تتحدثين عنه يا توبنس؟

- إنني أتكلم عن طفل سنرزق به بعد ثمانية أشهر. أليس كل شيء رائعاً يا تومي؟

* * *

المحتويات